عبدالتواب يوسف.

دليل الآباء الأذكياء في تربية الأبناء



دار المعارف

عبد التواب يوسف

دليل الآباء الأذكياء في تربية الأبناء

الطبعة الثالثة

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

أكبادنا

البيت . . . المدرسة . . المجتمع . .

أطراف ثلاثة ، هى المسئولة بالكامل عن أكبادنا . . وكل منها فى حاجة إلى كلمة ؛ فهى تتضافر من أجل هذا الإنسان الصغير الذى سوف يتلقف الراية ، ليحيا فى زمان غير زماننا ؛ من أجل هذا كان لابد أن تقوم الدراسات حول دور كل من هذه الأطراف .

* * *

والدراسة التى نقدمها هنا تخدم الأطراف الثلاثة :

البيت : الذى لا نريده سجنًا للأبناء ، كما لا نود أن يكون مهد تدليل للصغير ، فيشب غير سوى ، ولا متكامل !

المدرسة : التى غيرنا اللافتة التى تعلوها : من «ديوان المعارف» ، إلى «نظارة المعارف» ، إلى «وزارة المعارف العمومية» ، وأخيرًا : «وزارة التربية والتعليم» . ولا ندرى هل مفهومنا لها قد تبدل مع هذه التغييرات ؟ إذ ما زالت قضية حشو أذهان أبنائنا بالمعرفة هى التى تشغلنا حتى اليوم !

والمجتمع : ترى ماذا يقدم لأبنائنا من خلال مؤسساته : اجتماعية ، وإعلامية ، وثقافية ؟ هل يؤدى دوره الحق ؟

إن هذا الكتاب التربوى يستهدف الأسرة : أمًّا وأبًا ؛ والمدرسة : معلمة

ومعلمًا ؛ والمجتمع : مؤسسات وأفرادًا ، لكى يستطيع الطفل أن يقول يومًا ما : أدبنى – أبى ومعلمى ومجتمعى – فأحسنوا تأديبى .

إن المعلمين والمعلمات لا يدخلون حجرة الدراسة وفى خطتهم إتعاس تلاميذهم ، والآباء والأمهات لا يصحون فى الصباح ولدى كل منهم خطة مسبقة لجعل حياة أطفالهم مملوءة بالأسى والحزن ! إن المعلمة أو الأم لم تستيقظ قط قائلة لنفسها :

– اليوم سأصرخ فى تلميذى وابنى كلما استطعت ، وسأضايقه بكل سبيل !

إن العكس هو الذى يحدث بالنسبة لنياتها الطيبة ، فهى قد تحدث نفسها :

– اليوم لا صراخ . . لا شجار ، لا حرب . . أريده يومًا هادئًا مع أبنائى وتلاميذى !

ومع ذلك تنشب الحرب ، وتجد المعلمة أو الأم نفسها تقول كلمات لم تكن تريد أن تقولها ، ولا تعنى ما تقوله ، وبصوت لم تتوقعه ، بل ربما لم تعهده فى نفسها . . وسؤال يطرح نفسه :

– لماذا تتناقض النيات الطيبات والتصرفات الغريبة فى هذا المجال ؟ لماذا لا نحقق أمنياتنا ؟ ولماذا يحدث عكسها ؟

إن المعلمات والمعلمين والأمهات والآباء يريدون لأبنائهم السعادة والأمان والاستقرار ، وليس هناك من يبغى أن يكون مخيفًا بالنسبة لأولاده وبناته ، أيضاً ليس هناك من يريد لهم أن يشبوا خوافين ، خجلين ، مضطربين ، غير أسوياء !

غير أنهم فى واقع الأمر ينمون وهم يحملون بداخلهم أشياء وأعباء وعقدًا ، ولا يكبرون وبين جنباتهم الحب ، والاحترام لأنفسهم وللآخرين ؛ ونجد أنفسنا أمام صورتين متناقضتين :

- نحن نريد أبناءنا مهذبين ، مؤدبين . .
- ● ونفاجأ بأنهم ليسوا كذلك ، بل هم غير هذا وعكسه !
- نحن نود أن يشب أطفالنا على النظام .
- ● وإذا بنا أمام فوضويين مرعبين !
- إننا نبغى أن يكونوا أقوياء الشخصية ، واثقين من أنفسهم والناس .
- ● ولكنهم ضعاف الشخصية ، لا ثقة لهم فى أنفسهم والناس .
- إننا نتمنى أن يكونوا سعداء مبتهجين فرحين .
- ● ونراهم غير هذا ، نراهم يحملون على كواهلهم أعباء العصر ومشاكله !

اللهم إلا بعضهم فى كل ما تقدم !

وبودنا أن نتفق مع المعلمين والوالدين على أهداف محددة نبغى ونريد ونسعى إلى تحقيقها فى أبنائنا وتلاميذنا ، وأن نتفق على وسائل بذاتها لتحقيق هذه الأهداف وتلك الغايات !

إن الأمهات والآباء يواجهون فى كل يوم ، وفى كل لحظة – مشاكل بعينها ومصاعب بذاتها ، وليس فى استطاعتهم أن يذهبوا إلى « طبيب » متخصص فى التربية ، ليقول لهم أو ليكتب تذكرة دواء ، قد يرد فيها مثلاً :

- أعطوا ابنكم ثلاث جرعات يومية من الحب !
- عليكم أن تبدوا الاهتمام بابنتكم ، هى فى حاجة إلى دفء عاطفى !

– خصصوا للأولاد مزيدًا من وقتكم كل ست ساعات .

– لابد من إجراء عملية جراحية فى المسالك الشخصية !

ليس هناك – مع الأسف – أطباء فى هذا المجال الحيوى يلجأ إليهم المعلمون والمعلمات ، ليعرضوا عليهم حالات التلاميذ ، و«الحالات» لا تعرض على الطبيب النفسى إلا حين يستفحل أمرها ، وتصبح مرضاً عضويًا أو نفسيًّا واضحاً . وفى الظروف العادية ، فكلنا يعرف مدى تأثر الأبناء بالمعلمين وبالوالدين !

وقد أصبح الطفل مرآة أسرته ومدرسته .

– إذا كان الأب من اللون العصبى يتحدث ابنه بسرعة فائقة وبصوت مرتفع .

– والطفل السلبى تدرك منه أن أباه فى البيت قد يكون طاغية ومستبدًّا وفرديًّا !

– وقد تنطوى فتاة على نفسها ، وتدرك من ذلك ما يدور بين الأبوين من صراع !

– والكلمات التى ينطق بها الأبناء ، والألفاظ : تستمد أصلاً من الأسرة !

– إن الأسرة هى التربة التى يشب فيها الأبناء ، وكذلك المدرسة . . وهناك تربة لا تنبت زرعاً : قاحلة . . وتربة تصلح فيها الغابات . . وهكذا الأسرة . . ونقل الأشجار من تربة لأخرى ممكن ، وتطعيمها ممكن أيضاً . . وما نتحدث هنا إلا عن سُبل غرس الأشجار وتعهدها وتنميتها لتشب قوية ثابتة الجذور وارفة الظلال ! .

ولا شك أن الآباء فى حاجة إلى دراسة ، وفى حاجة إلى خبرة المتخصصين فى هذا المجال ، وقد نسمع يوماً ما مثل هذا الحوار بين الأم أو الأب من جانب ، وبين المتخصصين أو المعلم من جانب آخر :

– أنت تبالغين فى مراقبة ابنك والمحافظة عليه !

– إنه حياتى – أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض !

– أوضحُ شبيه لك – يا سيدتى – أنك تبدين كسائق سيارة يريد أن يرقب «الموتور» أو الآلات وعملها خلال قيادته للسيارة ؛ لكى يطمئن إلى حسن سيرها : هل يستقيم هذا ؟

– إن هذا لا يمكن أن يحدث أو يستقيم !

– ولكنه يحدث معك بالنسبة لابنك !

وتذهل الأم للتشبيه : أتراقب (موتور) السيارة وهى تقودها ؟ ويفتح المتخصص عينيها على حقيقة مدهشة : إنها تتصرف فعلاً بهذا الأسلوب ، ولكنها غير متنبهة له أو لخطورته !. إنها بهذا قد تكون إنسانة مضطربة عاطفيًّا ، لكنها تثير اضطراباً اجتماعيًّا ! وهى تحتاج ولا شك إلى علاج ناجع لحالتها التى تتمثل فى رعاية مبالغ فيها ومرضية لطفلها !

وتتمثل فى عبارات كهذه :

– تعال أقيس لك الحرارة ! هل نمت نوماً جيداً يا حبيبى ؟ كُلْ هذا الطعام كله ، لا تقف فى تيار الهواء ، احذر من الوقوف على هذا الدرج خشية أن تسقط ، لا تستخدم السكين خوفاً من أن تجرحك !

إنها تبالغ فى كل شىء ، حتى لتود أن يشب كما تود هى وتهوى ! وهى تريد أن تقوم عنه بكل شىء ، بل تتمنى لو أنها هضمت له طعامه !

والطفل هنا يكبر ، ولا ينمو ، فهو يعتمد على الأم فى كل شىء ، فلا يعرف رغباته ومشاعره ، وتنقصه المهارات الاجتماعية الأولية ، إنها تفكر له ، فلا يجد فرصة لكى يفكر بنفسه ، إنه لا يعرف ولا يتعرف إلى عالمه ، إنه لا يربط بين الأسباب والنتائج ، ويرضى بالحكايات الخيالية والتفاسير الأسطورية للحياة ! وما أشق ما يستطيع هؤلاء أن يخرجوا من إسار أمهاتهم . وأن يحرروا أنفسهم وذواتهم من سيطرتها !

وقد نسمع أيضاً حواراً من لون آخر بين أب أو أم من جانب ، وبين المتخصص من جانب آخر :

- أعرف أنك تحبين طفلك وتداعبينه .
- فعلاً ، لوقت طويل !
- يؤسفنى أن أقول لك : إنك تعاملينه كلعبة أو دمية !
- ماذا ؟
- والواقع أنك فى حاجة إلى من يرعاك ! فى حاجة إلى أُمٍّ تبحثين عندها عن الحنان والحب والدلال ! إن الطفل يشعر أنه لابد أن يحمى أمه ويرعاها ويسليها ويقلق من أجلها ، إذا كانت تؤدى دور الأم . . ولما كان ابنك غير قادر على تأدية هذه المهمة فإنه يظل شاعرًا بالقلق والاضطراب !

إنه ينمو محرومًا من طفولته ، شاعرًا بالإثم ، دائم اللوم لنفسه ! أيعقل يا سيدتى أن ترضى لطفلك هذا ؟

إن الطفل ليس دمية ولا تسلية ، بل هو حياة كاملة ، حياة خاصة : وهو ليس عجينة يشكلها المعلمون والآباء كيفما يشاءون ، بل هو كيان وإنسان ، وليس الآباء والمعلمون كل شىء فى الأمر ، إن للطفل شخصيته ثم المجتمع ، ثم

القيم التربوية والأخلاقية التى تسود ، نحن فى حاجة ماسة إلى الدراسة والبحث ، وهذا يقودنا ولا شك إلى ضرورة معرفة النظريات التربوية وتطبيقاتها . لكى ينمو الأبناء على أسس قويمة !

المدخل إلى الطفل

إدارة الحوار مع الطفل فن رائع ، له قواعده ومعانيه الخاصة . والأطفال ليسوا سذجًا كما يتصور البعض ، وبالذات فى مجال اتصالهم بغيرهم ، وحوارهم معهم . إن أسئلتهم وإجاباتهم عن الأسئلة تحتاج منا إلى تحليل ودراسة سوف تكشفان عن (لغة) خاصة بالأطفال فى حوارهم مع الكبار .

* * *

سمعت طفلاً يسأل :

الطفل : ما عدد الأطفال الذين بلا آباء فى الوطن العربى ؟

الأب : هذا سؤال مهم لأنه يدل على اهتمامك بقضايا الوطن والقضايا الاجتماعية .

الطفل : ما عدد هؤلاء الأطفال ؟

الأب : ثم هو اهتمام إنسانى كبير !

الطفل : وما عددهم فى بلدنا وفى العالم ؟ كل الذين فقدوا آباءهم و . . .

الأب : سأحدثك عن هؤلاء فى إيجاز ، إن الأطفال . . .

ولم يكن هدف الطفل إنسانيًّا أو قوميًّا أو اجتماعيًّا فى سؤاله هذا ، بل كان شخصيًّا ذاتيًّا ، إنه كان قلقاً على نفسه يخاف أن يفقد والديه ، أو أباه

بالذات ، لذلك طرح هذا السؤال بشكل غير مباشر.

وهناك طفلة زارت معرضاً فنيًّا لكبار الفنانين ، وفاجأت أمها بسؤال محرج :

الطفلة : من رسم هذه الصورة القبيحة يا أمى ؟

الأم : قبيحة ؟ من يقول هذا ؟

الطفلة : أنا أقوله ! هيّا : إنها قبيحة فعلاً !

الأم : ليس من اللائق أن تقولى هذا عن أعمال فنيةٍ رائعة !

الطفلة : إنها ليست رائعة على الإطلاق !

الأم : تعالى أوضح لك مواطن الجمال فيها !

الطفلة : لا ، لا أريد !

إن الأم لم تدرك حقيقة ما تريده الطفلة بسؤالها ، وقد نجح أحد الموجودين فى الرد عليها ، فأخذها برقة من يدها ، وابتعد بها عن أمها ، وسار خطوات يشاهدان فيها (اللوحات) وهو يقول :

– ليس مطلوباً هنا أن يرسموا (لوحات) جميلة ، بل يستطيع الفنان أن يرسم (لوحة) قبيحة إذا أراد ، إنه يرسم ليؤثر فى الناس.

وابتسمت الطفلة واستراحت ، إنها ليست مطالبة بأن ترسم (لوحات) رائعة كهذه ، إن مهمتها مجرد أن ترسم حتى لو لم يكن رسمها جميلاً.

لقد هاجمت (لوحات) المعرض وقالت : إنها قبيحة لأنها لا تستطيع أن ترسم مثلها ، إنها مثل الثعلب الذى لم تصل يداه إلى العنب فرآه مرًّا !

ودخل طفل مرة إلى متجر لعب ، فوقعت أنظاره على لعبة مكسورة ، فسأل فى غضب :

الطفل : من كسر هذه اللعبة ؟

الأم : أى شىء يعنيك فى هذا ؟

الطفل : لابد أن أعرف من كسرها ، إنها غالية .

الأم : أنت لا تعرف أحداً هنا ، ما جدوى سؤالك ؟

كان الصغير يسأل لا ليعرف اسم الذى كسر اللعبة ، بل ليعرف ماذا حدث : هل عوقب ؟ وبأى صورة ؟ والرد البسيط هو أن هذا متجر يجرب فيه لناس اللعب التى صُنِعت ليلعب بها الأطفال ، ويحدث أحياناً أن تكسر بالقضاء والقدر ، إن هذا الرد يجعل الطفل فى أعماقه يقول :

— إن هؤلاء الكبار أناس ظراف ! إنهم لا يغضبون بسرعة لو أننى رسمت صورة غير جميلة ، أوكسرت لعبة ، إنهم متسامحون محبون للأطفال ، ليس من الضرورى أن أخافهم ، بل إن الأمان يغمرنى ، والاطمئنان يسود حياتى بينهم !

— ولسنا نظن أن عالم هؤلاء «الشياطين» (المحبوبين) سيضم طفلاً يقول نص هذه الكلمات ، بل ندرك تماماً السر وراء ابتسامة تغمر وجوههم أو نظرة تطل من أعينهم . ولقد دار حوار بين الطفلة التى شاهدت المعرض وبين أمها :

الطفلة : ابنة خالتى ستذهب لبيتها ؟

الأم : بالطبع .

الطفلة : وأبقى وحدى مرة أخرى ؟

الأم . ستجدين لك صديقة أخرى تلعبين معها !

الطفلة : إنى سأكون وحدى !

الأم : ثقى أنك قادرة على التغلب على وحدتك !

الطفلة : لا ، أبداً ، وتنفجر الطفلة باكية ، وتسخر منها الأم قائلة :

أنت تبكين كالأطفال الرضع !

كان هذا المشهد يمكن أن ينتهى نهاية حلوة : إن عواطف الأطفال يجب أن تتناول بشكل جدى : فالأم ترى أن فراق ابنة الخالة أمر بسيط هين لا يستحق دموعاً ، ولا يستحق من جانب الأم أن تبدى فهمًا وإدراكاً لهذا الذى يزعجها ، فى حين كان يجب عليها فى واقع الأمر أن تتنبه للحدث ، وتؤكد أن الفراق لابنة خالتها مؤلم ، وأنها ستوحشها ، وأن البيت سيكون غير أنيس لهذا ، وردود كهذه ستخفف من وقع الحدث بدلاً من تحدى مشاعر ابنتها ، وتعييرها بأنها رضيع !

والأمهات والآباء يضيقون بالحوار والحديث مع الأطفال ، ويرون أنه بلا جدوى ، ولا نتيجة له !

الأم : إلى أين تذهب ؟

الطفل : إلى الخارج !

الأم : لماذا ؟ وأى شىء ستفعل ؟

الطفل : لا شىء !

والآباء والأمهات الذين يريدون أن يبدوا معقولين سرعان ما يكتشفون كم هو مرهق هذا ! وأنه يكلفهم شططاً ، حتى إن أُمًّا من الأمهات قالت :

– إننى أود أن أكون منطقية مع ابنى ، ولا ينالنى إلا أن رأسى يصاب بالصداع ، فى حين أنه لا يستمع إلىّ ! إنه لا يصغى إلا إذا صرخت ، أو إذا كان راغباً فى الاستماع !

إن الأطفال فى واقع الأمر يقاومون الحوار مع آبائهم ، ويضيقون بالحديث

إليهم بالنصائح ولا يحبون النقد ، وهم يعتقدون أن آباءهم يتكلمون كثيراً ، حتى إن واحداً منهم عمره ثمانى سنوات قال لأمه :

– إننى عندما أسألك سؤالاً صغيراً لماذا تجيبين بكلام كثير؟

وقد أضاف هذا الصغير إلى قوله هذا تصريحاً لأصدقائه :

– إننى لا أقول شيئاً لأمى ! إذا بدأت أتحدث معها فلن أجد وقتاً كافياً لكى ألعب !

والذى يتسمع لحوار يدور بين طفل وأبيه يذهله أن كُلاً منهما لا يسمع الآخر جيداً ، بل لا يعطيه أذنيه تماماً ! إن كُلاً منهما يقول منولوجاً خاصًا به : من جانب الأب مجموعة من الانتقادات والتعليمات ، ومن الجانب الآخر محاولة للإنكار ونفىَ التهم ! ومأساة مثل هذه الاتصالات لا تكمن فى أنه ينقصها الحب ، بل ينقصها الاحترام ، ولا تكمن فى قلة الذكاء بل فى ندرة المهارة !

لذلك نحن فى حاجة إلى لغة جديدة للتخاطب بين الآباء والأبناء من أجل مزيد من التفاهم بين الطرفين ، وفى حاجة إلى مواصفات خاصة للحوار الذى يدور بين طرفين يجب أن يكونا أكثر اتصالاً ، أكثر أخذاً وردًا ، أكثر عطاءً للجانبين !

الحوار مع الطفل

حذرنا المعلمين والآباء من مراقبة أبنائهم ووضعهم فى قوالب جامدة ، وطالبنا بأن يدور بين الطرفين حوار بناء تمر كلماته عبر العقل قبل أن تقفز على الألسنة ، ونواصل الحديث هنا عن الحواز مع الطفل .

* * *

أكبادنا : يجب أن تكون وسائل الاتصال بيننا وبينهم أوثق وأفضل مما هى الآن ، والحوار معهم يتطلب الاحترام والمهارة من الطرفين ، ذلك وحده الذى يقود إلى التفاهم وإلى خلق ثمرة حقيقية لما يدور بينهما ، والوصول إلى نتيجة محددة ، وذلك أجدى وأفضل من فيض النصائح والتعاليم والفرمانات السلطانية التى تصدر من الأعلى !

لقد عاد طفل يبكى بحرارة لأن رحلة المدرسة ألغيت بسبب المطر ، وقررت الأم أن تتناول الأمر بطريقة مختلفة ، إنها فى كل مرة تقول واحدة من هذه العبارات :

– لا داعى للبكاء على رحلة ، هناك رحلات قادمة على الطريق .
ولا تنسَ أنى لست السبب فى المطر ، فلا تغضب منى !

لقد قالت الأم فى نفسها هذه المرة كلمات جديدة ، قالت لنفسها :

– إن ابنى يتأثر كثيراً بسبب إلغاء الرحلات ، إنه يشعر بأسىً وضيقٍ ، لماذا

لا أحاول أن أشاركه فى ذلك ؟ قد أستطيع بذلك أن أساعده على التغلب على مشاعره هذه !

- يا عزيزى ، يبدو أنك حزين .
- طبعاً .
- كنت ترغب كثيراً فى الذهاب إلى الرحلة .
- فعلاً .
- أعددت كل شيء ، ثم أمطرت السماء بشكل تعذر معه الذهاب !
- هذا هو بالضبط ما حدث ، شيء مؤسف ، لكن .. لكن .. لكن ...
- سوف تأتى رحلات كثيرة فيما بعد .

وينطق الطفل بالعبارة الأخيرة بلا أسف ، وقد كان يبدو أن غضبه يتبخر ، وكان متعاوناً ورقيقاً وظريفاً بقية اليوم ، وكان المعتاد غير ذلك حين يعود من المدرسة غاضباً ، وكان يسبب الكثير من المضايقات لكل أفراد الأسرة ، ولا يسود السلام والوئام إلا حين ينام .

والواقع أن الطفل حين يكون فى قمة الانفعال لا يستمع إلى أحد ، لا يقبل النصيحة أو النقد أو الترضية ، وهو يريد أن نعرف ما يدور فى نفسه فى هذه اللحظة بالذات دون أن يكشف لنا هو عنه ، إنه يعطينا مؤشرات ، وعلينا أن نفهم وندرك الباقى ونستنتجه ! وإذا ما قال لنا الطفل مثلاً :

- معلمتى ضربتنى .

فعلينا ألا نسأله عن أى تفاصيل أخرى أو إضافات ، ولا نحتاج أيضاً إلى

مساءلة عن السرـف أنها ضربته ، لقد تعودنا دائماً أن نسمع من الأمهات فى هذه اللحظة :

– لابد أنك تستحق الضرب ! ماذا فعلت لتضربك مُدرستك ؟

بل يجب على الأم أن تجامله وتقول له بهدوء مشوب بالحزن :

– إنى آسفة لأن أسمع ذلك !.

من الواجب أن يدرك أننا ندرك آلامه ، وحرج موقفه ، ومشاعر الغضب والانتقام التى تتفجر بها نفسه ، ولا شك أن تساؤلاً يدور فى النفس حول أحاسيسه ، إن علينا أن نتطلع إليه ونرقبه باهتمام ونسمعه فى إصغاء كامل ، ونعتمد بعد ذلك على خبراتنا معه ، ويجدر بنا أن يكون تعليقنا واحداً من هذه العبارات :

– لابد أنك شعرت بالحرج وغضبت لما حدث ، لاشك أنك ضقت بالمعلمة فى هذه اللحظة ، إنه يوم سخيف أتصور أنه جرح مشاعرك !

إن مشاعر الطفل وانفعالاته القوية لا تزول حينما نقول له عبارة كهذه :

– ما كان يجب أن يكون هذا هو شعورك ، لم يكن هناك مبرر لهذه الأحاسيس !

إنها لا تنتهى بعبارة وكلمة ، بل تنتهى حدتها عندما يتقبلها المستمع فى تعاطف وتفهم كاملين . وهذا ينطبق على الكبار والصغار أيضاً : لو أن زوجة بكى طفلها ودق جرس التليفون وانسكب اللبن الذى تغليه ، وغضب الزوج وقال عبارة قاسية عن سوء إدارتها للبيت : فهل تتقبلها الزوجة ؟ ماذا لو أنه قال :

الأب - : إنه لصباح مزعج بالنسبة لك !

الأم : حقًّا ، وشكراً لأنك لا تغضب بما يحدث ، لأنه خارج عن إرادتى !

إن الزوجة لم تنتقد من جانب زوجها ، لأن اللبن انسكب فالتقطت أنفاسها ! إن زوجها معها وليس عليها ، لو أنه قال لها مثلاً :

الأب : دعينى أغلى اللبن وأعد الإفطار ما دمت غير قادرة على ذلك .

إنه بهذا يشعرها بعجزها ، وهذا شىء سخيف !

وعندما نطبق هذا على الأطفال نجد أنفسنا نرتكب أخطاء كثيرة : قد تقول الأم :

– إنك كبرت إلى درجة تستطيع معها الاعتماد على نفسك .

– تعال يا عزيزى أعلمك كيف يمكنك أن تفعل هذا الشىء .

وتقول الأم أحياناً : أنت لا تصلح لشىء ! وكم يكره الطفل هذه العبارة وصاحبها ، بل إن صاحبة العبارة لا تحبها ولا تحب نفسها حين تقولها ! وموضوع اللبن الذى انسكب درس نتعلم منه ما نستطيع أن نقوله لطفلنا ، ولكى نجلب له الارتياح .

الأم : إنى أفهمك يا عزيزى ولا ألومك أبداً .

الأب : إنك وحدك القادر على أن تؤدى هذا الأمر بشكل أفضل فى مرة مقبلة .

الكلمات هنا : إما أن تسعد سامعها ، أو تمزقه ! إن استجاباتنا للكلمات والمشاعر هى التى تقرر جو بيوتنا : أهو الهدوء والحب أم الشجار والكراهية ؟

وكلمات الحوار مع أطفالنا تحتاج منا إلى دراسة متأنية لشروط وقوانين يجب أن نطبقها ؛ لكى يكون الحوار ناجحاً ومستمرًّا ومحققاً لأهدافه . وأولى

هذه الشروط أننا إذا سألنا طفلنا عن حدث بذاته فعلينا أن نجيب ولا نروى الحدث ، بل نحكيه بشكل يتصل بطفلنا الذى يقول :

- إنى لا آخذ مصروفاً ، ولا أتلقى هدايا مثل شقيقتى ! هذا ظلم ! .

والأم هنا يجب ألاّ تستنكر الشكوى ، أو تنكر أنها صادقة ، ويجب ألا تشرح للصغير أن شقيقته كبيرة ، أكبر منه وتحتاج لأشياء أكثر ، وأيضاً يجب ألا تعد بالمساواة بينهما فى المصروف والهدايا ! إن الأم قد تضع ردها فى كلمات كهذه :

- أنت على يقين من أنى أحبك مثلما أحبها تماماً .

ولم تضف الأم عبارة أخرى ؛ فإن الطفل ابتسم فى مرح وفرح وانتهى الحوار عند هذا بلا امتداد . وعندما يروى الطفل حادثة يجب ألاّ نتجاوب معها ، بل نتجاوب مع مشاعره تجاهها ، مثلا :

الطفل : زميلتى وقعت اليوم من على درجات السلم ، دفعوها فسقطت .

الأم : لابد أنك تألمت كثيراً لهذا ، وتضايقت ممن فعل هذا معها !

الطفل : (بفرح) فعلاً .

ولو أن الأم قالت : إن طفلها يخاف أن يتكرر هذا معه لتحداهم أن يفعلوا ، ولقال : إنه كان سيلقى بهم من حالق (مكان مرتفع) ! ويضحك للصورة الانتقامية ، وينتهى الحوار بالارتياح دون تفاصيل مؤلمة ومؤذية لحادثة قد تكون كبيرة الأثر . وهذا أفضل ؛ لأن فى تأكيد الحقائق وتوضيح الظروف مجالا لتفريعات عدة نحن فى غنى عنها ، إن الطفل يعود بشكاوى كثيرة .

- معلمتى أساءت إلىّ ، وقالت إنى غير صادق !

– لاشك أنك تألمت لهذا ؛ إذ لابد أنك أُحرجت أمام زملائك وبينك وبين نفسك لم تكن راضياً عنها .

– فعلاً ، كيف عرفت يا أمى ؟

– كلنا كان يحدث معنا هذا فى طفولتنا . .

ويستريح الطرفان ، الابن والأم بدلا من تبادل التشاكى والتباكى ، وبدلاً من حكايات طويلة ممتدة يكون تعليق الأم عليها مثيراً للانفعال للصغير ، الأمر الذى يجعله متعصباً لرأيه ولموقفه . ولقد ربطنا بين الحدث وعلاقته بالصغير والحدث ومشاعره ، وتتبقى شروط ومواصفات للحوار مع الطفل .

فن إدارة الحوار

نستكمل هنا الحديث عن «الحوار مع الطفل» بعد أن قدمنا لقضية الطفولة وعلاقتها بالبيئة والمدرسة والمجتمع ، وعرضنا للحوار مع الصغار على أنه أروع وسائل الاتصال بهم ، وإذا ما استكمل هذا الحوار شروطه أصبح فى مقدورنا أن نفيد منه فى بناء شخصية أبنائنا .

* * *

أكبادنا : إذا ما سألونا عن حادثة ما فعلينا أن نجيبهم بروايتها من زاوية اهتمامهم بها ، وإذا ما رووا حادثاً فعلينا أن نشاركهم فى مشاعرهم تجاهه ، أما إذا ذكر الطفل عبارة ما عن نفسه فلابد من الاستجابة لها لا بالموافقة ، مجرد الموافقة ، بل بتعقيب فيه تفاصيل تقنع الطفل بتفهمنا للأمر بشكل يفوق توقعه ، فإذا ما قال طفل :

– أنا لست متفوقاً فى الحساب .

– فعلا . إنك تخطئ كثيراً فى العمليات الحسابية .

– لأنى لا أحبه .

– ستحبه إذا استذكرته بشكل دائم ومستمر و . . !

هذه النصيحة رخيصة ، ولا يفيد الطفل كثيراً أن توافقه على حقيقة ما قاله عن نفسه بهذه الصورة ؛ والواجب أن يدور الحوار بيننا وبينه كما يلى :

– أنا لست متفوقاً فى «الحساب» .

– الحساب ليس مادة سهلة على كل حال .

– فعلا : كثير من مسائل الحساب معقدة وصعبة الحل .

– لابد أن حصة الحساب طويلة بالنسبة لك .

– ما إن تنتهى حتى أتنفس الصعداء !

– ولاشك أنك قلق لِما ينتظرك فى امتحان الحساب ؟

– طبعاً .

– إننا نثق فى ذكائك ، ونعتمد على قدرتك فلتكن عند حسن ظننا فيك !

على هذه الشاكلة يجب أن يدور الحوار ، وإذا عاد هذا الطفل بتقرير المدرسة الفترى إلى أمه ، وناقشته بهذا الأسلوب فسيعقب على ذلك بقوله :

سوفَ أستميت لكى أحقق ثقة أمى وأبى فىّ !

وربما يدور حوار من لون آخر بين طفل وأبيه حول درجة ذكاء الصغير ، وهذا الحوار التالى بين طفل وأبيه يحتاج منا إلى يقظة كاملة لنستوعب أبعاده :

الطفل : إنى غبى . .

الأب : لا ، لسْتَ غبيًّا !

الطفل : بل أنا غبى . .

الأب : أبداً ، هذا غير صحيح ! عندما كنت فى النادى كان المشرف يقول : إنك من أذكى الأطفال .

الطفل : ولكنه قال لى أكثر من مرة إنى غبى . .

الأب : كان يداعبك !

الطفل : وماذا عن درجاتى فى دروسى؟ إنها تؤكد غبائى !

الأب : لا ، إنها تطالب بمزيد من الجهد والدرس والتحصيل . .

الطفل : لقد بذلت كل ما فى وسعى ، ولكننى كما قلت لك : غبى !

الأب : (بصوت مرتفع) لا ، لستَ غبيًّا .

الطفل : بل أنا غبى !

الأب : قلت لك : أنت لست غبيًّا ، يا غبى !

إن أطفالنا حين يعلن الواحد منهم أنه غبى ، أو قبيح أو فاشل ، أو شىء من هذا القبيل – فإن أى كلام من جانبنا لن يغير من وجهة نظره فى نفسه على الفور ، بل هو يقاوم بحدة أى محاولة مباشرة ، لكى يبدل من رأيه ؛ بل إن هذه المحاولة قد تزيده تمسكاً بما يراه فى نفسه على أساس أنه أدرى بها ! ولو أن طفلنا الذى سمعناه يصف نفسه بالغباء دار بين أبيه وبينه حوار من لون آخر :

الطفل : أنا غبى .

الأب : (بجدية شديدة) هل أنت مقتنع فعلاً بهذا؟ هل أنت – بصدق – لا ترى نفسك ذكيًّا؟

الطفل : لست بذكى على الإطلاق !

الأب : إذن لابد أنك تعانى فى داخلك من الكثير .

الطفل : فعلاً .

الأب : لابد أنك فى المدرسة تخاف أموراً كثيرة : تخاف الامتحان والرسوب و . . لابد أنك ترتبك حين يستدعيك المعلم لتجيب عن سؤال ، وربما تعرف الإجابة ، وإذا بالارتباك يجعلك لا تحسن الإجابة ، وتتصور أن المعلم ينتقدك بقسوة ، وأن

الأولاد يضحكون ، لذلك تفكر كثيراً فى ألاّ تقول شيئاً !
وهذا يجعلك تتصور نفسك غبيًّا ! أما فيما أرى فإنى أخالفك
فى وجهة نظرك !

مثل هذا الحوار لا يغير من وجهة نظر الطفل فى نفسه ، ولكنه يزرع فيه بذرة شك فيما يتصوره وقد يقول فى نفسه :

— إذا كان أبى يرانى غير غبى فربما كنت فعلاً كما يرانى .

مثل هذا الحوار فيه الكثير من التعاطف ، وقد يدفع الطفل إلى أن يرتفع ليصبح محل الثقة من أبويه وموضعها : فإذا ما قال طفل — أنا لاحظَّ لى — يجب ألاّ نناقش ونعترض ونشرح لنغير من وجهة نظره ؛ لأن كل حكاية عن الحظ الحسن ستقابل بحكايتين من جانبه ، ولكن علينا أن نؤكد له أننا نقدر مشاعره التى تدفع به إلى مثل هذا الاعتقاد :

الطفل : أنا سيئ الطالع جدًّا !

الأب : إذن كلما لعبت مباراة فعلاً قلت لنفسك : « سأهزم ؛ لأنه لاحظَّ لى ! » .

الطفل : فعلاً هذا ما أقوله لنفسى .

الأب : وفى المدرسة إذا كنت مستذكراً دروسك تقول لنفسك : « لن يسألنى معلمى ! » .

الطفل : بالضبط هذا هو ما يحدث .

الأب : وإذا لم تستذكر يسألك معلمك !

الطفل : فعلاً .

الأب : إننى أرجو أن أسمع منك أمثلة أخرى على سوء الطالع ؛ لأنى

مهتم بفهم ما تراه سوء طالعك ، وفى كل مرة يحدث معك
شىء احكه لى ودعنا نناقشه لتعرف : هل كان نتيجة حقيقية
لسوء الطالع أو لا ؟

ويستمع الأب باهتمام إلى الحكايات ، ولا نتصور أن الحوار سيغير من وجهة نظر الابن الطفل ، لكنه قد يقنعه بأنه محظوظ أن يجد أباً يجرى معه مثل هذا الحوار ! إذ إن الأطفال لديهم إحساسان متباينان تجاهنا – آباءً ومعلمين – وكل الذين لهم سلطة عليهم ، إنهم يحبونهم ويضيقون بهم ! وليس هذا انفصاماً فى الشخصية ، لكنه طبيعى من الطفل تجاه أفراد أسرته . وحتى نتفادى من الصراع مع أنفسنا يجب أن يدرك الأطفال أن هذا طبيعى ، ولسوف يضطرب الطفل لو أنه علم منا أن لديه مشاعر متضاربة ، قد تقول له الأم :

– واضح أنك تحب مدرستك ولا تحبها ! إنك دائماً برأيين : تريد أن تذهب للرحلة ، وتريد أن تبقى بالبيت ! تريد ، وتريد . .

الطفل : لو فهمتنى ، ما تصورت أن لى رأيين لم أقرر أيهما أختار .

الأم : بل إنك متردد ، أحياناً تحب صاحبك ، وأحياناً تقاطعه !

وعلم النفس الحديث يقول : إن إعجابك بشخص يحمل معه مشاعر بالحسد . . . وتمتزج عواطف الحب بالكراهية ، والإيذاء بالعدوان ، وهذا كله طبيعى ، ولكنهم علمونا أن العواطف السلبية سيئة ، مع أن كل أمر من أمور الحياة قل أن يكون خيراً وشراً فى الوقت نفسه ، وبالذات المعنويات . ومما لا شك فيه أن ذلك يؤثر تأثيراً سيئاً فى الصحة العقلية والنفسية إذا ما حكَّمَ الإنسان عواطفه ، مع أن العواطف ميراثنا : السمكة تعوم ، والطائر يطير ، ونحن نحس ونشعر ، وأحياناً تمتزج مشاعرنا ، ولا اختيار لنا فى قضية المشاعر :

أيهما يبرز ؟ وما من شيء هنا أفضل من الصدق ! يجب أن يعرف أطفالنا حقيقة مشاعرهم ، معرفة ذلك أجدى من معرفة الأسباب حتى لا يناقض نفسه ، ويجب أن نكون مرآة لأبنائنا فيروا عندنا عواطفهم ؛ وكما تنعكس صورته فى المرآة تنعكس صورة عواطفهم على مشاعرنا ووجوهنا وكلماتنا ، مرآة صادقة يجب أن نكون ، فتقول الأم لطفلها :

الأم : يبدو أنك غاضب جدًّا ! الظاهر أنك تكره كثيراً هذا الأمر !

هذه العبارات تفيد الصغير فى فهم وإدراك حقيقة مشاعره ؛ لأنها تعكس صورة ما عنده ؛ كما تعكس المرآة صورته . على أننا لابد أن ندرك قيمة الحوار مع الطفل والحديث إليه : كل كلمة لها معناها وأثرها وتأثيرها ؛ وتبقى دائماً أبداً على صفحة حياة الطفل ، تبقى أبداً !

امتداح الطفل

الحوار مع الطفل شكل من أشكال الفهم والتفاهم ، والحوار ليس سؤالاً وجواباً فحسب ، بل يدور بين طرفين ، وقد يشكل صراعاً ، وقد يكون إضافة كبيرة للطفل الذى نستهدف بناءه ؛ لكى يمضى على الطريق إنساناً سويًّا مكتملاً ، ولكى يشب قادراً على مواجهة الحياة ، والآن نناقش قضية امتداح الأطفال والثناء عليهم :

* * *

أكبادنا : هل نمتدحهم ؟ هل نثنى عليهم ؟ إن الكثيرين يعتقدون أن المديح يبنى شخصية الطفل ، وأن الثناء يجعله آمناً مطمئناً ، غير أنه قد لوحظ أن

المديح والثناء ينتج عنهما أثر عكسى ! لماذا ؟ ربما كانت القصة التى روتها واحدة من الأمهات خير ما يوضح السبب ، قالت هذه الأم :

– كنا فى عطلة نهاية الأسبوع ننطلق بسيارتنا إلى نزهة ، أسرتنا كلها ، كان ابننا الأكبر يجلس فى المقعد الخلفى من السيارة فى صمت وهدوء : يفكر ، ويتصرف كملك ، قلت لنفسى : إنه يستحق كلمة مديح وثناء ! التفت إليه وقلت له : أنت ولد رائع . إننى فخورة بك . إنك تتصرف بشكل طيب جدًّا !

ولم تمر لحظة واحدة على كلماتى إلا « ومنفضة السجائر » تنثر علينا الأعقاب والرماد حتى ما كاد أبوه يتبين الطريق ! ورحنا نسعل ، وبَدَوْنا فى السيارة كأنما نزلت علينا السماء ! وتمنيت فى هذه اللحظة لو أننى أستطيع أن أضربه بكل ما أستطيع من قوة ! وكان أكثر ما يضايقنى كلمات المديح التى أسبغتها عليه منذ لحظات ! وكان أن خطر لى هذا السؤال :

– هل المديح ضار بالطفل ؟

– بعد أسابيع اعترف ابنى بالسر فيما فعله : لقد كان طيلة الوقت فى السيارة يفكر فى سبيل للتخلص من شقيقته الصغرى التى تجلس فى المقعد الأمامى بينى وبين أبيه ! وخطر له لو أن حادثاً وقع بالضبط فى وسط السيارة لاستراح من شقيقته وبقى ثلاثتنا ! *وفى اللحظة نفسها امتدحته على هدوئه* وتفكيره العميق الذى لم أكن أعلم عنه شيئاً ، وجعله المديح يشعر بالإثم ، وقرر أن يثبت لنا أنه لا يستحقه ، فما كان منه إلا أن قذف بمنفضة السجائر على النحو الذى رويته !

هذه القصة وغيرها تؤكد أن للأطفال – من حين إلى حين – أفكاراً هدامة

ورغبات مدمرة ، وبالذات تجاه أفراد الأسرة . وعندما يقول الأب :

- أنت ولد لطيف ظريف !

يحس الطفل أنه ليس كذلك ، ولا يتقبل المديح ؛ لأن صورته عن نفسه مختلفة تماماً ! إنه يرى فى نفسه شريراً صغيراً ؛ فمنذ لحظات تمنى لو أن فم أمه له «سوستة» أو «زراير» يغلقه بها ! وطلب أن يقضى شقيقه الأيام التالية فى المستشفى ! وكان يأمل لو كسرت ساق عمته حتى لا تذهب معه للرحلة بأوامرها ونواهيها ! وكلما امتُدح زاد فى سوء التصرفات ؛ حتى يظهر نفسه على حقيقتها ! والآباء دائماً يقولون :

- إن امتداح الطفل على عمل من أعماله يقلبه على الفور إلى شيطان رجيم ! فيصبح متوحشاً ويأتى من الأخطاء ما لا قِبَل لنا باحتماله !

والسؤال الذى يطرح نفسه : هل امتداح الطفل والثناء عليه أصبح شيئاً بالياً ، تقليديًّا ، قديماً ؟ الإجابةُ : لا ، أبداً ! المسألة : هى أن المديح مثل الدواء : يجب ألا يعطى كيفما اتفق ، بل بحساب ، وبحساب دقيق ! هناك محظورات فى إعطاء الدواء : جرعة أكبر قد تكون قاتلة ، أيضاً التوقيت ، وهناك حسابات من اللوم نفسه بالنسبة للمديح ؛ إذ يجب أن يكون المديح مقصورا على شىء واحد ، هو : امتداح جهود الطفل وإنجازاته ، وليس شخصيته وصفاته : الأم تستطيع أن تقول :

- شكراً حبيبتى ، لقد أديتِ عملك كما يجب .

أما أن تصف الأم ابنتها بأنها رائعة وعظيمة وقائمة الصفات المعروفة - فهذا يفسد الأطفال ! كلمات المديح يجب أن تكون مرآة عاكسة لإنجازات وجهود بنّاءة وحقيقية ، وليست صورة ملونة زاهية الألوان عن شخصية الطفلة

أو الطفل . وليس أفضل من أن نقدم صوراً للمديح الذى يستحقه صاحبه :
قالت الأم لابنتها :

– كان المطبخ – عقب حفل العشاء – رهيباً ! ما كنت أصدق أنه سيتم تنظيفه فى أقل من أسبوع !

الطفلة : لقد بذلت بعض المجهود ، حاولت . .

الأم : كان جهداً ناجحاً ومحاولة رائعة : المطبخ نظيف أنيق الآن ! شكراً لك . .

الطفلة : عفواً يا ماما . .

كانت ابتسامة الصغيرة عريضة ، وكانت سعيدة بما فعلت وأنجزت ، وأمامها المطبخ يشهد بما قامت به ، وبما أدته ؛ ولذلك فالمديح مقابل لعمل ، والثناء تستحقه لقاء ما قدمت ! أما كلمات المديح التى يجب ألاّ تقال فمن بينها :

– أنت ولد رائع . .

– أنت فتاة بديعة . . عظيمة .

– أنت ممتازة . . فذة . .

– أنت إنسان متفوق على نفسك . .

هذه عبارات تهدد الطفل ، وتجعله قلقاً ؛ فقد يشعر أنه ليس كما يوصف ، أو أنه لا يرتفع إلى هذا المستوى ، ولكى يتواءم هو ونفسه ويخفف عنها العبء يقدم فى أول فرصة على سلوك سيئ ردىء ؛ لذلك فإن المديح المباشر أشبه بضوء الشمس الساطع المباشر فى العينين : إنه مزعج ويسبب العمى ! ولا شك أنه من المحرج أن نصف شخصاً بأنه رائع وكريم ومتواضع وملائكى ! إنه يشعر

بأن من الضرورى أن يستنكر على الأقل جانباً من هذه الصفات ، ويأبى أن يوصف بها ! فإنه لا يستطيع أن يقف ليقول :

– شكراً سيداتى سادتى ؛ إننى أقبل عن طيب خاطر وصفكم لى بأنى رائع . . لذلك هو مضطر لأن يتواضع وينفى عن نفسه بعض هذه الصفات ؛ فإنه لا يمكنه أن يقول لنفسه :

– فعلاً . أنا رائع . قوى . كريم . متواضع . عظيم . . !

وهو لا ينفى المديح فحسب ، بل هو مضطر لأن يعيد النظر فى هؤلاء الذين امتدحوه .

لو أننى كنت كذلك بالنسبة لهم فلابد أنهم ليسوا أذكياء بدرجة كافية .

وعلى هذا فيجب ألا يوجه المديح والثناء إلا للأعمال والإنجازات ، لا للصفات الشخصية ، وذلك يعفينا من الحرج ؛ لأنه ثمرة جهد ونتيجة عمل . . وهذا مثل طيب للمديح :

الأب : كان من الصعب جدًّا علىّ نقل هذا المكتب الضخم .

الطفل : لقد شاركت فى نقله (فى فخر) .

الأب : إن ذلك يحتاج إلى قُوى ضخمة .

الطفل : أنا قَوى . .

لقد لقى الأب مشقة فى نقل المكتب ، واعترف بذلك ، وأعطى الابن فرصة ؛ ليتيه ويفخر بقوته . وكان من الممكن لو أنه حاول أن يمتدح ابنه أن يقول له :

– أنت ولد قوى .

الطفل : لا . . أبداً . . هناك أولاد أقوى منى فى الفصل . .

إن الأب فى المثل الأول أشار إلى صعوبة العمل ، وكان الطفل هو الذى تنبه إلى قواه الذاتية ، أما امتداح الأب للابن فكان يجر إلى حوار طويل . . إن المديح له طرفان : كلماتنا وصداها عند الطفل . . كلماتنا يجب أن تمتدح جهد الطفل : عمله ، إنجازه ، معاونته ، ابتكاره . . إن كلماتنا يجب أن تكون محددة حتى ليستطيع الطفل أن يستنتج منها نتيجة حتمية واقعية عن شخصيته . . إن كلماتنا يجب أن تكون بساطاً سحريًّا ، لا يسع الطفل نفسه أن يرسم فوقه صورة إيجابية عن نفسه . . فيها قدراته . . إنه يبنى نفسه من خلال كلماتنا التى تثنى عليه وتمتدحه . . فلا نقول له :

– أنت شاعر عظيم بالنسبة لسنك . .

بل نقول له ببساطة :

الأم : شِعرك مَسَّ قلبى . .

الطفل : إنى سعيد ؛ لأنى استطعت أن أقول الشعر .

لقد اقتنع بشاعريته من خلال عبارة مديح وثناء بسيطة . . لا مبالغة فيها ولا إسراف . . ولا هى تقع من نفسه موقعاً سيئاً فيرد عليها بعمل سيئ ردىء ليعيد لنفسه به التوازن . .

توجيه النقد للطفل

امتداح الأطفال والثناء عليهم ليس خيراً مطلقاً ، كما أن انتقادهم وتوجيه نظرهم ليس أقوم السبل للإصلاح . . هذا الانتقاد هو موضوع حديثنا بعد أن ناقشنا قضية الحوار مع الأطفال ، وكيف نأخذ منه أقصى ما نستطيع ، ونفيد منه بقدر ما يمكننا .

* * *

أكبادنا : أحبابنا ليسوا ملائكة . . ولا هم شياطين . . والسؤال الذى يطرح نفسه فى مستهل هذا الموضوع الذى يدور حول انتقاداتنا للطفل . . السؤال هو . .

– متى يكون النقد للبناء ؟ ومتى يكون للهدم ؟

لدينا مقياس واضح ! . النقد البناء هو الذى يدعو الطفل إلى عمل يجب عليه أن يعمله مُغفِلين تماماً الملاحظات السلبية الخاصة بشخصية الطفل ذاته . . إذا كانت هذه العبارة غير واضحة تماماً فالأمثلة تكشفها لنا وتوضح أبعادها ! . إن طفلاً عمره عشر سنوات سكب على المائدة كوبَ اللبن فى أثناء تناول الإفطار . . قالت له الأم :

– إنك كبرت إلى درجة تعرف فيها كيف تمسك بكوب اللبن ؟. كم مرة قلت لك إنك يجب أن تكون يقظًا ؟.. حذراً ؟.

وقال الأب : إنه لا يمكنه أن يكون كذلك . . إنه مهمل ، وسيظل مهملاً . !

إن الابن سكب بضع قطرات من اللبن ، وربما الكوب بأكمله ، لكن ما حدث بعد ذلك يكلف أكثر بالنسبة لفقدانه الثقة فى نفسه . . وعندما تقع الأخطاء من الطفل ليس من المناسب تسليط الضوء على شخصيته وسلبياتها . . إذا وقع خطأ فعلينا بعلاج الخطأ ذاته فحسب ، وليس توجيه النقد - شاملاً كاملاً - إلى المخطئ . . وسؤال آخر يطرح نفسه هنا . .

- كيف نتصرف حين يخطئ الطفل؟

لو أن أُم الطفل الذى سكب اللبن على مائدة الإفطار صباحاً قالت :

- إنى أرى اللبن قد سقط على المائدة . . هذا كوب لبن آخر . . وهذه قطعة من القماش تنظف به اللبن المسكوب .

وتناول الأم ابنها قطعة القماش مع كوب اللبن الآخر - فلا شك أن الصغير يخجل ، لكنها تنتشله من الشعور بالإثم لما فعله ، وتعاتبه بالقماشة بمنتهى الرقة . . ولا شك أن رده عليها سيحمل شحنة كبيرة من الانفعال . . قد يقول وهو ينظف المائدة :

- شكراً يا ماما . .

وقد لا تضيف الأم كثيراً إلى ما قيل . . اللهم إلا عبارة قصيرة قد تكون :

- أود أن تكون أكثر يقظة مستقبلاً .

ولكنها غالباً لن تقول هذه العبارة ، لأنها تحس بامتنان طفلها لما فعلت معه . .

إن الصراخ على كوب اللبن المسكوب من الممكن أن يفسد اليوم بأكمله . .

والمنازعات والمشاحنات بين الوالدين والأطفال تنشب بين حين وآخر ، وبشكل منتظم . . ويتصرف الآباء بشكل مهين للصغار . . وقد يجيب الطفل بكلمة نابية عن الذوق . . ويتصاعد الخلاف ، الأمر الذى قد يضطر الأب إلى استخدام يده . . والأمثلة كثيرة . . ذلك الطفل ابن التاسعة الذى كان يلعب بفنجانة صغيرة !

– ستكسر هذه الفنجانة . . اتركها ، إنك دائماً تكسر الأشياء !

– لا . . لن تنكسر . .

وتسقط الفنجانة لتنكسر فى اللحظة نفسها ، ونتذكر كيف ضرب جحا ابنه حين طلب إليه أن ينقل إناءً من مكان إلى آخر . . وسأله الطفل :

– لماذا تضربنى ولم ينكسر الإناء ؟

ورد جحا : ماذا يجدينى ضربك إذا انكسر الإناء ؟

أما الأم صاحبة الفنجانة فراحت تصرخ وتولول وتشتم ابنها ، قائلة :

– يا إلهى !. ما أغباكَ ! إنكَ تكسر كل شىء فى البيت . !

– لستُ وحدى الغبى . . أنتِ أيضاً كسرتِ الزهرية أمس !

– أنت ولد وقح . . تشتم أمك ؟

– أنتِ التى قُلتِ : إنى غبى . . فى البداية !

– قم . . انصرف . .اذهب إلى غرفتك فوراً !

وقد يرفض الطفل الذهاب إلى غرفته ، وتحس الأم أنه يتحداها ، وتفقد صوابها ، فتجذبه وتضربه فى غضب . . وقد يدافع عن نفسه ، ويدفعها فتصطدم بشىء ما ! ربما قِطع الفنجانة المكسورة ، وتجرح الأم وتحرج ، وإذا بالدم يسيل يثير ثائرتها ، فيجرى الطفل خارج البيت . . لا ندرى : هل هناك

سيارة مندفعة فى هذه اللحظة أو لا ؟.. وربما بقى الطفل خارج البيت لوقت متأخر !. وينقلب البيت رأساً على عقب . . ولا يغمض لواحد من الأسرة جفن فى هذه الليلة !.

وهناك سؤال جديد لابد أن نسأله :

– هل كانت هذه المعركة ضرورية ولا يمكن التفادى منها . . أو أنه من الممكن لنا أن نتناول مثل هذه الأمور العابرة بشكل أعقل وأكثر رزانة ؟

كان فى استطاعة الأم من البداية إبعاد الفنجانة من يد طفلها . . وكان فى مقدورها بعد كسر الفنجانة أن تعاونه فى جمع أجزائها المكسورة وتوجهه إلى شىء آخر يلعب به غير الفنجانات . . مع تنبيهه إلى عدم اللعب بالأشياء السهلة الكسر . . لأن فى تدميرها خسارة كبيرة . . وقد يعتذر الطفل عن خطئه إذا غاب الصراخ والعويل والضرب . والحق أن الأطفال يمكن أن يتعلموا دروساً كبيرة من أحداث بسيطة وعابرة . . وهم يتعلمون من آبائهم الحدث البسيط ، والمزعج . . والحدث المؤسف والمفجع . . والتفرقة بين هذه كلها . . وكثير من الآباء ينزعجون لبيضة تكسر كما ينزعجون بساق تكسر . . والواجب أن نعلمهم «قيمة» الحدث . . فتقول الأم :

– آه !. هأنتذا قد فقدت كتابك للمرة الثانية !.. هذا شىء مقلق . . الكتب تكلفنا النقود . . وهذه تكلفنا جهداً ووقتاً . . شىء يؤسف له ما حدث ، ولكنه ليس مأساة !..

إن فَقْدَ كتاب يجب ألاّ يفقدنا أعصابنا ! إن قطع قميص يجب ألا يفلت معه زمامنا حتى لا يتحول كل شىء إلى تراجيديا يونانية !. إن النقد الهدام أشبه

بالسهام المسمومة يجب ألا تسدد إلا إلى الأعداء . . ومن ثمَ لا توجه إلى الأطفال . . فعندما يقول شخص ما :

– هذا مقعد غير نظيف .

لا شيء يحدث للمقعد فى هذه الحالة . . لا هو أُحرج ولا هو أحس بالإهانة . . يبقى المقعد كما هو . . أما إذا قيل للطفل : إنه غبى . . أو قبيح . . أو سخيف – فإن شيئاً كبيراً يحدث للطفل : ردود فعل داخلية نفسيًّا وجسديًّا ، ويجرى الغضب والكراهية فى دمه . . وتبدأ الرغبة فى الانتقام . . وسلسلة من ردود الفعل تجعل من الطفل وأبويه حفنة من البؤساء ، عندما يشتم طفل :

الأم : أنت أبله . . عبيط !..

الطفل : لست أبله . . ولا عبيطاً !

إنه يرد بأنه ليس كذلك . . وقد يصدق الطفل والديه ويلوذ بالصمت ، وعندما يضحك الطفل لسبب ما يستعيد ما قاله أبواه . . ويبدأ فى التفادى من مواقف يتحتم عليه مواجهتها ، وتتم عملية الإحباط . . تماماً مثلما يقال له :

– أنت غبى !

ويسكت . . ويكف عن استخدام مهاراته العقلية ، ويهرب من المنافسة والامتحانات ، لأن الأمر عنده يتركز فى «ألاّ يحاول» . . فيقول لنفسه :

– إذا لم أحاول ، لا يمكن أن أفشل . .

ومن ثم يتوقف عن كل محاولة ، ويصبح رمزاً حقيقيًّا للفشل والغضب !

ومما يؤسف له أننا لم نتدرب فى طفولتنا على استيعاب الغضب ، فإنه حقيقة حياتية يجب أن نتعلمها ، لكنهم قالوا لنا : إنه يجب أن نشعر بالإثم إذا غضبنا ، ونحس بالخطيئة إذا عبرنا عن هذا الغضب ! قالوا لنا : إن الغضب

رذيلة . . ونحن نحاول أن نعبر مع أطفالنا ، لكننا لابد أن ننفجر لحظة ما . . غير أننا نتصور غضبنا سيضر أطفالنا . . ولكن احتمالنا ضئيل للغضب ولكبحه . . الغضب كالبرد . . قد لا نحبه . . ولكننا لا نتجاهله . . قد نصاب به ونحاول أن نكتمه ، لكننا لا نستطيع حجب مظاهره . . وقد يستغرق منا لحظة ، ولكنه يبدو أبديًّا . . وفى لحظات الغضب قد نتصرف مع أطفالنا بما لا نقوله مع أعدائنا أنفسهم : نصرخ ، ونشتم ، ونضرب تحت الحزام كما يقولون فى الملاكمة ! وعندما يتبدد الغضب نلوذ بالصمت شاعرين بالإثم . . إن قضية الغضب مطروحة ، وتحتاج إلى وقفة قد تطول !

الطفل وغضب الآباء

عرضنا لقضية الطفولة والأسرة والمدرسة والمجتمع . . وتحدثنا عن الحوار مع الأطفال ، كيف يكون ؟ وما ثمرته ؟ وتطرقنا لامتداح الطفل والثناء عليه ، وسلبيات هذا ، وإيجابياته — وناقشنا النقد الذى يوجه للصغير . . والآن نتكلم عن غَضب الآباء والأبناء .

* * *

أكبادنا : نغضب منهم ونغضبهم ، وقضية الغضب ، و « انظر وراءك فى غضب » مطروحة على الساحة الإنسانية منذ سنوات ، منذ ظهرت حركة الغاضبين فى أوربا . وتتساءل دائماً :

— ماذا يغضبهم ؟ ومتى غضبوا ؟ ومتى يكفون عن الغضب ؟

إننا ندهش لبعض الناس يرفعون فى متاجرهم لافتة تقول : لا تغضب .

كأنما صاحب المتجر على يقين من أنه سيغضب عميله ، ويطالبه بداية «ألا يغضب» تماماً كما يحدث من الآباء تجاه الأبناء ، والأبناء تجاه الآباء ! إذ كثيراً ما يسود جو الغضب البيت ، فإذا به قاتم موحش ! والغضب كالعاصفة ، حقيقة من حقائق الحياة يجب إدراكها والاستعداد لها . . والبيت العائلي لا يقوم على تغير مفاجئ في طبيعة الإنسان ، إنما يعتمد على مجموعة من الإجراءات التي تخفف التوتر قبل أن يؤدي إلى الانفجار . . وأن ننصح بعدم الغضب كأنما نلقي البترول في النار لإطفائها ! ولكي نعد أنفسنا لمواجهة الغضب ونحن هادئون علينا أن ندرك ثلاث حقائق :

* يجب أن نتقبل برحابة صدر حقيقة أن الأطفال سوف يثيرون غضبنا .
* إننا نستجيب للغضب وللحظاته دون شعور بالإثم أو الخجل .
* من الممكن أن نعبر عن غضبنا بشرط ألا نهاجم ذات الطفل أو شخصيته .

على أن الغضب درجات . ويجب أن نعددها حتى ندركها . ونعرف : هل كنا نتجاوز المعقول والمقبول منها أو لا ؟ فقد يأتي الطفل عملاً بسيطاً يكون صداه عندنا :

- الضيق !

إنه أول درجات الغضب . ويأتي بعده نفاد الصبر . ثم يستثيرنا ذلك الشيطان . وتبدأ مظاهر الغضب تبدو . ويقول الواحد منا :

- إنني أشعر بالغضب .
- إنني أشعر بأني غاضب جدًّا . .

وتزداد حدة الغضب . لتصبح جدًّا جدًّا جدًّا . وتنتهي بأن يفقد المرء

صوابه غضباً ، وساعتها لا شيء يهدئ من ثائرته . . وكل درجة من هذه الدرجات للغضب تعتبر صدى لتصرفات من جانب الطفل تجاهنا ، وقد توقفه درجة منها عن التمادى فى العبث . . والحقيقة أن الغضب عاطفة مكلفة ، وباهظة الثمن بالنسبة للآباء ، ولكى تستحق ثمنها يجب ألا تستخدم بدون فائدة ، على ألا تتجاوز حدوداً بعينها فى ممارسة الغضب . . العذر يجب ألا يكون أسوأ من الذنب ، والعلاج لابد ألا يكون أسوأ من المرض ذاته . . الغضب يجب أن يتفجر ، ليخفف على الآباء معاناتهم ، ويوقف الأطفال عند حدودهم ، ودون أن يؤثر بشكل سيئ على الطرفين معاً ويدور الحوار .

الأم : ماذا بك ؟

الطفل : أبى غضب علىَّ ، وانهال شتمًا !

الأم : لمَ ؟

الطفل : كنت أستطيع أن أحتمل ذلك لولا أنه فعله أمام أصدقائى !

الأم : لابد أنك استثرته .

الطفل : دافعت عن نفسى ، فازداد غضباً ، وهكذا . .

والحق أننا لا نحتاج إلى موجات من الغضب واحدة إثر أخرى ، بل نود لو أننا استعدنا هدوءنا ، وبددنا الغيوم والسحب التى تعلو سماء علاقات الصغار بآبائهم . .

والحق أن الأطفال يأتون من الأفعال ما يجعل الآباء يخرجون عن طورهم ، وليس هناك أكثر من تلك الشكاوى التى تتصاعد من الأمهات والآباء عما يسببه أكبادنا من أشياء تدفع بنا إلى الثورة عليهم . . تقول أم من الأمهات :

– عندما أرى الأحذية والجوارب والقمصان وبقية الملابس ملقاة على

الأرض بلا عناية أشعر بالغضب ، وأحياناً أغضب إلى درجة أريد معها أن أفتح النافذة وألقى منها بكل هذه الأشياء فى الشارع !

إن ذلك ليس نتيجة تصرف فى لحظة بذاتها من الأطفال ، بل نتيجة تراكمات تأتى من اللامبالاة ، وعدم الاعتماد على النفس من جانب الطفل . وسنناقش قريباً علاقة النظام وهذه اللامبالاة المتكررة التى تحيل بيوتنا إلى فوضى تثير الغضب بحق . .

وأذكر أن أباً اضطر لأن يضع برميلاً يلقى إليه بكل ما يجده فى غير مكانه ، وعلى صاحب الشيء أن يقفز بداخله لكى يستعيده . . وتحول الأمر إلى فكاهة . . وليس كل الناس بقادرين على تحويل الغضب إلى فكاهة !

وقد نسمع من واحد من الآباء :

– إنه لمما يغضبنى كثيراً أن أراك تضرب أخاك ! إن تربيته من مهمتنا أنا ووالدتك ، لذلك أدعوك إلى الكف عن ضربه بتاتاً . . إذا أخطأ انقل إلينا الأمر . وسنعاقبه بالطريقة التى تتراءى لنا ، أما أن تضربه فأغضب وأضربك !

وهذه واحدة من الأمور التى تستثير الغضب ؛ فإن اعتداء أخ على أخيه الأصغر أو العكس تجعل الأب يقوم بدور الشرطى ، وتحاول الأم فض الاشتباك . وكثيراً ما يفقد الأب أو الأم هدوءهما خلال هذه المهمة الثقيلة . . على أن قائمة ما يُغضب ما زالت طويلة ، وهى متجددة . . تقول واحدة من الأمهات :

– عندما أرى الجميع يندفعون من غرفة الطعام ليشاهدوا التليفزيون تاركين كل شىء فى منتهى الفوضى والقذارة أحس أنى سأُجَن ، وأنى أحترق

من الداخل ، وأتصور أن أفضل ما أفعله أن أحمل هذه الأطباق لأقذف بها جهاز التليفزيون . . ليتحطم هذا وذاك !

إن ما تواجهه الأمهات من مثيرات يومية يجعلها مستثارة على طول الخط ، إذ إنها غالباً ما تلق لا مبالاة قد تصبح جحوداً من جانب الشياطين الصغار من وجهة نظر الأم ، وهذا يدفع بها إلى الضيق والضجر والغضب . . إنها قد تقول :

– إننى أناديكم إلى الغداء منذ وقت طويل . . تكرر النداء ، وبدأت أغضب ! إننى طيلة الوقت الذى قضيته فى المطبخ أعد الطعام كنت أمنى نفسى ، وأقول لها : لقد طهوت طعاماً جيداً ولذيذاً . . يستمتع به الآباء والأبناء وإذا بى بدلاً من أن أنال المديح والثناء أصرخ وأصرخ لكى تهمُّوا إلى الطعام ! فلا أجد منكم سوى عدم الاهتمام ! إنكم تتباطئون وتتلكئون بصورة تجعلنى أفقد صوابى ، وأقذف بالطعام من النافذة ، أو أتمنى لو أنه احترق فوق النار !

إن هذه الأمور كلها تدفع ولا شك للغضب من جانب الآباء ، ولكننا نريد « تنظيم الغضب » إذا صح هذا التعبير ، تنظيمه وإخضاعه لقدرتنا على الإمساك بزمام الأمور ، بل لعل فى تصرف الآباء هذا درساً للأبناء يتعلمون منه كبح جماحهم . . إن الطفل يجب أن يدرك أن غضبه ليس كارثة تحل بالوجود . . ويجب أن يكون على يقين من أن هذا الغضب يجب أن ينتهى بدون تدمير . .

وغضب الأطفال قضية أخرى تحتاج إلى بحث ودراسة ، لذلك نحيناها ، وآثرنا الحديث عن غضب الأبوين . . على أنه لابد لهما من أن يكشفا للأطفال عن القنوات التى تتدفق من خلالها عواطفهم وانفعالاتهم ، وأن يدربا الأبناء

على أساليب تحويل الغضب إلى عمل حقيق ، وإلى إيجاد البدائل لمشاعرهم المدمرة .

الطفل بين الترغيب والتهديد

من خلال الحوار مع الأطفال نصل أنفسنا بهم ، وقد نحتاج إلى امتداح الطفل والثناء عليه ، وقد نضطر إلى توجيه النقد له ، وربما يفلت زمام أعصابنا فنغضب عليه ، وخلال كل هذه المرحلة مع أبنائنا – نحن فى حاجة ماسة إلى أن نكون يقظين لما يجرى بغية بناء الإنسان الجديد ، وهنا تقفز أهمية الترغيب والوعيد موضوع حديثنا .

* * *

أكبادنا : فى حاجة إلى أن نعرفهم جيداً ، كما أننا فى حاجة إلى معرفة أساليب التعامل معهم ؛ لأنا فى واقع الأمر نتصور أننا خُلقنا تربويين ومربين بالسليقة والوراثة . وتتردد عبارة على ألسنة الآباء والأمهات تقول :

– لقد ربينا بدون علم نفس وبدون علم تربية ، بل بعضنا ربى على يد أم أُمية لا تعرف القراءة والكتابة ومع ذلك نجحتْ !

وينسى هؤلاء العصر وسماته وصفاته ، ينسون أنه كان من الممكن أن تنجح هذه الأساليب التلقائية فيما مضى ! ثم من قال بنجاحها ؟ إنهم أصحاب مصلحة فى تصور ذلك ! نحن نريد أن نربى أبناءنا على العلم فى عصر العلم ، ويجب أن نتدارس تأثير التهديد مثلاً على الأطفال ، التهديد ، والرشوة ، ثم لوعود ! وأيضاً استخدام أسلحة السخرية ! ولا ننسى الكذب والسرقة ،

والكثير . . ، بل لا ننسى بعض أساليبنا غير المهذبة وغير المؤدبة التى نريد بها أن نجعلهم مهذبين مؤدبين ! لنقف مثلاً عند التهديد . تقول الأم مهددة :

– إذا عملت هذا الشىء مرة أخرى . .

ويُسقط الطفل كلمة (إذا) من العبارة ، لا يسمعها ؛ بقية العبارة التى تلصق بذاكرته – تدعوه إلى أن يعمل هذا الشىء مرة أخرى ! كأنما كنا ندعوه إلى تكراره لا إلى الامتناع عنه ! بل إن الطفل قد يقولها لنفسه بكل بساطة :

– إن أمى تتوقع منى ولا شك أن أفعل هذا الشىء مرة أخرى ! ويجب ألا أفسد عليها توقعاتها !

والحق أن مثل هذه التهديدات – تبدو للكبار معقولة ومقبولة ، ولكنها ليست بلا فائدة فحسب ، بل هى ضارة أيضاً ! إنها تأكيد على أن خطأ ما سيتكرر !

إن التهديد فى الواقع يصبح تحدياً للطفل : فإذا ما كان يحترم نفسه فإنه لا بد أن يفعل ما منعناه عنه مراراً ، ليثبت لنفسه وللآخرين أنه ليس جباناً ولا دمية ! لقد قالت إحدى الأمهات لطفلها :

– إذا تكرر منك قذف النافذة بالكرة فإننى سأضربك بشدة وعنف ، ولن أسامحك أبداً !

وبعد لحظات سُمع صوت زجاج النافذة وهو يتحطم دليلاً على أن تحذيرات الأم قد أجدت وأفادت ! وها هو ذا الطفل قد قذف الزجاج بالكرة لآخر مرة !

والمشهد التالى لهذا الذى حدث مشهد متصور ومعروف ومتوقع . إن أُمًّا

أخرى رأت ولدها يصوب قذائف مسدسه الصغير تجاه شقيقه ، فقالت له الأم :

– لا تصوب تجاه الصغير ، صوب على (اللوحة) .

لم تهدد الأم – ولم تتوعد ، لكن ما إن صوب الطفل مسدسه تجاه شقيقه حتى قامت الأم وانتزعت اللعبة من يده قائلة :

– قلنا : لا تحاول ذلك مع الصغير ومع الناس !

وانتهى الأمر عند هذا ، لقد تعلم الطفل درساً دون أن تثيره أمه نفسيًّا وداخليًّا ، عرف أنه إما أن يصوب إلى (اللوحة) أو يفقد لعبته ، وتفادت الأم هنا التهديدات المعروفة .

– كُف عن هذا اللعب ، إنك قد تصيب شقيقك ، أليس عندك (لوحة) أهداف تصوب عليها ؟ سأضربك إذا لم تكف ! إذا صوبت إليه مسدسك مرة أخرى ، مرة واحدة فلن ترى لعبتك هذه مرة أخرى !

الأم لم تقل كل هذا ، ولم تهدد به ؛ إنما قالت نصيحة لم يستجب الطفل لها !

لذا انتزعت اللعبة . والمشهد التالى سهل تصوره : عقاب من جنس العمل ! وينتهى الأمر بلا مأساة وبلا صريخ .

والذى يقال عن التهديد والوعيد – يقال عن الوعود : يجب أن نتعلم ألاّ نعد أطفالنا وألاّ نطلب منهم الوعود ! إن الوعود أضبحت «تابو» أو تميمة مسحورة بلا مبرر ! علاقاتنا بأبنائنا يجب أن تبنى على الثقة المتبادلة ، وعندما يعد الأب ليؤكد أنه يعنى ما يقوله فإن هذا معناه أنه إذا لم يشفع كلماته

بالوعود فهى مجرد كلمات ، الوعود تبنى توقعات غير واقعية لدى الأطفال !
إن طفلاً يقول لأبيه مثلاً :

– علىّ أن تذهب بى إلى رحلة يوم الجمعة .

– إذا وعدتك بهذا فإنه يعنى أننى على يقين من أن السماء لن تمطر يوم الجمعة ، وأن السيارة ستكون سليمة ، وأنى وأنت لن نكون مرضى ! وأن . . وأن . . فهل بعد هذا تريد منى أن أعد ؟.

هذا هو المنطق الذى لابد أن يسود الوعود ! وطالما أن الحياة تحمل المفاجآت فإن الأطفال سوف يشعرون – إزاء عدم تنفيذ الوعود – أنهم خدعوا ، وأن آباءهم ليسوا موضع ثقة ! ونحن نسمع عبارة تقليدية من كل الأطفال ثمرة لهذا الخطأ الذى نرتكبه تلك هى :

– ولكنك وعدتنى يا أبى ! أنت وعدتنى يا أمى !.

وتكون نغمة العبارة مؤسية محزنة تدل على مدى الإحباط الذى يعانيه الطفل بسبب عدم إنجاز الوعد له !

وأيضاً يجب ألاّ نتتزع من الأطفال وعوداً مستقبلية بحسن السير والسلوك :
إن الطفل فى واقع الأمر حين يعد – لا يفعل أكثر من كتابة شيك بلا رصيد !
إن هذه الأمور يجب ألاّ تمارس ضد الأطفال ، وشبيه بها : الإغراء والرشوة !

يقول الأب والأم :

– إذا ما كنت ظريفاً مع شقيقك الأصغر فسأصطحبك للسينما .

– إذا ما كففت عن بل فراشك فسأشترى لك (دراجة) فى عيد ميلادك !

– إذا حفظت قطعة الشعر هذه فسأعطيك بعض الحلوى . .

والحق أن (إذا) فى التهديد ، (وسأفعل) فى الإغراء قد تدفع الطفل إلى المطلوب مباشرة ، ولكنها لا تجعله أبدًا متطلعًا مستثاراً إلى بذل جهود دائمة ومتكررة ، لكى يصبح هذا المطلوب منه عادة متأصلة فى نفسه ، عبارتنا له : «إذا ، وسأفعل» تجعله يؤمن بأننا نشك فى قدراته على التطور والتقدم إلى الأحسن ! قول الأب :

– إذا حفظت قطعة الشعر هذه . .

هذا يعنى أننا نشك فى قدرته على حفظها . . وقول الأم :

– إذا كففت عن بل فراشك . .

تعنى هذه العبارة أنها تعتقد أنه لا يستطيع ذلك ! فضلاً على أن الجوائز أو الهدايا التى تقدم إنما هى فى واقع الأمر رشوة ! ويقول أحد علماء النفس : إن طفلاً صارحه بالقول :

– إننى أحصل على كل ما أريد من أمى بطريقة بسيطة ، هى أن أجعل أمى على يقين من أنى سوف أكون سيئاً ! إننى مضطر لأن أتصرف بطريقة سخيفة ، ولأن أرتكب حماقات لكى أجعلها تقتنع أنها تدفع ثمناً مناسباً لهدوئى المفتعل ، وأدبى الذى هو تمثيل فى تمثيل !

كانت العبارة مفاجأة ، لكنها تعنى الكثير ! إن مثل هذه المواقف تقودنا إلى المساومة ، وإلى الحصول على ما نشاء بالتهديد والوعيد . . وإلى المطالبة بمزيد الهدايا والرشوة فى مقابل أن نكون «طيبين» و «هادئين» و «مهذبين» ! بل إن بعض الأطفال أصبحوا يفرضون على آبائهم ألاّ يعودوا للبيت إلا وفى أيديهم «حاجة حلوة» ! إنهم لا يحيون من جانب الأطفال بعبارة : أهلاً وسهلاً ، بل . .

– ماذا اشتريت لنا يا بابا ؟ هل رجعتِ بالحلوى يا ماما ؟

إن الهدايا حلوة حين تكون مفاجأة ، وليس معلناً عنها من قبل ! وليست ثمناً لأن يصبح الأبناء مهذبين ، وهم لا يصبحون كذلك بالوعيد والتهديد ، ولا بالوعود ، ولا بالرشوة ! إنها بالتربية والمعاناة ! هذه وحدها القادرة على خلق مواطن سوى .

الطفل والكذب

تحدثنا عن امتداح الطفل والثناء عليه ، كما ناقشنا النقد الذى يوجه إليه ، وتكلمنا عن الطفل بين التهديد والوعيد من جانب ، وبين الإغراء والترغيب من جانب آخر ، ونخطو إلى واحدة من قضايا الطفولة البالغة الأهمية : ألا وهى «الكذب» ، وهو أمر يجب أن نناقشه فى يقظة .

* * *

أكبادنا : يكذبون ! هى حقيقة مؤكدة ، الآباء والأمهات يغضبون لهذا ، وخاصة إذا كانت الكذبة كبيرة وواضحة ! إنه ولا شك شىء مثير أن يكذب طفل ويصر على أنه لم يلمس الألوان ، ولم يأكل قطعة الشيكولاتة ، مع أن آثار الألوان والشيكولاتة واضحة على ملابسه ووجهه ! والسؤال الذى يطرح نفسه دائماً :

– لماذا يكذب الأطفال ؟

أحياناً يكذبون ، لأنه لا يسمح لهم بقول الصدق ! لنفرض أن طفلا قال :

– أنا لا أحب أخى الصغير هذا !

من المتوقع أن تضرب الأم طفلها على قوله هذا ، قوله الصدق ! وإذا ما التفت هنا وهناك وأعلن هذه الكذبة المدوية :

– أنا أحب أخى الصغير هذا !

عندئذ قد تعطيه أمه قطعة حلوى مكافأة له ، وقد تقبله ! والسؤال هنا .

– ما الذى يستنتجه الطفل من هذين الموقفين؟ ومن هذه التجربة ؟

إنه قد يستنتج أن الصدق يضر ، والكذب يفيد ! وقد يتصور أن أمه تحب هذه الأكاذيب الصغيرة ! فإذا كنا نريد أن نعلم أطفالنا «الأمانة» مع أنفسهم ومعنا – فإنه من الضرورى أن ندرب أنفسنا على الاستماع إلى بعض الصدق المر !

إن الطفل الذى نريده أن يشب أميناً صادقاً يجب ألاّ يشجع على قول الكذب ، أو على قول ما يرضينا ، وبالذات بالنسبة لعواطفه ، إن انعكاس كلماته هذه علينا هو ما يقنعه بأن كل الخير فى الصدق ، إن الأطفال حين يعاقبون على قول الحق – يكذبون دفاعاً عن النفس ! وهناك أسباب أخرى لأكاذيب الأطفال : قد يقول أحدهم :

– لقد تلقيت فيلا حقيقيًّا هدية بمناسبة عيد ميلادى .

إن الطفل هنا يكذب ليحقق بالخيال ما يعجز عن تحقيقه فى الواقع ، إن الأكاذيب هنا تقول الصدق فيما يتعلق بالمخاوف والآمال ، إنها تكشف ما يريد أن يكون أو يفعل ، بل إن الأكاذيب تكشف ما يريد الطفل أن يخفى ، وإن كل كذبة من الأطفال تحتاج منا إلى معرفة معناها وفهم أبعادها بدلاً من رفض محتواها ! ، إن المعلومات التى نحصل عليها من الكذبة قد تساعدنا على استخدامها فى تدريب الأطفال على أن يفرقوا ما بين الحقيقة والخيال ! الطفل قال :

– لقد تلقيت فيلا حقيقيًّا هدية بمناسبة عيد ميلادى .

– طبعاً ، قصدك أنك كنت ترجو وتتمنى لا أنك تلقيت فيلا حقيقيًّا بمناسبة عيد ميلادك ، إنها تكون هدية طريفة !

والآباء فى واقع الأمر مطالبون بألا يسألوا أسئلة يضطر معها الطفل إلى أن يكذب دفاعاً عن نفسه ، وخاصة أن الأطفال يقاومون استجوابات الآباء ، وبالذات عندما يعتقد الأطفال أن آباءهم يعرفون الرد من قبل ، ولا حاجة بهم للإجابة ، إن الأطفال يكرهون الأسئلة التى تشكل كميناً لهم ، تلك الأسئلة التى يرون أنفسهم فيها مخيرين ، أو مضطرين إلى أن يختاروا بين كذبة محرجة ، وبين اعتراف مخجل : كسر أحد الأطفال بندقية أهداها إليه أبوه وأخفى البندقية فى مكان ما ، وحدث أن اكتشف أبوه ذلك ، وانفجر فى مجموعة أسئلة :

الأب : أين بندقيتك الجديدة ؟

الطفل : لا أدرى ! هى فى . . هى فى مكان ما . .

الأب : إننى لم أرك تلعب بها .

الطفل : لأنى لا أعرف أين هى ؟

الأب : ابحث عنها ، أريد أن أراها . .

الطفل : ربما سرقها بعضهم !

الأب : أنت كذاب ، كذاب ! لقد كسرت البندقية ، وإذا كان هناك فى الوجود من أكرهه فهو الكذاب !

وضرب الأب طفله ضربًا شديدًا موجعًا ، ضربه لكسر البندقية ، ولإخفاء قطعها ؛ وضربه أعنف بسبب كذبه ، وكانت هذه معركة لا مبرر لها ! وبدلاً من أن يتحول الأب إلى محقق ومستجوب وخصم وحكم – كان يجدر به أن يكون أكثر احتفالاً بابنه ومساعدة له : كأن يقول له :

– إنى رأيت بندقيتك مكسورة ، إنها لم تعش طويلاً ، إنه لشىء يؤسف له ؛ فإنها غالية الثمن !

ومن خلال هذه الكلمات الموجزة المركزة كان يمكن الطفل أن يتعلم بعض دروس قيمة أنه سيعترف بينه وبين نفسه بالكثير.

– أبي يفهم ، ويدرك ، ويقدر ! إننى أستطيع أن أصارحه بمشاكلى ، وبما يضايقنى ، ويجدر بى أن أحافظ على لعبى .

إن موقفنا من الكذب واضح : يجب ألا نلعب دور المستجوب والمستنطق الذى يطلب من طفله اعترافات كاملة ، ويجب أيضاً أن نسمى الأشياء بأسمائها : فإذا وجدنا رف الكتب الخاص بابننا وقد علته كتب كثيرة فعلينا أن نفكر قبل أن نسأله . .

– هل أعدت كل الكتب المستعارة إلى المكتبة ؟ هل أنت واثق ؟ إذن لماذا امتلأ الرف بالكتب ؟

بدلاً من هذه العبارات التى تدفعه للكذب علينا أن نقول عبارة واحدة كافية :

– لقد اكتظ الرف بالكتب ، إنه يحمل فوق طاقته !

وإذا ما عاد إلينا الطفل من المدرسة التى أبلغتنا أنه لم يوفق فى امتحان الحساب فعلينا ألاّ نسأله :

– هل نجحت فى امتحان الحساب ؟ هل أنت واثق ؟ إن الكذب لن يفيدك فى هذه المرة ! لقد تحدثنا للمدرسة وعلمنا أنك رسبت فى الحساب !

بدلاً من هذا علينا أن نخبر الطفل مباشرة :

– إن معلم الحساب أخبرنا بأنك لم توفق فى الامتحان ! إننا قلقون وبودنا أن نجد سبيلاً لمساعدتك فى هذه المادة .

إننا بهذا لا نرهق الطفل ونستثيره للدفاع عن نفسه بالكذب ، ولا نفتح له الباب ، لكى لا يقول الصدق ! وعندما يكذب الطفل يجب ألا يكون رد

الفعل من جانبنا هستيريًا وأخلاقيًا ، بل واقعيًا وحقيقيًا ! إننا نريد من طفلنا أن يكون على ثقة من أنه لا حاجة به إلى أن يكذب !

مثلاً : عادةً يعود بعض الأطفال بأشياء لا يملكونها يأتون بها من المدرسة ، وعندما يكتشف الأمر يجب ألا يتحول إلى مأساة مدلهمة ، بل علينا أن نقولها له فى حسم :

– هذا القلم خاص بزميل لك ! أعده إليه فوراً !

– هذا القلم ليس لك ، أرجعه لصاحبه !

وإذا امتدت يد الطفل لقطعة حلوى من متجر ووضعها فى جيبه فعلينا أن نقول فى حسم :

الأب – هذه الحلوى ستبقى فى مكانها ! أعدها .

ولا تشترها أبدا أو تدفع ثمنها ! وإذا ما أنكر وجودها نكرر عبارتنا ، وإذا لم يستجب فعلينا أن نخرجها من جيبه ونعيدها إلى مكانها ، وإذا ما حصل على نقود من البيت نتصرف بالطريقة نفسها :

– أعد النقود إلى مكانها ! حين تحتاج إلى نقود اطلبها !

وإذا ما أنكر نستعيدها ، وإذا كان قد أنفقها نخصمها من مصروفه ، ولا نقول له : إنه كذاب . . ولص وإن نهايته ستكون السجن ! ولا نضغط عليه بسؤاله : لماذا أخذتها ؟ وربما هو نفسه لا يعرف ! ونحن بهذا نفتح له الباب لكذبة جديدة بل نقول له :

– كان الأجدر بك أن تناقش معى احتياجاتك من النقود !

وإذا ما أكل الطفل قطعة من الكعك أو المربى ، وظهرت آثارها (شارباً) تحت أنفه – يجب على الأم ألاّ تقول له :

– هل أخذ أحد كعكة ؟ هل رأيت من أخذها ؟ هل أكلت واحدة منها ؟ هذه الأسئلة تدفع الطفل دفعاً إلى الكذب والقاعدة هى :

«إذا كنت تعرف الإجابة فلا تسأل عنها» .

ومن الأفضل أن تقول بصراحة :

– أنت أكلت الكعك . . طلبت إليك ألا تفعل ، إنى غاضبة !

هذه العقوبة كافية ، إنها تترك الطفل غير مرتاح ، وتحمله المسئولية بهذه الصورة ، وسوف يغير من سلوكه .

التهذيب بطريقة مهذبة

كلنا نريد أن يكون أبناؤنا مهذبين ، غير أننا كثيرًا ما نلجأ إلى أساليب غير مهذبة من أجل ذلك ، وننسى أن القدوة هى الأساس فى هذا المجال .. وهى تحتاج منا إلى لباقة وقدرة على ابتكار الوسائل والأساليب التى تخلق من أبنائنا أطفالا مهذبين .

* * *

أكبادنا فى مسيس الحاجة إلى « التأديب والتهذيب والإصلاح » وهذه العبارة ولاشك قد سبق أن صكت آذانكم من قبل مرارا ، لأنها تستخدم شعارًا لبعض السجون ! ولا نظن أننا نريد أن نجعل أحباءنا يعيشون وراء القضبان بلا ذنب ولا جريرة ! إن التأدب والتهذب فى الواقع صفة شخصية وعلاقة اجتماعية ، سلوك فردى ومهارة مع المجتمع ! والطفل يحصل عليها من خلال أبويه ، وأسرته ومدرسته ، ومجتمعه ، ومن خلال القدوة التى نريد أن تكون حسنة ، ولكن الوالدين كثيرًا مايحاولون تعليم أولادهم الأدب بلا أدب ! ويحاولون تهذيبهم بطريقة غير مهذبة حين ينسى الطفل عبارة : شكرًا .

حين ينسى الطفل مثل هذه العبارة يشير إليهم الآباء أمام الآخرين : أن هذا « قلة أدب » . وهذه الإشارة فى ذاتها ليست من الأدب فى شىء ! إن الآباء

أحيانًا يذكرون أبناءهم بعبارة عليكم السلام قبل أن يقولوا هم : السلام عليكم !

قدمت هدية لطفل صغير ملفوفة ، وبكل حب الاستطلاع راح يحاول انتزاع اللفافة من حولها ليرى ما فيها ! صاحت الأم :

– ما هذا الذى تفعله ؟ ستفسد الهدية ! ماذا يقول الإنسان المهذب حين يتلقى هدية ؟

ويرد الطفل بغضب شديد : شكرًا .

وتهتف الأم : أنت ولد ظريف !

الواقع أن الأم كانت تستطيع أن تعلم الطفل هذا الدرس فى الأدب بطريقة اكثر أدبًا ، وأقل عنفًا ، وأقوى تأثيرًا ، كان فى استطاعة الأم أن تقول :

– اشكر عمتك على الهدية الجميلة التى يمكن أن نفتحها فى البيت ، ستجد فيها مفاجأة ظريفة !

ولقد كان من الممكن أن يقول الطفل شكرًا من تلقاء نفسه ، وإذا لم يقلها فإن فى استطاعة « ماما » أن تذكره بها ، أو أن تنبهه إلى خطئه فيما بعد ، إذ إن الهدية يمكن أن تشغله عن كلمة الشكر ، ومن الممكن أيضا أن تقول الأم حين تخلو لطفلها :

– لقد كان ظريفًا لطيفًا من عمتك أن تتذكرك بهذه الهدية ، ماذا لو أننا بعثنا إليها ببطاقة جميلة نشكرها على الهدية ؟ إنها ستسعدها كثيرًا ، وتجعلها دائمًا تفكر فيك ، وتعتقد أنك تستحق هذه الهدايا !

والذى يحدث كثيرا فى مثل هذا المجال تلك المقاطعات التى يقوم بها الأبناء حين يتحدث الكبار بعضهم إلى بعض ، والأطفال لايراعون موضوع تسلسل

الأفكار لدى المتحدثين ، ولايدركون سخافة تصرفهم إذا ماقطعوا الحديث !
والنتيجة ورد الفعل الذى يحدث من بعض الآباء مزعج بحق : بعضهم يقولون فى عنف وقسوة :

– لاتكن وقحًا ، إنه من سوء الأدب أن تقاطع !

ويحرج الصغير حرجًا بالغًا ، مع أنه من الواضح أن مقاطعته أيضا فيها سوء أدب ! والأدب لايفرض سوء الأدب أو قلته ! إن الآباء يجب أن يلتزموا الأدب فى عملية تعليم أبنائهم الأدب ! ومن الضرورى أن يدرب الآباء أنفسهم على مثل هذه الأمور ، وأن تكون لديهم عبارات رقيقة جاهزة لمثل هذه المواقف ، كأن يقول الأب :

– بودى ياعزيزى أن أكمل حديثى أولا ، ثم نعطيك الكلمة ، ويأتى دورك .

إنه لمن الواضح أنه لايفيدنا فى شيء أبدًا أن نشتم الأطفال بكلمات نابية : كالوقاحة وقلة الأدب إن هذه الكلمات لايمكن أن تجعله يدخل دائرة المهذبين ، والمشكلة أن الطفل قد يتقبل هذا التقويم من جانب الأب ، ويصبح جزءًا من الصورة التى يرى عليها نفسه ! وإذا ما اقتنع الطفل بأنه سيئ الأدب وقح – فسوف يلازمه ذلك الاقتناع طويلا ، وسوف يكون من الصعب اقتلاعه من نفسه ! بل قد يتمادى فيه فإنه من الطبيعى أن يتصرف الطفل الوقح بوقاحة : تقول الأم ضاحكة :

– تصرفاتك هذه تصرفات واحد وُلِدَ فى غابة !

الطفل : ماذا تقصدين ؟ هل أنا واحد ممن يسكنونها ؟

الأم : ربما ! على كل أنا أتحدث عن تصرفاتك فقط .

هذا التناول المرح لتصرفات الطفل سيكون معاونًا للأم على منح طفلها التوجيه بروح حلوة مقبولة ، وخاصة فى الزيارات العائلية التى تشكل بالنسبة لبعضنا عبئًا ، إنها عبء على صاحبة البيت بسبب عبث الصغار ، وعبء على الأم لخجلها من تصرفات طفلها فى حين يجب أن تكون هذه الزيارة ممتعة وبهيجة وحلوة للجميع ، للزائرين ، وللأسرة التى يزورونها ! ومن الممكن أن يترك الأمر فى هذه الزيارة لمسئولية ربة البيت . وللطفل ذاته :

الأم : كف عن الضجيج .

الطفل : إننا نلعب .

الأم : لن آتى بك معى مرة أخرى !

هذا هو الحوار التقليدى الذى يحدث بين الأم وطفلها حين يزوران صديقة أو قريبة . وكثيرا ما يتبادل الطفل وأمه عبارات بعضها حاد ، وبعضها قاس ! وتفسد الزيارة فى حين أنها أسلوب رائع للتربية ولتحميل الطفل جانبا من المسئولية وتدريبه على خلق الصداقات واللعب مع الآخرين ! ويستهوى الأطفال فى الزيارات اختيار مكان للعب غريب ! وليس للضيفة أن تعترض . إنما هذه مهمة المضيفة أن تختار للصغير المكان المناسب ، وتضع له القواعد التى عليه أن يسير عليها بدون تدخل من جانب الأم .

الأم : كف عن القفز على المقاعد ، إنك ستكسر المصباح ، تَعالَ هنا .

الطفل : لماذا لم تتركينى فى البيت أفضل ؟

الواجب هنا أن ندع للمضيفة ما هو مسموح وما هو ممنوع . إنها أقدر على ذلك من الأم التى يجب ألا تنسى أن الزيارة فرصة انطلاق لصغيرها يحقق فيها ذاته وخاصة أن الأطفال يستجيبون أكثر حين توجه إليهم التعليمات من الآخرين

وليس من الأم والأب ! إن الأم قد تحدد الأمور بشكل قاطع قائلة :

– هذه هى التعليمات هنا . هذه قوانين . أتفهم ؟

الطفل : نعم أفهم .

الأم : القانون لابد أن يسود !

إن هذا قد يحدث حين تتفق الضيفة والمضيفة على الحدود المرسومة سلفاً-إن المضيفة أحق بوضع التعليمات والحدود ، إنها صاحبة البيت ، إنها ربته فى هذه اللحظة ، ويجب على الضيفة ألا تعطى نفسها حقوقاً أكبر داخل بيت مضيفتها حتى بالنسبة لطفلها ، ولكن لابد للأم أن توضح لطفلها حقيقة الموقف بالكامل ، على أن تقول هذا فى رقة وأدب شديدين .

ولن أنسى ذلك الأب الذى راح يلقى لابنه محاضرة طويلة حول : (أن الحلم سيد الأخلاق) .

الأب : الحلم هو كبح جماح الغضب . يجب ألا يفلت الزمام منك !

الطفل : لماذا تغضب أنت إذن يا أبى ؟

ويرد الأب بغضب شديد : أنت طفل وقح غير مهذب !

ترى . بالله عليكم كيف يمكن الأب أن يتصور أنه يعطى ابنه درساً فى الحلم بالكلمات ، فى حين أنه كقدوة يفقد أعصابه ، ويسب ويشتم لأقل عارض ؟

إن الأدب يجب أن يتعلم بالأدب ! إن التهذيب يجب أن يقدم بطريقة مهذبة ، وإلا ..

تعلم المسئولية

أكبادنا : فى حاجة ماسة إلى تعلم المسئولية . والأمهات والآباء يبحثون فى دأب شديد عن أفضل السبل لتدريب الصغار على تحمل المسئولية ، وفى كل البيوت ترتفع أصوات تقترح الحلول لهذه المشكلة .

* * *

إننا بين حين وآخر نستدعيهم من أجل أعمال بسيطة صغيرة ، فتقول الأم :

— أرجوك : من فضلك قم بتسوية فراشك .

وقد نطلب من الأبناء أمورًا أخرى ربما يضيقون بها ، وخاصة أنهم لايرون فى الآباء قدوة لهم فى هذا المجال ، كأن تناشدهم الأم فى رقة :

— بودى أن تساعدنى ياعزيزى فى المطبخ ! وتقوم عنى بغسل الأكواب ، والصحون !

على أن البعض يتصور أن تكليف الأبناء بهذه الأمور تدريب من أجل إرساء بعض الأسس لتحمل المسئوليات ، غير أن ذلك مع الأسف ليست له آثار إيجابية لخلق روح الإحساس بالواجب ، بل قد تحدث فى بعض البيوت بعض المعارك اليومية نتيجة القيام بهذه الأعمال التى لا غنى عنها فى المنزل ، وهى ربما تجلب الضيق والضجر والغضب للطرفين : الآباء والأبناء ! إن الفراش سيتم ترتيبه والأطباق ستغسل إذا أطاع الأبناء ، لكن شيئًا من الضيق والمرارة ربما علق بنفسية الأبناء ! والشىء الواضح هو أن « المسئولية » لا تفرض من الخارج ، إنما تنمو من الداخل ، ويتم ترشيدها بالقيم التى بالبيت والمجتمع ،

وليس أيسر لدى الأبناء من تبرير أخطائهم حتى يفلتوا من العقاب ! يقول الأطفال :

١ - ليست مسئوليتى أن كُسِر الكوب ! لقد انزلق من يدى !

٢ - الكرة ضاعت ، لم تكن غلطتى أن ركلتها بقدمى ، فوقعت فى سيارة نقل منطلقة بسرعة !

٣ - ما ذنبى؟ الأمر لايتعلق بى ، إنه خطأ شقيقى !

وتحمل المسئولية إذا لم يكن قيمًا إيجابية وأخلاقيات سليمة سوية - قد يثمر مخربين وأعداء للمجتمع ، فليس أقدر من رجال العصابات على تحمل المسئوليات ! بل أن بعضهم مثل عصابات (المافيا) يتحملون المسئولية ولو ضحوا بحياتهم فى سبيل ذلك ! وهم يطيعون الأوامر ببساطة وتلقائية ، ويعينون أسر زملائهم المسجونين ، على حين أننا نريد لأبنائنا أن يكونوا أشخاصا مسئولين عن الخير والحق والجمال !

إن المسئولية يجب أن تكون تجاه الحياة والحرية وسعادة البشر : قال عضو فى جماعة الكشافة :

- إنى مسئول عن أداء واجب فيه الخير يوميًا ؛ كما تقضى تعاليم الكشافة ، وقد نجحت وزميلان لى فى الأخذ بذراع رجل أعمى ليعبر الشارع .

- ثلاثة يساعدون شخصًا واحدًا على عبور الشارع !

- نعم ، إنه لم يكن يريد أن يعبره ، أجبرناه على أن يتلقى المساعدة !

إن بعضًا يتصورون أن المسئولية وتحملها يكون على هذا النحو المرح الفكه ، كما أن بعضًا يراها فى سوء ترتيب غرفة الأبناء ، وعدم أداء الواجبات الدراسية المنزلية ، والانقطاع عن ممارسة فن يستهوى الصغير كالموسيقى ، بجانب الحصول

على درجات ضعيفة فى الاختبارات المدرسية ، ولكن الطفل قد يحتفظ بغرفة مرتبة ، ويؤدى واجباته المدرسية بإتقان ، لكنه يتخذ برغم ذلك - قرارات غير سليمة ! وهؤلاء هم الأطفال الذين يتلقون دائمًا أوامرنا !

- عليك أن ترتب غرفتك وتنهى واجباتك وإلا فلن تذهب للسينما ! إن هؤلاء الأطفال محرومون من ممارسة الحكم على الأمور ، ومحرومون من الاختيار ، ومن ثم محرومون من خلق الإحساس الداخلى بمسئولياتهم !

نحن نعطى الأبناء تعاليم وأوامر كثيرة .

والواقع أن رد الفعل الناتج عن هذه الأوامر غاية فى الأهمية ، وعليه يتوقف مانريد أن يتعلمه الأبناء منا من خلال هذه الأوامر ، فالقيم لا ترسخ بطريق مباشر ، إنها تستوعب ، تمتص ، تنمو ، لتصبح جزءًا من شخصية الطفل ، ويتأتى هذا من خلال تعرفه للقيم بالقدوة ، يقول الطفل :

- سأكون شجاعًا مثل أبى ..

- لن أكذب أبدًا ، سأكون صادقة كأمى .

وعلى ذلك فالقيم ، ومشكلة المسئولية - ترجع للآباء ، وإلى قيمهم وأخلاقياتهم من خلال ممارسات الطفل . على أن سؤالا هنا لابد أن يطرح نفسه :

- هل هناك ميول معينة وممارسات بذاتها يمكنها أن تخلق لدى الطفل الإحساس بالمسئولية ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال هى موضوع حديثنا المقبل ، وغرس المسئولية فى نفوس الأطفال تبدأ من منطلق ميول الآباء ورغباتهم ومهاراتهم ، ومن المهم فى هذا المجال أن نسأل أنفسنا هذا السؤال :

– هل نسمح لأبنائنا أن يعيشوا مشاعرهم الحقيقية وأن يعبروا عنها ؟ إن على الآباء أن يقدموا لأبنائهم طرقًا وأساليب مقبولة تتفق مع مشاعرهم ، والواقع أن جيل الآباء فيما مضى كان يريد أن يتحكم فى كل شيء حتى المشاعر ! إنهم أنفسهم لم يكن فى استطاعتهم أن يجاروا مشاعرهم العارمة : فإذا ما واجهتهم مشاعر الأبناء العنيفة بذلوا كل جهد لكبتها ، أو إنكارها أو تجميلها ، وهم يستخدمون كلمات وعبارات ناعمة لا يمكن أن تعين أو تساعد على حل هذا الموقف ، إنه مثلا يستنكر قول الطفل : إنه يكره أخاه . فيقول :

– لا أظنك تعنى ماتقول ! مما لاشك فيه أنك تحب أخاك كل الحب !

وقد يحاول الأب أو الأم نفى الأمر ، كأنما لايصدقانه ، يقول الواحد منهما :

– لا ،لا لست أنت الذى يتحدث ؛ إنما هو الشيطان الذى يتقمصك ، ويضع على لسانك هذه الكلمات !

وربما يبذلان جهدًا خارقًا لكبت المشاعر ، كأن يقول الواحد منهما فى عنف :

– إذا كنت تعنى كلمة « الكراهية » فسوف أذيقك ضربًا لم يحدث من قبل ! إن الولد المهذب لايمكن أبدًا أن يحس بمثل هذه المشاعر البغيضة !

وقد يحاول الأب أو الأم تخفيف الأمر ، فيهمس فى ثقة العالم :

– أنت فى الواقع لاتكره أخاك . ربما ضقت بتصرف له ، إنك يجب أن ترتفع وتعلو على هذه المساعر والأحاسيس !

ومثل هذه العبارات تتجاهل فى واقع الأمر حقيقة المشاعر الإنسانية ، إنها كالنهر لا يمكن إلا أن يظل دافقًا جاريًا لا يتوقف ! كل ماهناك أنه من الممكن تحويل مجراه ! إن المشاعر العنيفة أشبه بنهر يفيض ، ولا يمكن إنكارها أو

التخفيف من عنفها بالكلمات ، أو اعتبارها كأنها لم تكن أولا وجود لها ! لأن ذلك يعنى كارثة محققة ، ولابد لنا من تقدير حجمها الحقيقى لمواجهتها بكل الاهتمام ، وترويض الأبناء والأنهار يثرى حياتنا ، ويضيف إليها الخير والضياء ، لكن مازال السؤال قائما :

– ما الخطوات التى يمكن أن نتخذها ، لنضيق الهوة بين الأهداف المرغوب فيها والممارسات الحياتية اليومية ؟ وأين نبدأ ؟ .

تكمن الإجابة عن هذا السؤال فى ضرورة عمل جدول ، وبرنامج زمنى قصير المدى ، وآخر طويل المدى للجهود المبذولة ، ولابد أن ندرك إدراكا كاملا واضحًا أن تكوين شخصية الأبناء يعتمد إلى حد كبير على العلاقة بين الآباء والأبناء ، وهذا التكوين للشخصية لايتم بالكلمات ، بل لابد من إصرار فى البرامج الطويلة المدى – على الاهتمام بتفكير الأطفال وأحاسيسهم الداخلية ، وليس بمجرد مظاهر التفكير وذلك الإحساس ، والسؤال الذى يطرح نفسه فى هذه الحالة :

– كيف نتيقظ ونتنبه إلى ما يفكر فيه الأطفال ، وما يشعرون به حقيقة ؟

إن الأطفال يعطوننا مفاتيح لهذا ، وإن مشاعرهم تتكشف من خلال الكلمات التى ينطقون بها ، وطريقة ونغمة نطقهم لها ، كما تتضح من إشاراتهم وملامحهم ، وكل مانحتاج إليه هو أن نفتح عيوننا وآذاننا جيدًا ! بل أن نفتح قلوبنا ، لنحس بهم ونشعر بحقيقة ما يعتمل بداخلهم من فكر وإحساس !

يجب أن يكون هدفنا وشعارنا ودافعنا – أن نحاول الفهم ، وأن نعبر عن هذا الفهم دون أن نتسرع فى الحكم أو النقد ، مثلا : لو عاد طفل من المدرسة

مكتئبًا صامتًا بطيئًا – نستطيع أن نستنتج لأول وهلة أن شيئًا ما قد حدث ، فعلينا ألا نبدأ بعبارات نقدية مثل :

– مالك متجهم الوجه ؟

– ماذا بك ؟ ماذا فعلت هذه المرة ؟

– ما المشاكل التى تسببت فيها اليوم ؟

– هل تشاجرت كالمعتاد وصديقك ، وتبادلتما اللكمات ؟

إذا كنا مهتمين بردود الفعل الداخلية لدى الطفل فلابد أن نستبعد مثل هذه العبارات التى تثير فى نفس الطفل الكراهية والبغضاء التى تجعله يتمنى لو أن العالم كله يسقط ميتًا مدمرًا !

فعلى الآباء بدلا من هذا أن يقولوا عبارات أخرى مثل :

– يبدو أن شيئا سخيفًا قد وقع اليوم !

– من الواضح أن يومك لم يكن ظريفًا .

– أكان يومًا قاسيًا ؟

– الظاهر أنك قابلت فى يومك بعض المضايقات !

هذه العبارات أفضل بكثير من أخرى تتساءل فى لهفة وجزع وقلق :

– ماذا بك ؟ ماذا جرى ؟

إن الأسئلة تعنى حب الاستطلاع ، أما العبارات ففى مضمونها العطف والمشاركة ، وما من شك فى أن الطفل يعرف ويتعلم من « الحياة » أنه إذا أدرك أن مايوجه إليه انتقاد له – فلن يتعلم تحمل المسئولية ! إنه ينطوى ساعتئذ على نفسه ، ويحمل الآخرين الأخطاء ، ويبدأ يشك فى سلامة تصرفاته وفى قدراته ، كما يشك فى نيات الآخرين ، ويتعود أن يعيش فى انتظار دائم

للاحباطات والمثبطات وكل ما يحول بينه الانطلاق للتدرب على تحمل المسئولية !

كيف تكسب طفلك

أكبادنا : قد تثور بيننا وبينهم حروب معلنة أو غير معلنة حول قضية المسئولية ، ويجب أن يكون الآباء على ثقة من أنهم لن ينتصروا أبدًا فى مثل هذا اللون من الحروب مع أبنائهم !

إن الأطفال لديهم وقت أطول ، وطاقة أكبر لمقاومتنا مما لدينا نحن الآباء والأمهات ! وحتى لو أننا كسبنا معركة ونجحنا فى فرض إرادتنا – فإن رد الفعل لهذا أن يصبح أبناؤنا مخربين ومنحرفين وغاضبين دائما ، لكن هناك سبيلاً واحدًا للفوز ذلك هو .

– على الآباء والأمهات أن يفوزوا بأطفالهم ويكسبوهم إلى جانبهم .

وقد تبدو هذه المهمة مستحيلة أو من الصعوبة بمكان ، لكن الواقع أنها ممكنة ومقدور عليها ، ونستطيع فعلا النهوض بها ، حتى لو لم يكن لدينا فى الوقت الحاضر علاقات من صداقة وود مع الأطفال – فإنه من الممكن أن نبنى مثل هذه العلاقة فى المستقبل القريب ، ويستطيع الآباء أن يحدثوا تغييرات عميقة وجذرية وإيجابية فى أطفالهم إذا هم تحملوا مسئولية أوليه هى :

– أن يسمع الآباء للأبناء فى انتباه ويقظة وحساسية .

ما أشد ما يتمزق الأطفال عندما لايبدى الآباء اهتمامًا كافيًا بالاستماع إلى أبنائهم ، وإلى أفكارهم وخواطرهم ، وأحاسيسهم ومشاعرهم ! ونتيجة لهذا

فإنهم يتصورون أن أفكارهم غبية تافهة ولا تستحق الاستماع إليها ولا تستأهل الاهتمام بها ، وإلا كان الآباء قد أعاروهم آذانهم ؟ وقد يتطور الأمر إلى الشعور بأنهم هم أنفسهم مرفوضون وغير محبوبين ، ولا ينتظر أن يحبهم آباؤهم !

والأب الذى يصغى لطفله يشعره بأهميته وبقيمة أفكاره ومقترحاته وأنها تلق منه الاحترام ، وذلك يقدر أفكاره ذاتها ويحترمها ويمعن فيها ، ويزداد ثقة فى نفسه ، وهذا بدوره يجعله أكثر قدرة على التعامل مع العالم والأحداث من حوله .

هذا ما نحتاج إليه أولا : أن نستمع للأبناء .. أما الأمر الثانى فهو :

– تجنب ما نسميه « العنب المر » المتمثل فى النقد والتعنيف والتجريح !

إن الآباء يجب أن يتفادوا من الكلمات والعبارات التى تخلق الشحناء والبغضاء مثل هذه الشتائم :

– أنت إهانة لمدرستك ولأسرتك ! ولا أريد أن أتصور أنك تنتمى لها !

ومثل هذه الشتائم جارحة ومفزعة ، ويضاف إليها النداءات بالكلمات التى تمس الأبناء ، وترسب فى أعماقهم بشكل يصعب محوه !

– أنت برغم رأسك الكبير أبله عبيط ! هذا رأس يصلح لـ .. لـ .. ثور !! وربما يتمادى البعض ، فيقدم بعض تصوراته للمستقبل بالنسبة للأبناء فيروح يقول :

– سوف تنتهى بك الأمور إلى السجن ! أؤكد لك أن هذه ستكون نهايتك ! وقد يلجأ بعض الآباء إلى الوعيد والتهديد دون أن يدركوا أثر ذلك !

– إذا لم تهدأ وتستقر فسوف أمنع عنك مصروفك لمدة أسبوع !

وكثيرون يتجهون إلى إلقاء التهم إلى الأبناء دون تمحيص ولا روية .

– إنك دائمًا البادئ بإثارة المشاكل ، أنا أعرفك جيدًا ..

وأحيانًا يصرخ الأب ، أو الأم ، فى الطفل :

– اخرس ؟ واسمعنى ، عندى أمر لابد أن أقوله لك ..

هذه المواقف التى هى إهانات وشتائم ووعيد وتهديد وصرخات وتعنيفات – « عنب مر » يترك طعمًا مرًّا على لسان الأطفال ! وإذا كنا قد ركزنا على ضرورة أن يستمع الآباء للأبناء ، وألاّ يوجهوا إليهم هذه الكلمات والعبارات – فإننا يجب أن نشير إلى الأمر الثالث الهام الذى نحتاج إليه فى تعاملنا مع الأطفال ، وذلك هو :

– إننا يجب أن نعبر عن مشاعرنا وأفكارنا دون هجوم وانتقاد .

ففى المواقف المثيرة الصعبة يكون الآباء أكثر تأثيرًا عندما يعبرون عن أفكارهم ومشاعرهم دون أن يهاجموا الطفل وشخصيته وكرامته ويجب ألا نعتبر – كما قلت فيما مضى – الغضب كحقيقة ثابتة فى الحياة ! وعندما يستمع الآباء إلى أبنائهم باهتمام ، ويتجنبون المقاطعة والتعليق على كل عبارة ، ويعبرون عن آرائهم بلا إهانات – فإننا لابد أن نتوقع من الطفل تغييرًا ملحوظًا ؛ إن جو التعاطف يجتذب الأطفال ويقربهم إلى آبائهم . وسيزيد ذلك من ميلهم إلى التعقل والهدوء ! ولكن ذلك لن يحدث فجاة وبين عشية وضحاها ؛ وإنما يحدث تدريجيًا ، وببطء ، ولكنه يحدث حتمًا ، ولاشك أن الأب فى تبنيه الاتجاهات وممارسته لها سوف يخلق لدى طفله الشعور بالمسئولية .

على أننا لايمكن أن نغفل أن هذا الشعور يخلقه الطفل بنفسه ومن خلال مجهوده الخاص ، ويبقى الآباء قدوة ومساعدين ، لكى تكون المسئولية جزءًا من شخصية الطفل ، ومن أجل هذا من الضرورى أن نقرر على وجه التحديد : أى

مسئوليات محددة نعطيها الأطفال فى مراحل نموهم ونضجهم المختلفة ؟ فهم لايولدون وقد تشكل لديهم الإحساس بالمسئولية ، ولا يكتسبونه تلقائيًّا ..

إنه مثل تعلم العزف على « البيانو » يأتى تدريجًا ، وعلى مدى سنوات طويلة ، ولكننا نفاجأ بأننا أمام عازف ماهر نتيجة التدريب المستمر على الممارسة وعلى الاختيار والانتقاء خلال سنى العمر مرحلة بعد مرحلة ، كل مرحلة بما يناسبها .

إن تدريب الأطفال على تحمل المسئولية يمكن أن يبدأ فى سن مبكرة جدًّا ، والسبيل إلى ذلك أن نسمح للأطفال أن يقولوا كلمتهم وأن يبدوا اختيارهم فى الأمور التى تهمهم .

وهناك أمور ولاشك يجب أن يتحمل الطفل مسئوليتها بالكامل ، وأخرى يستطيع أن يعبر عن رأيه فيها ، فإننا نرفض أن يكون الطفل مهملا ومجرد « دمية » فى يد الآباء والحد الفاصل بين ما يتحمله الآباء وما يتحمله الأبناء — يجب أن يكون واضحًا ، وألا يعبره أى طرف ، وما أصعب تحديد المسئوليات ! والفكاهة العالمية تقول :

— إنى لا أختلف أنا وزوجتى أبدًا ، هى تهتم بالمسائل البسيطة العادية !

— ما هذه المسائل ؟

— أن أستقيل من عملى ! أن نغير البيت والأثاث ! أشياء من هذا القبيل !

— إذن : ما مسئولياتك أنت ؟

— المشاكل الكبرى : الشرق الأوسط ، الغذاء العالمى !

ولسنا نريد أن تكون المسائل بهذه الطريقة ، فلا مسئولية على طرف ، على

حين أن كل المسئوليات الأسرية المنزلية على الطرف الآخر ! بل لابد من توزيع عادل للمسئوليات ، فيتقاسمها الآباء والأبناء فيما يختص بهذه الأجيال التى لا تريد أن تحمل عنها كل العبء ، فتشب وهى غير مدربة على تحمل المسئولية ، ولا نريد لها أن تنوء بالعبء قبل الأوان ! والدراسة المتأنية للمجالات المشتركة فى المسئولية بين الأب والابن ستثمر خطوطًا واضحة محددة . والسؤال المطروح :

– ما مجالات المسئولية وغرسها لدى الصغار منذ نعومة أظفارهم ؟ وما الفاصل ما بين مسئولية الكبار وواجب الصغار فى كل مجال من هذه المجالات ؟

ليس أيسر من الرد على هذا السؤال إذا ما راجعنا تلك الاحتياجات الأساسية للأطفال ، وهى تتركز بداية فى الطعام والملابس ، ثم تتدرج تحت الاحتياجات أمور المدرسة والتعليم والتربية فى سن تالية ، وتأتى من بعدها أمور الهوايات . ولا يفوتنا اللعب ولا اللُّعب . ولابد أن نهتم بموضوع مصروف الجيب للطفل وحجمه ، وأسلوب إنفاقه ! وهناك كذلك اختيار الأصدقاء بجانب التعامل مع الآخرين ، وتربية الحيوانات ، إلى آخر هذه الأمور ، إلى أن نصل إلى ساعات الخروج وحدهم ، وأمور من هذا القبيل ، ولايتصور أحد أن هذه القضايا بسيطة ، فهى فى منتهى الأهمية والحيوية ، وعليها يتوقف الكثير فى مجال غرس المسئولية لدى الطفل حتى تنتهى كلمات (اللامبالاة) ، و(الأنامالية) و(الهروبية) من حياة الأجيال الجديدة !

الشعور بالمسئولية

أكبادنا : فى حاجة لكى نغرس فيهم الشعور بالمسئولية – إلى تحديد واضح لواجبهم ، والواجب تجاههم فى مجالات بذاتها ، وأمور يتعين علينا أن نستمع إلى وجهة نظرهم فيها فحسب ، على أن نشاركهم فيها بالرأى إقناعًا واقتناعًا .

* * *

حتى الطفل الذى يبلغ من العمر عامين فقط علينا أن نسأله :

– عزيزى ، هل تريد الكوب مملوءًا كله باللبن أو تريد فقط كوبًا صغيرًا ؟

والطفل الذى لايتجاوز أربع سنوات من الضرورى أن نسأله :

– هل تريد ياعزيزى البيض مسلوقًا أو تريده مقليًّا فى الزبد ؟

والطفل وهو فى السادسة يجب أن نسأله :

– هل تفضل ياعزيزى البطاطس أو الفاصوليا فى غداء اليوم ؟

إن الأطفال يجب أن يوضعوا فى مواقف عليهم من خلالها أن يتدربوا على الاختيار ، فإنه ينبنى عليه معرفتهم لأذواقهم ولأنفسهم ثم على الآباء أن يخلقوا ويختاروا « الموقف » وعلى الأطفال أن يحكموا فكرهم ليختاروا ويتحملوا مسئولية ما اختاروه ، ولكن علينا أن نتنبه أنه يجب علينا ألا نسأل الصغير :

– ماذا تريد لطعام إفطارك ؟

بل يجب أن نساعده بطرح السؤال بشكل آخر هو :

– هل تريد البيض مسلوقًا ، أو مقلياً ؟ هل تريد « كاكاوًا أو شايا باللبن » ؟ هل ترغب فى كوب من العصير أو اللبن ؟

إن الصغير ليس فى مقدوره أن يقرر لنفسه إفطاره بالكامل ، يجب أن نقدم له من المقترحات ما يختار بينها تيسيرًا وتسهيلا له ، وليتحمل مسئوليات أبسط ، وعلى قدر ما أتحنا له من حق ، من الضرورى ألا يكون الطفل متلقيًا للأوامر فحسب ، بل مشاركاً فى القرارات التى تشكل حياته !

ولابد أن يتلقى الطفل من الآباء وسائل واضحة كل الوضوح ، فيقال له :

– إننا نقدم الشاى والحنان ، كما نقدم اللبن والكعك ، والاختيار مسئوليتك ! إن الكثير من مشاكل التغذية تخلقها الأمهات اللائى يبدين اهتمامًا زائدًا بمزاج أبنائهن ، ويتدخلن فى ذوقهم ، ويفرضن عليهم ألوانا بذاتها من الطعام والخضروات ، بل يحددن أى الخضروات بالضبط تفيد جهازًا بذاته ! ومن المفيد للطفل ألا يكون لأمه وجهة نظر محددة فى الطعام ! إن عليها أن تقدمه فحسب لطفلها ، وعليه أن يختار من بينه ، ويأكل الكمية المناسبة لشهيته والتى يحتاج إليها ، وهذا لا يناقض الطب والعلم ؛ فالطفل يختار وفق احتياجاته ولاضير من تركه يتحمل المسئولية ! على الأم أن تقول بحزم :

–هذا هو الغداء ، كُلْ .. وكن يقظًا إلى أنه لن يُقَدَّم لك سواه حتى يحين وقت العشاء ؟

إن بعض الأبناء يأكلون وجباتهم على مدى اليوم كله ، ويخطفون بعض ألوان الطعام فى فترة ما بين الوجبات ، فإذا حان وقتها انصرفوا عنها ، وبعد قليل ترتفع أصواتهم مطالبة بالأكل ! وهنا نستطيع أن ندرب الأبناء على تحمل مسئولية خطئهم ، قد يقرصهم الجوع ، لكنه سيكون أستاذًا لهم ، وعلى يديه يلقَّنون درسًا رائعا فى التنظيم والمسئولية ! ونحن نواجه من أبنائنا بنفور من ألوان معينة من الطعام فبعضنا يقسرهم ويفرض عليهم تناولها ، وبعضنا يذعن للصغار

فلا يقلمها لهم ، وكل من الموقفين غير سليم : فلا القسر مفيد ، كما أن الإذعان للأطفال ضار ! وعلينا أن نسعى جهدنا لمعرفة سر النفور لإزالته .. قالت طفلة لاتحب اللحوم لأمها :

- أكلنا ليس حلوًا ، طعام خالتى أفضل !

وكانت الطفلة قد بقيت عند خالتها لفترة امتدت بعض الوقت لسفر الأسرة ، وعندما سألت الأم شقيقتها عن سر إعجاب الابنة بطعامها قالت الخالة :

- لاحظت أن ابنتك لا تميل لأكل اللحوم ، لذلك وضعتها « مفرومة » فى الخضر !

ولم تنتبه الصغيرة لذلك ، وأكلت اللحم - الذى تضيق به - أكلته « مفروما » بكل الرضا !

والتحايل هنا مطلوب وميسور ، ويحل الكثير مما يواجهنا فى قضية الطعام ! ونحن نناقشه هنا فى إطار تحميل الصغير المسئولية وليس لذاته ؛ فالطعام بالنسبة للأطفال ليس كل شىء ، وليس بالخبز وحده يعيشون !

ويأتى موضوع الملابس تابعًا للطعام فى تدريب الأطفال على المسئولية وتحملها !

ففى شراء الملابس للصغار ، نحن الكبار نتحمل مسئولية أى شىء يحتاجون إليه ، والميزانية التى نستطيع أن نخصصها لهذا الاحتياج ، وفى المتجر نختار الكثير من العينات تدخل فى إطار الاحتياج والميزانية . وللطفل أن يختار ما يريد أن يلبس من بين هذه العينات .. تقول الأم :

- انتق يا عزيزى ألوان القمصان التى تريدها من هذا المعروض عليك !

هذه العبارة من الممكن توجيهها لطفل عمره ست سنوات ، إنه يستطيع أن ينتقى جوربه وقمصانه وغير ذلك من الملابس ! وهناك مجتمعات لاتمنح الصغير هذا الحق ، وتفرض عليه ذوقها ، وهو بذلك لايتدرب أبدًا على اختيار ملابسه ، وقد يكبر معه هذا الأمر ، فيرى نفسه دائمًا معتمدًا على آخرين ! وما أكثر ما يصطحب الرجال معهم أمهاتهم ، أو زوجاتهم ليخترن لهم ! والحق أن موضوع الملابس يجب أن يستوقفنا بعض الوقت ، لأنها أضحت كرنفالا ! والعصرية تأتى فيها كل يوم بجديد من (الموضة) ، والسؤال :

– ماموقفنا – نحن الأمهات – من هذا الذى يجرى فى أسواق الملابس عالميًا ؟ لا فارق كبير بين ملابس الأولاد والبنات ، ولا الرجال والنساء ! الألوان صاخبة مجنونة ، ولا مقياس لما يجب أن يلبس أو لا يلبس ! المقياس الوحيد هو (الموضة) ! وهى تتجدد بسرعة لا نكاد نلحق بها !

نقولها بكل بساطة ووضوح : « تراثنا خير دليل لنا ، يجب ألاّ ننسى عمر بن الخطاب حين وزع على كل واحد من المسلمين مترين من القماش ، وصعد المنبر يومًا يرتدى جلبابًا كاملا ، قال له أحدهم :

– من أين لك هذا ؟ أنت أطول منا وتلبس ثوبًا كاملا .. كيف تَأتَّى هذا ؟

ويقول عمر : اترك هذه .. ويصر الرجل ، فينادي عمر بن الخطاب ابنه عبدالله ، ويقول له : قل لهم ياعبدالله : من أين أتيت بثوبى ؟ ويقول الابن : (تنازلت) ياقوم لأبى عن ثوبى ! هذا هو أمير المؤمنين ولباس أمير المؤمنين ! فلا نسرف فى تكديس بيوتنا بالثياب ، ولانحول أطفالنا إلى مسخ وكرنفالات ، ومضحكين فى سيرك بملابسهم الطاووسية ! ونلقى بها بعد أن يلبسها الصغير مرة

أو مرتين ، إنه بذلك يتدرب على الإسراف ! إن تدريب الصغير على المسئولية يطالبنا بأن يكون اختيار الثياب جزءًا من هذا المران ، وذلك التدريب واختياره لثيابه خلال رحلة أو زيارة أو لأية مناسبة علينا أن نعرض عليه ما لديه من ثياب :

– اختر ما تلبسه لتخرج به إلى السينما .

– انتق ما تريد ؛ لتستقبل به عمتك حين تزورنا .

ويجب أن نرفض منه عبارة تقول :

– ألبس أى شيء ! اختارى لى أنت يا أمى ، كله يستوى ..

إن عبارة كهذه قد تكون سببًا فى التشنيعة التى تقول : «كله عند العرب .. » إن الاختيار ذوق ، ومسئولية وفن ! وعلينا أن ندرب عليه أكبادنا ، وهو مسألة ليست هينة ولا بسيطة : تدلنا على ذلك تلك الحكاية الشعبية القديمة التى يحكون فيها عن رجل طلب منه أن يقطع بضع شجرات فى غابة ، ومنحوه أسبوعًا ، وقطعها فى يوم واحد ، وفى المرة التالية طلبوا إليه أن يقطع مجموعة أشجار فى أربعة أيام فقطعها فى نصف يوم ، وقالوا له :

– أنت رائع ! سنعطيك فرصة لكى تستريح ونعطيك عملا سهلا ، هذه الكمية من التمر : راجعها واختر منها الجيد : ضعه فى سلة ، والباقى فى سلة أخرى .. ستنتهى من هذا فى ساعتين .

ورجعوا إليه بعد يوم ليجدوا السلة أمامه ، ولم يفرز أكثر من ربعها ! سألوه : ما هذا ؟ أجابهم : إن لدى مشكلة أن أختار بين الجيد وبين ما ليس جيدا ، وهذه مسألة صعبة ، قطع الأشجار مسألة جهد لايحتاج إلى اختيار وحكم ! ومن هنا نرى صعوبة تدريب الأبناء على الاختيار وتحميلهم هذه

المسئولية ! إنها أصعب من قطع أشجار الغابة ، ولتكن البداية مع الطعام والثياب ، وتتلو ذلك أمور أخرى أكبر إلى أن ننمى عند الصغير حاسة الحكم على الأمور ومواجهة المسئولية ، وتحملها والمضى بها قدمًا نحو النجاح . وليصبح كل منهم فى مستقبل حياته « مسئولا » وهى كلمة نطلقها دائما على هؤلاء الذين ينجحون فى حياتهم ، ويتصدون لمهام الأمور !

الواجبات المدرسية

أكبادنا فى مسيس الحاجة للتدرب على تحمل المسئولية صغارًا ؛ حتى لا يهربوا منها كبارًا وحتى يواجهوها فى كل نواحى حياتهم حاضرًا ومستقبلا . وعرضنا للطعام والملابس كوسيلتين ، فمن خلال اختيار الطفل لهما فى مقدورنا أن نعلمه الاختيار : فنًّا ، وذوقًا ومسئولية . ومنذ اليوم الأول الذى يذهب فيه الطفل للمدرسة يجب علينا أن نفهمه أن واجباته المدرسية مسئوليته وحده مع معلمه !

* * *

ولست أنسى الطفل الذى قال للفتاة التى تساعد فى أعمال البيت ، قال :

– أنا سأنام ، اعملى الواجب : اكتبى الكلمات بخط واضح ، ولا تنسى الحساب !

وانفجرت الأسرة ضاحكة ، وبعد الضحكة تكتشف حقيقة مرة : أن الطفل يتهرب من مسئولياته ! . ونحن نرى أنه يجب أن تنفض الأم والأب أيديهما من مسئولية الواجب المدرسى الذى على الطفل أن يقوم به فى البيت ، عليهما ألا يراجعا الصغير ، وألاّ يساعداه فيه مساعدة تهدم الهدف منه ! نعرف أن المعلمين يخالفون هذا الرأى ! يقول واحد منهم :

– إن الأسرة يجب أن تشرف على الواجبات المنزلية بالمدرسة ، إنها

مدرسية ومنزلية فى الوقت ذاته ، إنها رمز للتعاون بين البيت والمدرسة !

ولكننا نرى أنه يجب ألاّ تتدخل الأسرة فى الأمر اللهم إلا إذا طلب إليها الطفل المساعدة والمعاونة لا أكثر ولا أقل ! وإذا ما أخذت الأم أو الأب على عاتقه القيام بأعباء الواجبات والدروس المنزلية – فإنها ستصبح قيدًا لا يمكن الفكاك منه ! إن الواجبات المنزلية قد تصبح سلاحا فى يد الصغير يعاقبنا به . أو يهددنا أو يستغلنا عن طريقه ! ومثل هذه المأساة يجب أن نتفادى منها ، وإننا لنضيف للبيت متعة غالية لو أن الآباء لم يبدوا اهتمامًا كبيرًا بالتفاصيل الخاصة بالواجبات المدرسية ، بل إنهم يؤكدونها باستمرار ، فيقول الأب :

– الواجبات المنزلية مسئوليتك وحدك ياعزيزى ، إن مثل مسئوليتك عنها كمسئوليتنا عن عملنا !

يجب عدم المبالغة فى قيمة الواجبات المنزلية المدرسية فى السنوات الأولى وهناك مدارس كثيرة لاتثقل أبناءها بالواجبات ، ويبدو أن الأطفال الذين ينطلقون بعد الظهر أحراراً يفكرون – يحصلون القدر نفسه من الثقافة والخبرة الذى يحصله هؤلاء الذين نثقل كاهلهم بالواجبات المنزلية وهم فى السادسة أو السابعة من العمر !

على أنه يجب أن يكون واضحًا أن الواجبات المدرسية تعطى من أجل شىء واحد ، هو تدريب الأطفال على تحمل المسئولية وحدهم ! والأسرة يجب أن تساهم فى حصول الأطفال على هذا التدريب : ولهذا يجب أن يكون الواجب المنزلى على قدر طاقة الطفل ، ليعمل فيه مستقلا معتمدا على نفسه ، بمساعدة يسيرة متواضعة من الآخرين إذا طلب الصغير ؛ لأن المساعدة الكاملة تشعره بأنه ليس بالكفاية الكافية للقيام بهذه المسئولية ؟ ولتكن مساعدتنا كالتالى :

– أعندك اليوم واجبات مدرسية ياعزيزى ؟

– حفظ قرآن كريم ، وخمس مسائل فى الحساب وإملاء .

– بأى شىء ستبدأ ؟ فكر وعندما تحتاج إلى لأملى عليك قطعة الإملاء تعال .

ويجب أن نسمح له فى البيت ببعض الانطلاق واللعب بعد فترات الجلوس الطويلة على مقاعد حجرات الدراسة ، لابد أن نوزع معه الوقت ما بين الواجبات واللعب ، ونوزع الوقت بين الواجبات ذاتها ؛ كما يجب ألاَّ يفوتنا أن نمنح الإذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما جانبًا من وقت الصغير ، وبعض الأطفال يحبون أن يكونوا بجانب الكبار فى أثناء قيامهم بعمل واجبهم المنزلى المدرسى ، ولا مانع من ذلك بشرط ألا يكثر الكبار من الملاحظات حول طريقة جلوسه أو نظافة الطفل أو أناقة مظهره ؛ فالتظاهر بالانهماك فى شىء آخر فى هذه الحالة أفضل ! إن بعض الأطفال يستوعبون أكثر لو أنهم داعبوا شعرهم أو هزوا مقاعدهم فى أثناء الجلوس ! وتعليقاتنا عليهم وملاحظاتنا تصيبهم بمزيد من التشتت والتمزق والتعب ! وكذلك علينا ألا نقاطعهم بأسئلة أو استفسارات يمكن تأجيلها ، بل إننا نظل موجودين – غير موجودين لمجرد المساندة أو المساعدة إذا طلبت ، ويجب ذلك بدون تعليمات أو أوامر إليهم ! قد نشرح لهم كلمة أو عبارة ، ونتفادى من عبارة مثل :

– لولا أنك شخص مشتت ، لعبى – لأمكنك أن تتذكر دروسك !

وعلينا ألا نبادره بقولنا :

– لو أنك استمعت إلى مدرسك جيدًا لاستطعت أن تؤدى واجباتك المنزلية بسهولة !

إن مساعدتنا للطفل يجب أن تكون بلا تشكيك فى قدراته ، وبلا تأنيب ، بل برقة وحنان !

يجب أن نسمعهم ولا نحاضرهم : أى لا نلقى عليهم المحاضرات ! إن علينا أن نريهم الطريق ، وعلى الرحالة أن يمضى إلى هدفه معتمدًا على نفسه ! وموقف الآباء من المدرسة والمعلم ينعكس ويؤثر فى موقف الطفل من دروسه المنزلية ، فإذا امتدح الأب المدرسة ، وأعلن عن رضائه عن المعلم — ساعد هذا فى تبنى الطفل لواجباته المدرسية المنزلية ، وساعد على أن يهتم بها ! فإذا كان المعلم صارمًا فعلى الأب أن يكون حنونًا عطوفًا ، فيقول للابن :

— يبدو أنه عام دراسى محتشد : المواد كثيرة ، البرنامج طويل ، لابد أن معلمكم يطلب منكم الكثير ويطلبه بحزم ! يجب أن ترضيه مهما كانت الواجبات التى يعطيك إياها كثيرة وطويلة ! على كل فائدتها لك ، وليست له !

وفى استطاعتنا مساعدة الأبناء بالحزم إذا كان المعلم متساهلا ، ولا يعنى الحزم تلك الأوامر والنواهى التى نلقى بها للأبناء كلما رأيناهم :

— استذكر ، لن نسمح بفتح التليفزيون أبدًا ولو يوم الخميس والجمعة ! عليك فى كل يوم أن تستذكر ، رَتِّبْ ساعات بعد الظهر وفق جدول خاص للاستذكار وإلا فلن تنجح !

هذا أسلوب فى واقع الأمر مرهق ومنفر للصغار ، ويدفعهم بعيدًا عن دروسهم وعن واجباتهم !

إن الواجبات المدرسية المنزلية كثيرًا ما تسبب نزاعات أسرية يمكن التفادى منها ؛ إذ إن تطويرها قد يصل بهم إلى أسوأ العواقب ! . ولدينا أمثلة لما تقوله بعض الأمهات أو الآباء :

— ياعزيزى ، أنا تعبت .. لا أستطيع أن أمضى فى تذكيرك يوميًّا بواجباتك المدرسية ، هات كل كتبك وكراساتك لأعرف مدى خيبتك فى دروسك إننا لن نسمح أبدًا بولد خائب فاشل فى الأسرة يفضحنا !

إن التهديدات اليومية المستمرة ، وتذكير الأبناء بالواجبات المدرسية المنزلية كثيرة فى مجتمعنا وعادية ، والآباء والأمهات يشكون لضيوفهم من الأبناء ويبادلهم هؤلاء الشكوى ! وواقع الأمر أن هذا كله لا جدوى منه ولا فائدة ! بل هو يسيء ويضر ! هو يخلق جوًّا من النكد والشد والجذب ! ويخلق آباء متوترين وأبناء غضابًا يهربون من المسئولية ، فى حين أن هذه الواجبات المنزلية المدرسية وجدت للتدريب على تحمل المسئولية !

الاستذكار

أكبادنا فى حاجة للتدريب على ممارسة المسئولية ، والواجبات الدراسية التى يعطونَها لإنجازها فى البيت تدريب رائع على هذه الممارسة ، إلا إذا عرقلناها نحن عن طريق الأسرة ! إن كثيرين من الأطفال الممتازين نجدهم — كنتيجة حتمية لطموح الأباء والأمهات وثمرة لضغطهم المستمر — أقل مستوى مما نتوقع ! بل قد يفشلون بسبب إحساس داخلى عميق بهذا الإرهاب الواقع عليهم !

* * *

يقول الأب :

— نابليون عندما كان فى عمرك — كان يسبقك بسنتين أو ثلاث سنوات ! موزار وهو فى السابعة من عمره وضع سيمفونية ! على بن أبى طالب نام فى

فراش سيدنا محمد فى شجاعة وهو فى سن أصغر من سنك يا خائب !

وينسى الأب أن نابليون فى سنه هو كان قائدًا لفرنسا ، وأنه شخصيًّا — أى الأب — لم يضع سيمفونية لا وهو فى السابعة ، ولا وهو فى السابعة والعشرين أو الثلاثين ! كما أنه لم يقف عمره كله موقفا شجاعا كذلك الذى وقفه على بن أبى طالب ! وإنها لسقطة أن « نعاير » أبناءنا « ونقارن » بينهم وبين هؤلاء أو بينهم وبين أنفسنا نحن الآباء والأمهات ! ويجب ألا يقول الأب للابنة :

— انظرى ! يجب أن تكونى مثل ماما !

وعلى الأم ألا تطالب ابنها بأن يكون مثل (بابا !) إنه — أى هذا الصغير — يجب أن يشب وهناك قدر كاف من الاستقلال والذاتية عن الأب والأم ! إنه ليس صنمًا ولاضرورة لصبه فى قالب معين .. وعندما تبدى الأسرة اهتمامًا مبالغًا فيه بالشهادة الدراسية الفترية — نصف السنة وغيرها — فهى بذلك تسبب للصغير تمزقًا كبيرًا ، إنه إذا لاحظ أن الدرجات التى يحصل عليها ماهى إلا جواهر وأحجار كريمة توضع على جبين الأبوين — ساعتئذ يفضل الطفل أن يعود بأحجار وغطيان زجاجات هى على الأقل خاصة به ! إن الطفل يفشل فى تحقيق رغبة أبويه كرد فعل ، وثورة عليهما وكرغبة فى فرض استقلاليته ! يقول الأب :

— هذه الدرجات من أسوأ ما حصلت عليه فى عمرك !

— ذلك كل جهدى !

— لا أبدًا ! كان فى مقدروك أن تحصل على أكثر

— لو كان فى مقدورى لفعلت !

— لن أوقع عليها ، قل لهم فى المدرسة : إنى رفضت ذلك !

وينفجر الصغير باكيًا ، وقد يرجو أمه ، وربما تقبل التدخل ، ويستمر

النقاش الذى ينتهى دائما بأثر نفسى غائر عميق فى نفس الصغير ! وهكذا فإن الحاجة للاستقلال قد تدفع الصغير للفشل مهما بلغ ضغط الآباء وتهديدهم له ! وقد قالها صغير فى وضوح :

— إنهم قد يستطيعون أن يمنعونى من مشاهدة التليفزيون ، وقد يمنعون عنى مصروفى ! ولكن لن يمنعونى من الحصول على درجات سيئة فى الامتحانات ! ولن يمنعونى من الرسوب فى الحساب الذى لا أطيقه .

هذه هى النتيجة ، وهى فى واقع الأمر كارثة محققة ! ومن الواضح أن مقاومة التعليم ورفض الدروس ليس مشكلة يسيرة الحل ، بل هما أمر بالغ التعقيد إن زيادة الضغط يمكن أن تقابل بزيادة فى المقاومة من جانب الأطفال ؛ كما أن الحرية المطلقة للطفل قد تعنى قبول التهرب من المسئولية وعدم مواجهة الواقع ! والحل ليس سهلا ولا هو بسريع ! إنما هو معاناة طويلة ، ولكنها من أجل شىء يستحق ، وأمر له خطورته ! بعض الأطفال قد يحتاجون إلى « علاج » نفسى لحل مشكلة صراعهم مع آبائهم ! ولكى يكتسبوا القدرة على الإنجاز وليس العكس ، وذلك لا يتأتى إلا إذا اقتنعنا واقتنع الطفل بأنه شخصية مستقلة لها كيانها الخاص بها وذاتيتها المتفردة ! إن عبارة كهذه يجب أن تقال للصغير :

— أنت ياعزيزى مسئول عن نجاحك وفشلك ، لن ينسب لى نجاحك ، إنه خاص بك ! وكذلك فشلك إنه خطؤك أنت ، ولكنك تملأ البيت فرحة بنجاحك ، وتملأ قلبى بهجة بتفوقك ! هل تضن علينا بهذا ؟

إن الطفل إذا ترك يمارس حرياته ويمارس مسئولياته — استطاع أن يؤديها أفضل مما لو أننا سلبناه إياها ، إنه سوف يقدر هذه المسئوليات ، وسوف تعمق

فى نفسه القدرة على تحمل الواجبات من أجل نفسه ، وأسرته ووطنه ! بل المسئولية الموضوعية تجاه البشر والحياة !

وليس أيسر من أن يقول الطفل :

– تعبت !

ومن واجبنا أن ندعه يستريح ولا نلاحقه بسوط عذاب اسمه : استذكر.

وربما تطرقنا هنا للحديث عن الدروس الخصوصية التى نراها شيئا يدفع الأبناء إلى مزيد من عدم الاعتماد على النفس ، الأمر الذى يشكل خطورة على شخصية الطفل ، وعلى قدرته على الاستيعاب ! ويجعله دائمًا شجرة لبلاب لابد أن تبحث لها دائمًا عما تعتمد عليه ، لكى تنمو ! إن جانب الاعتماد على النفس هو أخطر أهداف الواجبات المنزلية الدراسية ، إنها ليست للتحصيل فحسب ، ولن أنسى كلمة ذلك الأستاذ الجامعى الذى قال :

– إن التعلم والتثقيف الذاتى هو الوسيلة الوحيدة للإنسان ليبنى نفسه ، ولا سبيل للتدريب على هذا اللون من التعليم المستمر والتثقيف الذاتى إلا الاعتماد على النفس فى أداء واجبات المعلمين المنزلية ، بلا مساعدة من أحد ، وبلا معونة من الأسرة !

ولقد طرقنا حتى الآن قضايا الاختيار فى الطعام والملبس ، وتحدثنا عن الواجبات والدروس المنزلية وبقى لنا كثير من المجالات التى يتدرب عليها الطفل على تحمل المسئولية : أولها ممارسة الهوايات ، وخاصة إذا لم يكن بين أفراد الأسرة من له هذه الهواية : كالموسيقى ، أو الرسم ، أو التمثيل ، وتقول أم :

– ابنى خجول ! لم يمكنه قط أن يواجه الناس !

والتمثيل ، والحوار ، وسيلة لعلاج الخجل ، لأن الخجل مرحلة من مراحل

الهروب من المسئولية وصورة واضحة لها ، والهوايات قادرة ولاشك على علاج الكثير !

وهناك أيضًا قضية « مصروف الجيب » وهو من أمور عدة يمكن من خلالها تدريب الأبناء على التصرف فيما يملكون ، وهذه مسئولية هامه يجب أن نوجه إليها أنظار أبنائنا ، فلا نجعل الابن يغل يديه إلى عنقه ، ولا ندعه يبسطها كل البسط ! ومن المفيد أن نقف عند هواية ما . كالموسيقى نناقشها كقضية من قضايا التدرب على حمل مسئولية ممارسة هذه الهواية ، ومن الضرورى أن نناقش قضية الأبناء والمال ، فهى أيضًا من جملة قضايا محاسبة النفس ومحاولة الاعتماد عليها !

الطفل والموسيقى

أكبادنا : فى حاجة للتدرب على تحمل المسئوليات ، وعلى جبهة عريضة تبدأ من الطعام والثياب ، والواجبات المنزلية التعليمية ، ومصروف الجيب ، وممارسة الهوايات – تقوم بإعدادهم للاعتماد على النفس ، ودروس الموسيقى لون طيب من الهوايات التى من خلالها يتم التدرب على مواجهة المسئوليات وتحملها .

* * *

ونحن كثيرا ما نسمع الطفل الذى يمارس هواية العزف على آلة ما يقول :

– كفى ، لا رغبة لى فى مواصلة العزف !

وتقبل الوالدين لمثل هذه العبارة ليس بسهل ولا هو يسير : بعضهم يغضب ويثور ، وبعضهم الآخر يتذكر أن كل محاولات تفرض على الصغار مصيرها الفشل ! وهؤلاء يدركون أن ممارسة الطفل للموسيقى مسألة خاصة به ، هو وحده الذى يقرر : هل سيعزف أو لا يعزف ؟ إنه يتدرب عندما يشاء ويكف عندما يريد ! إن ممارسة الموسيقى واحدة من مسئوليات الطفل الخاصة به ! وتقول إحدى الأمهات :

– إنى أعددت هذا البيانو من أجل أن تتعلم عليه ابنتى .

– ابنتك ؟ أين هى ؟

– عندما تولد !

– ربما اختارت آلة أخرى .

– لا ، لا ، البيانو هو أفضل الآلات الموسيقية للفتيات .

إن الأم هنا لا تعنيها مواهب طفلتها التى لم تولد بعد ، كل الذى يعنيها أن تعوض ما فاتها حين فشلت هى فى العزف ، أو حُرمته ! وهى لاتهتم كثيرًا بالدموع التى تذرفها ابنتها أو الرفض الذى يبديه الابن حين تصر من جانبها على أن تفرح بهما وبمواهبهما فى العزف ! وهى تعلن بلا تحفظ وبلا أدنى تردد :

– الإنسان العصرى يجب أن يتذوق الموسيقى ويعزفها ، وقد اشترينا الآلات وندفع للمدرس والمعلم لتدريب البنت والولد ! ولا مجال أبدًا لقبول أعذارهما السخيفة لتخلفهما فى ميدان نرفض أن يسبقنا فيه أبناء أوربا إننا ندفع الكثير من المال ، والأبناء أنفسهم عليهم أن يراعوا هذا ويشنفوا آذاننا بعزفهم !

وتحت وطأة مثل هذه الكلمات لن تتعلم الطفلة ولن يتدرب الطفل على عزف الموسيقى ، ولن يحرزوا أبدًا أى تقدم فى هذا المجال ! ومهما دفع الأبوان من مال ، ومهما كلفهما الأمر – فإن الخوف أن تكون النتيجة الفريدة لذلك هو إفساد العلاقة بين الآباء والأطفال !

إن ممارسة الأطفال للموسيقى لايعدو الهدف منها أن تكون متنفسًا للانفعالات والمشاعر ، حياة الطفل مملوءة بالنواهى والأوامر ، والتعليمات ، والقواعد التى يطلب منه السير عليها ، والتمزقات الكثيرة ، ومن الضرورى إزاء كل هذا أن تكون هناك لحظات هدوء واسترخاء ، والموسيقى تمنح الأبناء هذه اللحظات بشكل رائع : هى تعطى معنى للغضب ، وتمنح شكلا للبهجة ، وهى خير مهدئ للتوتر ، ولكن الأم ترى غير هذا !

– يا عزيزى ، أريده أن يعزف .

– هل تريدينه « محمد عبدالوهاب » آخر؟ هل سيكون ملحنًا ؟

– لا ، لا ، انظر إلى الطفل فى أوربا ! ما من ابن إلا يعرف العزف والغناء .

– هذا ثمرة أجيال متوالية من الاهتمام بالموسيقى .

– نحن لا نستطيع أن نصبر أجيالا ! بل لابد لأبنائنا من أن يتذوقوا ويتدربوا على عزف الموسيقى والاستماع إليها .

والواقع أن تناول الآباء للموسيقى على هذه الصورة لا ينجم عنه إلا مزيد للتمزق للصغار ! والنتيجة دائما مؤسفة ، ومعروفة سلفًا : الطفل لن يتدرب على العزف ، بل سيكره الآلة الموسيقية ومعلمها والأم ، وينهى من هذه اللحظة علاقته بالموسيقى ! ودائمًا نجد فى بيوتنا بيانو مهجورًا يعلوه التراب ! أو (فلوت) لا ينبعث منه نغم ! أو (كمنجة) مقطوعة الأوتار ! وكلها تذكرنا بالفشل الكبير الذى أحرزناه خلال رحلة معاناة حاولنا خلالها أن نخلق من ابننا عازفا جيدا ، وتذكرنا بالآمال الضائعة فى مجالات بذلنا فيها جهودا ضائعة !

وتتساءل الأم :

– ماذا فعل؟ ماذا كان على أن أفعل لكى أنجح ؟

نقول : إن مهمة الأسرة أن تجد معلمة موسيقى ممتازة للابنة ، ومدرسًا متفوقًا للابناء ، وذلك بعد أن تتكشف ميول هذا الابن الموسيقية وعلى المدرس أن يمسك بيده مفتاح اهتمام الطفل بالموسيقى ، وهى وهو – وحدهما – قادران على تفجير الطاقات والمواهب الكامنة ، إن مهمة المعلمة والمدرس أن يكسبا ثقة الصغار واحترامهم ، وإذا لم ينجح فى ذلك فشل فى دروس الموسيقى ذاتها ، الطفل لن يحب الموسيقى على يد معلم لا يحبه ! إن صوت المعلم له وقع أهم من

وقع الموسيقى ذاتها ، وهناك قواعد لابد من الاتفاق عليها فى هذا المجال ، مثل :

– هل يمكننى أن أختار له الآلة التى يعزف عليها !

– لا يمكن !

– أليس من حقى أن أختار مواعيد دروس الموسيقى ، وأن ألغيها إذا لم تسنح الظروف ؟

– لا ، وهذه أمور يتفق عليها بين الطفل ومعلمه ، ولا إلغاء للدرس إلا باتفاق مسبق .

– هل أتصل بالمعلم وألغى الموعد ؟

– لا ، هذه مهمة الصغير صاحب الشأن !

– وماذا عن مدة الدرس !

– مدته مسألة بين الطفل ومعلمه !

كل هذه الأمور تجعل من الموسيقى دروساً فى تحمل المسئولية .. وفى الاعتماد على النفس .. وهى تخلق لدى الطفل شعورًا بأننا نهتم بمشاعره وأفكاره أكثر مما نهتم بالموسيقى والعزف ، ومن الضرورى ألا يعنف الطفل أو يؤنب بسبب تدريبه على العزف ، إننا كثيرًا ما نسمع الأم تقول لابنها :

– ألا تعرف كم دفعنا ثمنًا لهذا البيانو ؟ إن أباك يشقى ويتعب من أجل النقود التى ندفعها لمعلم الموسيقى بلا فائدة ترتجى وبدون عائد !

مثل هذه الكلمات منفرة للطفل ، وتخلق لديه شعورًا بالذنب ، وهى لاتثير حماسته للموسيقى أو الاهتمام بها ! والحق أن الكثير من تعليقاتنا حول « أذن الطفل الموسيقية » أو « براعته فى العزف المنقطعة النظير » كثيرًا ما تكون مثبطة للهمم ! وإننا لنرى أنه قد بات من الضرورى أن تبتعد عن عبارات مثل هذه :

– إنك يا عزيزى موهوب ! لو أنك استثمرت مواهبك لأصبحت « موزار » !

وتنتفخ أوداج الطفل ، وينتابه الغرور وقد يحدث رد فعل آخر معاكس فيقول الطفل لنفسه .

– ماذا سيحدث لو أننى لم استثمر هذه المواهب ؟

إن الكثير من عبارات التشجيع قد لا يأتى بالنتيجة المرجوة ، بل قد يخلق إحباطات لدى الطفل ، فقد يقول المعلم للصغير :

–جرب هذه النغمات ، ما أسهلها ! اعزف كما أعزف أنا (عزف على بيانو) .

وعندما لا ينجح الصغير فى تقليد معلمه لن يكون ذلك فى مصلحة العازف الناشىء ، فسرعان ما ينصرف عن التدرب ، فى حين أننا لو عرفنا مفتاح استثارة اهتمام الطفل لأمكننا أن نجعل محاولاته دائبة وناجحة ومستمرة بعد درس الموسيقى . إن الطفل يتشجع عن طريق التفاهم والتعاطف والمشاركة الوجدانية والتعرف على حقيقة مشكلاته والصعوبات التى تعترض سبيله ، ولا يثمر التشجيع بمجرد النصائح والمديح والحلول الجاهزة السريعة للمشكلات العارضة ! فهل لنا أن نعلم أكبادنا الموسيقى كفن رفيع المستوى بفن تربوى رفيع المستوى ؟ نرجو . .

مصروف الجيب

أكبادنا : مسئوليتنا ، ومن مسئوليتنا لهم أن ندربهم على المسئولية ، وفى بيوتنا نعطى أطفالنا مصروف الجيب ، كالثياب والطعام ، كواجب نلتزم به ،

لأن الطفل فرد فى الأسرة . والواقع أن مصروف الجيب ليس مكافأة للصغير على سلوكه الطيب ، والحرمان منه ليس عقوبه توقع عليه إذا أساء ! إن مصروف الجيب فى واقع الأمر درس فى السلوك له أهدافه المحددة ، إنه يبغى تدريب الطفل على حسن استخدام النقود بممارسة الاختيار فى إنفاقها ، وتحمل مسئوليات التصرف فيها ، لذلك فإن الإشراف الكامل على إنفاقها يفسد الغرض منها .

* * *

وتسأل أم :

– هل أترك ابنى ينفق كل مصروفه بلا تدخل من جانبى على الإطلاق ؟

– التدخل فى شأن خاص كهذا يثير مشكلات ، فلا تسمحى لنفسك به .

– ماذا أفعل إذن حتى لا يبدد ماله ، أو ينفقه فى أمور تضره ؟

– يجب أن تحدد ببساطة قنوات إنفاق مصروف الجيب قبل أن يحصل عليه الطفل ، بمعنى أن نذكر للصغير ما يجب أن يغطيه من هذا المصروف الخاص : شراء الحلوى ، والمجلة الخاصة به ، ولعب معينة .. إلخ .

ولابد كلما كبر الطفل ونما من أن يكبر مصروفه وينمو ؛ ليغطى مطالبه الإضافية ومسئولياته مثل تذكرة دخول السينما أو المسرح ، ووسيلة المواصلات ، وغير ذلك .

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن أسلوب إنفاق مصروف الجيب – يجدر بنا أن نبحث فى السن التى يجب علينا فيها أن نعطى الصغير ذلك المصروف : إن بعضًا يعترض عليه ، ويود لو اكتفى الصغير بما يمنح من حلوى ، ومأكولات ! وقد سئلت معلمة فى رياض الأطفال :

– أفلا بد من منح الصغير النقود؟

– هذه من الضرورات القصوى! عندى طفل فى الثالثة من عمره اكتشفت أنه يبيع «السندوتش» ويشترى بثمنه الحلوى مع أن معه حلوى من البيت!

إن الصغير تفتنه مسأله الشراء فى ذاتها، بل إننا نسمعه أحيانًا يطلب قطعة صغيرة من النقود، وعندما نسأله عما يريده، قد تفاجأ بقوله:

– أريد أن اشترى؟

– ماذا تشترى؟

– أريد أن «اشترى» فقط، أشترى أى شىء!

إن عملية الشراء فى ذاتها أصبحت لدى الصغير هدفًا يسعى إليه! إن مبدأ منح الطفل مصروفًا خاصًا به أصبح شيئًا مقررًا، ونحن نتوقع أن يسىء الصغير إنفاق نقوده، وكثيرون منهم يبددون نقودهم فيما لا طائل منه فى ثوان! ومن الضرورى مناقشة ذلك مع الصغير فى هدوء وروية (من التروى) للوصول إلى نتائج محققة! وإذا لم تتحقق رغبتنا فى حسن توجيهه فعلينا أن نكتفى بقطع نقدية صغيرة يومية أو كل يومين، وعلينا ألاّ ننسى أن المسألة فى واقعها تدريب للصغير على المسئولية والتصرف؛ ومن ثم فكلما أسرعنا فى منحه المصروف أسبوعيًا كان ذلك أفضل إلى أن يتحمل مسئوليته شهريًا بشرط ألا يتحول مصروف الجيب إلى سيف مسلط على الصغير، فيمنح إياه، ويمنع عنه كممارسة للضغط، ولكى يطيع، ويجب ألا يوقف فى لحظات الغضب على الصغير، كما يجب ألا يزاد فى فترات الرضا عنه! وسؤال يطرح نفسه:

– ما قيمة المصروف المعقول الذى يجب أن نعطيه إياه؟

– ليست هناك إجابة واحدة عن هذا السؤال : إنه – أى المصروف – لابد أن يناسب دائمًا ميزانية الأسرة دون النظر إلى مستوى الجيران أو الأقارب أو الأصدقاء !

.. ويجب ألا نُدفع إلى دفع مصروف أكبر من قدراتنا مهما كان السبب

– وماذا لو احتج ، أو اعترض الصغير؟

– علينا أن نقول له : إننا نود لو أعطيناك أكثر ، لكن ميزانيتنا محدودة ! إن هذا أفضل بكثير من محاولة إقناعه بأنه ليس فى حاجة إلى مزيد من النقود !

إن النقود ، مثل السلطة ، ليس أيسر من سوء استغلالها بسبب قلة الخبرة ! ومصروف الطفل يجب ألا يكون أكبر من قدرة الطفل على التصرف فيه ، ولنبدأ بمصروف قليل متواضع يسهل عليه إنفاقه بدون أن يتشتت بين أشياء كثيرة ! النقود القليلة تجعله محصورًا فى أشياء محدودة محددة .. فلا يتيه بين ما يعرض عليه ! ونكرر أنه من واجبنا أن ندرك أن مصروف الجيب ليس منحة ، وليس مكافأة !

– ستحصلين ياعزيزتى على مبلغ كبير لو ساعدت ماما فى غسل الأطباق ، وأنت لو رويت أشجار الحديقة ياعزيزى لك مصروف أكبر !

إننا بمثل هذه الأمور نعد أطفالنا لأن يعملوا الخير . ويعاونوا ، ويمدوا أيديهم بعد ذلك يريدون أن يحصلوا على الثمن ! ويكون الرد : كم تدفعون؟

ومرفوض أن يرفع الصغير مثل هذا الشعار إزاء ما يطلب منه ! إننا نربيه على حب الوطن والأرض ، على حب الأهل والإنسان ! . وقد يسألنا مقابلا لمثل هذه الأمور الحياتية ، ونفزع إذا بدرت من الصغير عبارة فى موقف كهذا ! على أننا قد نجد فى مصروف الجيب فرصة تعليمية طريفة : إنه قد يعطينا مجالا

لتدريب الصغير على العد والحساب ، ومن أجل هذا من الأفضل أن نبدأ فى إعطاء الصغير مصروفه مع بداية التحاقه بالمدرسة ، ليتعلم عن طريقه المبادلة والطرح والجمع ! وقد يجد البعض فى مصروف الجيب وسيلة لتعليم الصغير القدرة على الادخار.

– إنفاقك يجب أن يكون أقل دائما من مصروفك !

وسيطرح الصغير سؤالا : والباقى ماذا أفعل به ؟

إن علاقة الناس بالنقود تبدأ منذ الصغر ، إننا قد نحولهم إلى مكتنزين . وإلى بخلاء إذا نحن رحنا نزرع فى نفوسهم حب « الدينار » كما أننا قد ندفع بهم إلى أن يكونوا مسرفين إذا لم ندربهم على الإنفاق كمسئولية ، وعلى الادخار كواجب ! هناك من يقول ، كفكاهة :

– تُصنع النقود الفضية مستديرة ، لتجرى وتختفى !

ومطلوب منا أن نعلم الطفل أن النقود وسيلة ، وليست غاية فى ذاتها وأن السبيل إلى جلب النقود هو العمل والعرق ، ويجب أن نربى الأبناء على أن النقود ليست كل شيء فى الحياة ! إن هناك الكثير لا تستطيع النقود أن تشتريه : هناك أشياء لا تباع ، ولا تقدر بمال : مثل الفضيلة والشرف والصدق ! وهناك أيضًا المسئولية وتحملها ، إننا لا نشترى « كمية » من المسئولية ، بل نتعلمها فى مثابرة خلال تعاملنا مع النقود والمال . ما من مسئولية أثقل من تدريب الصغار على معرفة الحجم الحقيقى « للنقود » فى حياتنا وقيمتها فى مواجهة قيم أروع كحب الوطن والعلم والإنسان .

اختيار الأصدقاء

أكبادنا : فى حاجة إلى « الصحبة » ؛ فمن غير الممكن أن يكتفوا بصحبتنا نحن الكبار، إنه من الضرورى أن يكون لهم أصدقاؤهم الذين يختارونهم بأنفسهم ، وتسعدهم صحبتهم ويجدون فيها إشباعًا وإمتاعًا لعواطفهم ؟ ونحن – نظريًا – نريد لأبنائنا أن ينتقوا وينتخبوا هؤلاء الأصدقاء ، لأننا نؤمن بالحرية ، ونرفض منطق فرض الأصحاب . والسؤال الذى يطرح نفسه :

– إلى أى حد نسمح للأطفال باختيار أصحابهم ؟

إننا غالبا ما نرتضى لهم أبناء أصدقائنا أو أقاربنا أو جيراننا أصحابا لهم ، فنتصور دائما أن أبناءنا أبرياء ، وملائكة أطهار ! على حين أن الآخرين شياطين ! ونفرض على الصغار أصدقاء بذاتهم وأصحابًا بعينهم عن طريق التضييق على من لانرغب فيهم ، وسؤال آخر :

– ما المقياس الذى نتخذه تقويمًا لقدرة أطفالنا على اختيار الأصحاب ؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال : نود أن نقدم مشهدًا من واحد من الأعمال الإنسانية التى قدمها الأدب العالمى عن العلاقة بين الآباء والأبناء : المشهد من رواية للكاتب تنسى وليمز ، وهو بين أب يحتضر وبجانبه ابنه :

قال الأب فى صوت وئيد ضعيف :

– أبى كان فقيرًا ، كنت بجانبه عمرى كله ، ولحظة بدأ يودع الدنيا نظر إلى وعلى وجهه ابتسامة فسرتها على أنها اعتذار ، لأنه لم يترك لى شيئًا ، لذلك جمعت لك الكثير ، الملايين ، وأتركها لك !

– من قال لك يا أبى إنى أريد الملايين ؟ إننى كنت أريدك أنت ، أريدك صاحبًا صديقا ، ثم لماذا فسرت ابتسامة أبيك على أنها اعتذار ! أبدًا إنها كانت ابتسامة سعادة ، لأنه قضى حياة طويلة معك ، ولم يبددها كما بددتها أنت فى جمع المال !

إن هذا المشهد لم يغب عن ذهنى قط ، وأنا أناقش علاقة الآباء بالأبناء ؛ فالصداقة بينهما ضرورة حياتية ، وأهم بكثير من أن يقضى الأب عمره بحثًا عن مال يتركه لابنه ! الابن قادر على أن يكسب المال ، لكنه ليس قادرا على أن يشترى أبًا أو صديقًا أو رفيقًا على درب الحياة ! ومنذ سن مبكرة يجب أن نشعر بصحبتنا له ، لا مانع من أن تضع الأم المشغولة طفلها معها فى الحجرة نفسها حتى لا يحرم الصحبة ، على ألا تبالغ فى الاهتمام به !

وهناك من يرون تدريب الصغار على العزلة لكى تنمو فيهم روح الاستقلال والمسئولية ، ولكن ثبت أن الذين تفرض عليهم العزلة يتأخرون عن زملائهم ، ويفقدون القدرة على الاستجابة السريعة ، ولابد من توازن بين العزلة والرفقة .

تقول أم :

– إنى أصبت بخيبة أمل كبيرة ، لأن ابنى يرفض أن يلعب مع من هم فى سنه ! عمره عام ! وإذا لعبوا أتم لعبهم واتصف بالوخز والدفع والشد !

ولهذه الأم ألا تقلق . هذه السن طابعها اللعب المفضل . والصحبة هنا ليست حيوية ولا هى بالضرورة ، وهى لا تمتع ولا تشبع إلا عندما يتجاوز الطفل هذه المرحلة . والطفل فى سنة المبكرة يفيد كثيرًا من صحبة أقرانه فى لعمر نفسه . وهو يرتبط بزملائه فى الحضانة بشكل أكبر مما يرتبط بمن يلاقيهم صادفة فى الحديقة . على أن الاختيار من جانب الصغير قد يحمل دلائل تامة :

– إذا اختار الطفل من هم أصغر منه سنًا ليصاحبهم ويلعب معهم فإنه يدلل بذلك على رغبته فى القيادة والسيطرة والزعامة ! وإذا اختار من هم أكبر منه فقد يكون ذلك إحساسًا من جانبه بالحاجة إلى الحماية والمساندة !

والصحبة يجب أن تعود على الأطفال بالفائدة ، والتأثير الطيب المتبادل ، إن الأطفال فى حاجة إلى فرص للاتصال بعضهم ببعض ، ليدركوا الاختلافات فى الشخصيات التى يلاقونها ؛ ومن أجل هذا فإن الأطفال المنطوين يجب أن يصاحبوا آخرين متفتحين اجتماعيين تعاونيين ! والأطفال الذين يشعرون بالوجل والخوف يجب أن يصادقوا آخرين شجعانًا جسورين أقوياء وهكذا .. إن التكامل هنا ضرورى ، إننا نسمع بعض الآباء والأمهات يشكون من أطفالهم ، ومن عدم قدرتهم على اللعب مع الآخرين :

– إنه نفور .. ذلك الولد .. لا صاحب له .. ولست أدرى السبب ؟

– لأنه لا يلاقى إلا من هم على شاكلته !

– هذا يجعله أكثر قدرة على التآلف معهم ؟

– بالعكس : إذا كان خجولا ، والتقى هو وخجول آخر فلا صداقة تربطهما !

– إنه مشاكس ، وإذا التقى هو ومشاكس آخر تشاجرا ؟ فما الحل ؟

– الحل أن يلتقى هو وطفل هادئ يتعلم منه ، وإذا حاول أن يشاكسه أو يعتدى عليه فإن من الضرورى أن يتعلم الهادئ رد العدوان .

وقد نتساءل هنا : ألسنا نفرض على الصغير صحبته بهذا الأسلوب ؟ أين الاختيار هنا ؟ وكيف نحمل الطفل مسئولية الاختيار هنا ونحن لا نعرض عليه من يختار من بينهم !

إن الفرصة هنا ضيقة ، ومع ذلك فهى كافية ، كافية للهدف منها ، ألا وهو التدريب على الاختيار والانتقاء ، ولا يقتصر الأمر على اختيار الصديق بل من الممكن أن يختار الطفل حيوانه الأليف الذى يربيه فى البيت !

- هل هو كلب أو قط ؟
- هل هو أسماك زينة فى حوض أو طيور فى قفص ؟

إن الصغير إذا اختار فعليه أن يتحمل مسئولية الاختيار ، والعناية بحيوانه أو طائره المفضل ، وهنا عليه أن يبدى حسن النية والاستعداد لا أكثر ولا أقل إنه قد يبدى الحاجة ، أو الرغبة أو الحب للحيوان أو الطائر ، ولكنه لا يجد فى نفسه القدرة على رعايته وتربيته وتغذيته ، إن هذه فوق طاقته وقدرته وحده ، وتحميله مسئولية حياة مثل هذا الكائن تتجاوز حدود إمكانياته ؛ لذلك يجب أن نعتبر وجود الحيوان الأليف أو الطائر فى البيت بمثابة عمل جديد وإضافى للأبوين ، إن الصغير يفيد كثيرًا من وجود حيوان أليف ليلعب معه ويحبه ، ويشارك فى الاهتمام به ، ولكن مسئوليته تقع على عاتق الكبار من أجل التفادى من التمزقات والإحساس بالذنب ، وهناك أشياء تصلح للصحبة أيضًا :

- هل تريد أن يكون صديقك : الكمان أو البيانو أو العود ؟
- أتفضل الكاميرا على ريشة الرسام ؟
- ما رأيك فى الشطرنج ؟

إن الألعاب واللعب من الممكن أن تكون صديقًا رائعًا للطفل بجانب الصديق البشرى ، ولكنها ليست بديلا ؛ فسوف يظل « الإنسان » أفضل وأهم صديق للطفل ، وسوف يظل الطفل محتاجًا لطفل آخر غير مكتف بإخوته وأبويه وأقاربه ، ولكن من الضرورى إبعاد الأطفال عن الذين يمارسون العنف ؛ فإن

هؤلاء قد يصبحون زعماء وأبطالا ، بل قدوة ، وذلك يحدث تأثيرا على الصغار ! من هذه السن يبدأ تكون العصابات والشلل ، وهى أمور نرفض أن نغرسها فى نفوس أكبادنا الذين نريد لهم مسئوليات إيجابية .

الاعتماد على النفس

أكبادنا : وهم يختارون أصدقاءهم – يتحملون ويتدربون على المسئولية .. وإذا كنا قد تركنا لهم مسئولية الاختيار ، فإن علينا مسئولية التيقن من أنهم أحسنوا الاختيار .. والأم أو الأب – الممتاز ، مثل المعلم الممتاز – هو الذى يجعل نفسه دائما « غير لازم » بالنسبة للطفل ، إنه يجد متعة فى العلاقات التى تثمر ، وتقود لأن يختار الأطفال بأنفسهم ، يقرروا وفق إراداتهم ومشيئتهم ! وفى حوارنا مع الأطفال يجب أن نؤكد ثقتنا فى أنهم قادرون على اتخاذ قراراتهم بأنفسهم .

* * *

والواقع أننا نكثر من استعمال كلمة : – لا ، لا ، لا .

ونحن نستخدمها ومرادفاتها مثل :

– ممنوع ، مرفوض ..

وقائمة الممنوعات طويلة تمتد على مدى اليوم كله ؛ فقد يفتح الصغير عينيه .. إنه يسأل :-

– هل ألبس هذا ؟

– لا ..

– هل يمكننى أن أرجئ تناول إفطارى ؟

– لا ..

– هل أستطيع أن أخرج إلى الحديقة أو السوق ؟

– لا ..

وكل ممنوع مرغوب ، ونحن نخلق للصغار تمزقات كثيرة لشدة خوفنا عليهم وقلقنا من أجلهم !

ويجدر بنا أن نقلل ما نستطيع من هذا القلق ، وأن نخفف من الخوف ؛ فإن أبناءنا كيانات حية من الممكن الاعتماد عليها ، وعلى قدرتها على التمييز ، ومن الأفضل دائمًا أن نتركهم ، ليجربوا بأنفسهم بدلا من أن نقتل فيهم روح المبادرة والمغامرة بتخويفهم وإثارة الرعب لديهم إزاء كل شىء يقومون عليه ! ولنكن على ثقة من أن تربيتهم لاتحتاج منا إلى كل هذه الأوامر والنواهى ! ليتنا معهم نفيد من كلمة !

– نعم .. نعم .. نعم .

نستخلصها مع مرادفاتها ، ومن الأفضل ألاّ نقولها هكذا مباشرة ، بل إن فى مقدورنا أن نعبر عنها بشكل يؤكد للطفل استقلاليته ، ولدينا عشرات العبارات التى تصلح لهذا مثل :

الأم : إذا كنت ترغب فى ذلك يا عزيزى ..

الأب : إذا كان ذلك رأيك فلا مانع مطلقًا ياعزيزتى .

الأم : إن لك أن تقرر ما تشاء .. هو موضوعك أنت !

الأب : أنت وشأنك ، فأنت صاحب الأمر ..

الأم : إننى أقبل ما تشاء أنت .

كل هذه العبارات تفسح المجال أمام الصغير لكى يفكر ويقرر ، وينفذ ! وهذا تدريب رائع له على أن يتصرف ، ويتحمل مسئولية تصرفه ؛ إن كلمة نعم ، أو موافق قد تعنى أن الأمر منحة منا ، والذى نراه أن ذلك حقه الطبيعى فى الحياة ، كمواطن منح عقلا لابد أن يفكر به ، ومنح قدرًا من القدرة على التمييز يجب أن يتصرف على ضوئه ! والسؤال الذى يواجهنا هنا :

– ما السبيل إلى تحقيق هذا مع تجنب تدليل الصغير؟ إنه يبكى لتحقق رغبته ، وإذا استجبنا لكل ما يطلب يتوقع الشىء نفسه عندما يكبر ! ويصاب بخيبة أمل إذا لم يتحقق هذا !

وهم يجدون صعوبة فى التكيف مع الناس والحياة ، وحرمانهم من شىء يشعرهم بالاخفاق ، الأمر الذى قد يدفع بهم للعدوان .

وقد يريد الآباء أن يدللوا أبناءهم كما دُللوا هم ، وقد يريدون تجنبهم المعاملة الصارمة التى عوملوا بها ؛ لذلك يسرفون فى التدليل ، الأمر الذى يجعل الأطفال يشبون غير مسئولين ! وربما يولع الآباء بأبنائهم فلا يرفضون لهم طلبًا ، ويستسلمون لرغباتهم !

وعند الطرف الآخر نجد آباء يدربون أبناءهم على الطاعة العمياء بكل عنف وحزم ، وإذا كان الطفل قوى العزيمة يصبح متمردًا ، وإذا كان ضعيفًا يتعلم الإذعان إلى درجة أن يسلب كل شىء ! وربما استطاع أن ينفس عن نفسه بقضم أظفاره أو بعادة أخرى سيئة .

والتوازن بين الحزم والحب مطلوب من الآباء ، والتردد فى اتخاذ القرارات تجاههم والتذبذب – يحدث اهتزازات نفسية بعيدة المدى ، ويثور النقاش ! الأم تقول :

– إنك تدلله يومًا ، وتعنف معه يومًا !

– هذه هى التربية !

– لا ، لا ، يجب أن تثبت فى معاملتك له عند موقف محدد !

– كيف السبيل لهذا وهو يحسن ويسيء؟ إذا أحسن شجعته ، وإذا أساء عنفته !

– أنت تسامحه وتخفف عنه إذا كسر طبقًا ، وفى مرة أخرى للسبب نفسه تعاقبه !

– حقًّا ؟ لم أتنبه إلى هذا من قبل ! ليتك استرعيت نظرى إلى هذا الموقف ..

– هو يتكرر منك ، ولكم أود ألاّ يحدث !

ونحن أيضًا لا نريد أن يحدث ! فلا تردد ولا تذبذب ! الموقف الواحد له رد فعل واحد ، وليس معنى هذا أن نعنف على طول الخط ، أو نتساهل باستمرار ، فالأب على صواب حيث يقول : إن الطفل يحسن ويسيء ، فإذا أحسن شجعناه ، وإذا أساء فلا بد من النصح والإرشاد والحزم ، مع ترك مساحة حرة يتحرك فيها الصغير للتدرب على تحمل المسئولية ، إننا لن نحمل عنه عبء كل شيء ، ولن نعيش له العمر كله ، ولا رغبة لنا فى أن يشب شجرة لبلاب ! تسأل الأم :

– ماذا تعنى بأن يشب الطفل شجرة لبلاب ؟

– معناه أنه يشب نابتًا متسلقًا يعتمد على غيره !

– إنه مازال طفلا ، يجب أن يعتمد على غيره !

إنه مازال طفلا .. لو لم نتركه يتدرب على السير يقع ويقف – ما استطاع أن يصلب طوله ، ويسير وحده ، الاعتماد على النفس ضرورة !

والأمر ليس موضع جدل : هل يعتمد الطفل علينا أو على نفسه ؟ إن توازنًا مطلوبًا بين هذه وتلك : فبقدر ما يقل اعتماده علينا رويدًا يزيد اعتماده على نفسه وفق سنى عمره ، وبحسب نموه إلى أن يستقل بالكامل . ونحن فى شرقنا العربى نؤجل طويلا استقلال الأبناء تحت شعار الترابط الأسرى ، الأمر الذى يؤجل نضجهم الكامل !

الأب يرفض أن يستقل الابن ببيته ، أحيانًا حتى بعد أن يتزوج الابن ! وهذا يثير مشاكل عدة !

أيضا لا نقبل أن يستقل الفتى والفتاة – كما يحدث فى أوربا – فور وصولها سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة .. ويشكو الأب :

– هذا الولد كأنه يعيش فى جزيرة منعزلة ! كأنه روبنسون كروزو أو حى ابن يقظان ! الحياة تعاون ، يجب أن يدرك هذا .

إن الأب يشكو انطواء ابنه ، وقد تشكو الأم من الشىء نفسه ، وقد تشكو لسبب آخر شكوى عكسية ، تقول :

– هذه الفتاة فردية النزعة شديدة التشبث برأيها ، تريد أن تقوم بكل العمل وحدها ، وتريدنا أن نرجع إليها فى كل صغيرة وكبيرة !

وهذه فتاة بلغ بها اعتدادها بنفسها حدا مرضيا : فهى تريد أن تكون محور الكون ومركز الوجود كله ! وتضخمت لديها الرغبة فى الاعتماد على النفس إلى درجة جعلت منها إنسانًا مغرورة تظن نفسها قادرة على كل شىء ! إن لعبة التوازن بين الاعتماد على الآخرين والاعتماد على النفس هى أخطر ألعاب الحياة ، إنها كالسير على الحبال فى السيرك ، يجب أن نكون يقظين كل اليقظة لكل خطوة !

النظام والانضباط

أكبادنا : فى حاجة ماسة للنظام ، ولا حاجة بنا إلى توضيح معنى النظام والانضباط ، ولا للكشف عن الحرية المسموح بها للأبناء ، والحدود التى يجب أن يقفوا عندها بها وإن كانت قد تتردد ما بين التزمت الشديد الذى نتوارثه عن الجدود ، وما بين الحرية المطلقة التى ينادى بها البعض ! ذلك أمر قد تختلف فيه وجهات النظر .

ولكن سؤالا ملحًّا يطرح نفسه فى البداية ذلك هو :

– ما الفارق بين تناول جدودنا وتناولنا لقضية النظام والانضباط عند الأطفال ؟

إن الجدود – ولا شك – كانوا ينطلقون فى كل ما يفعلونه من نقطة واحدة ، هى : السلطة ! أما نحن فإننا فى كل تصرفاتنا نتردد ، ونتذبذب ! وإننا لنجد الجدود حتى حين الخطأ يتحركون فى ثقة بالنفس ، أما نحن فحتى فى الأمور السليمة نتحرك فى « شك » ! والسؤال :

– ما السر فى ترددنا هذا فى علاقتنا مع أبنائنا ؟ ومن أين ينبع هذا التردد ؟

لا شك أننا جميعا سمعنا عن (فرويد) ، والتحليل النفسى ، والآثار السيئة الناجمة عن الطفولة الشقية وغير السعيدة ؛ كما أننا نخاف أن نفسد على أبنائنا حياتهم المقبلة ، بل إننا نكرر ونردد كلمة باتت على ألسنتنا كأنما هى كلمة تحية أو شكر تلك هى :

— العقد النفسية !

والرسالة التالية التى تلقيناها من إحدى الأمهات قد تخدمنا فى توضيح هذا الموقف ، تقول هذه الأم :

— إنه من الصعب على أن أعبر عن نفسى – كلامًا – فيما يختص بالأمور التى تؤثر فى تأثيرًا عميقًا ! قد أستطيع أن أنجح فى ذلك إذا كتبت ، وإذا أنا لم أستطع أن أقول شيئًا ما فلا شك فيه أنكم ستعرفونه من بين السطور ! لقد شهدت الكثير من الندوات التى تتحدث عن الآباء والأبناء ، وكلها تقول : إن الآباء لا يتعمدون أبدًا إيذاء أبنائهم عاطفيًا أو نفسيًا إلا أن الأمر يحدث نتيجة ظروف خارجة عن الإرادة ! إننى أبكى أحيانًا نتيجة تصرفات أقوم بها أو كلمات أقولها بلا تفكير . وأتمنى دائما لو أننى لا أكررها ! إنها فعلا قد لا تتكرر . لكن شيئًا آخر يحدث لا يقل سوءًا عن ذلك الذى بكيت من أجله ! وأبكى من جديد تمزقًا ، لأنى أتصور أنى ربما أكون قد تسببت فى ضرر لطفلى يلازمه عمره كله !

إن أحدًا لا يستطيع أبدًا أن ينكر على هذه الأم إخلاصها العميق لأبنائها وإيثارها لهم على كل شىء فى الوجود ، ولكنها قد تكون أكثر قدرة على مساعدة هؤلاء الأبناء لو أنها كانت أقل إحساسًا بالذنب ، وأكثر إحساسًا بقدرتها على الحركة والتصرف ، ولنضرب مثلا يوضح الأمر :

إننا لن نشعر بالطمأنينة والامان مع طبيب يبكى عند رؤيته ذراعًا مكسورة ، أو يغمى عليه عندما يبصر الدم نازفًا من مصاب ! إننا نتوقع من الطبيب أن يواجه الأمر ببعض الحنان والشفقة والمواساة وبقدر كبير من « الاحتراف » وليس بالانفعال الذى يقوده للبكاء أو الانهيار ! وهكذا الآباء

يجب أن يتعلموا كيف يتصرفون مع أبنائهم الناشئين بطريقة فيها « احتراف » و« خبرة » و« مقدرة » إننا إذا استطعنا أن نعاملهم دون انفعالات صاخبة وعواطف زائدة على الحد نجحنا فى حل كثير من مشاكل الانضباط ، أما إذا عاملناهم فى هستيريا فإننا سوف نخلق مشاكل خطيرة يعانى منها الآباء والأبناء لسنوات طويلة قادمة ، لذلك لابد أن نضع بضع قضايا أمام الآباء والأمهات :

– إن الآباء يجب أن يحبوا أطفالهم ، لكنهم – أى الآباء أو الأمهات – يجب ألا يكونوا فى حاجة إلى أن يحبهم أبناؤهم فى كل لحظة من لحظات يومهم ، وإن هؤلاء الذين يريدون أبناءهم أن يكونوا مبررًا لزواجهم أو امتدادًا لوجودهم – يخطئون ! إنهم جاءوا لذاتهم ، ليعيشوا !

– وإذا خاف الآباء أن يفقدوا حب أبنائهم فلا يرفضون لهم طلبًا بما فى ذلك مايمكن أن يخل بسيطرتهم على البيت والأسرة – فإنه نتيجة ذلك أن يسىء الأبناء استغلال جوع آبائهم لحبهم ، وسوف يصبح الأطفال مجموعة من الإرهابيين يتحكمون فى خدم وعبيد ، قلقين ، مضطربين ، كل ما يسعون إليه إرضاء سادتهم !

ومن هنا يأتى سؤال فى منتهى الأهمية أرجأنا طرحه فى البداية ، وحان الآن بعد هذه المقدمة – التى طالت بعض الشىء – هذا السؤال هو :

– ما المسموح به ؟ وماذا يخرج عن حدود المسموح به فى هذا المجال ؟ إن حجر الزاوية فى التناول الجديد للنظام والانضباط يكمن فى التفرقة ما بين الرغبات والتصرفات ، إننا نضع حدودًا وقيودًا للتصرفات والأفعال ، لكن يجب أن ندع المجال واسعًا فسيحًا أمام الرغبات والآمال ! وأغلب مشاكل

الانضباط تأتى من مصدرين أو تتكون من شقين :

الأول : مشاعر غاضبة .

الآخر : تصرفات غاضبة .

وكل جانب من الجانبين يجب تناوله بشكل مختلف ! المشاعر لابد أن توضح ويعبر عنها ، أما التصرفات والأفعال فلابد من تحديدها وتوجيهها ، بل أحياناً يكون تعبير الطفل عن الرغبات كافيًا لتنقية الجو ، إن حواراً من هذا اللون قد يدور ، حين تتوجه الأم إلى طفلها بقولها :

– يبدو أنك غاضب اليوم !

– نعم ، هذا صحيح .

– هل تحس بضيق شديد من شيء ما ؟

– فعلا .

– يبدوأنك غاضب من شخص معين ؟

– نعم .. منك أنت يا أمى ..!

– لماذا لا تحدثنى عن سر غضبك ؟

– إنك لا تأخذيننى إلى نزهة بالخارج ، وقد صحبت أختى !

– هل هذا أغضبك ؟ ربما قلت فى نفسك : « أمى تحب شقيقتى أكثر مما تحبنى » ؟

– بالطبع قلت لنفسى : هذا !

– هل تشعر بهذا كثيرًا ؟

– بكل تأكيد !

– من فضلك ! عندما تحس بهذا أرجو أن تأتى لتخبرنى به ، هل تعدنى ؟

- أعدك يا أمى .

إننا بذلك ننفس عن المشاعر الغاضبة لدى الطفل ، ومن المهم أن تهدأ ... مشاعرنا الصاخبة تجاهه .

إن تقبل « الطفولة » من الأطفال أمر غاية فى الأهمية . وذلك يعنى أن قميصًا أبيض لطيفا يلبسه طفل هادئ لن يظل « أبيض نظيفًا » لمدة طويلة ! وإن طفلا يجرى بدلا من أن يمشى أمر مألوف من الطفل الطبيعى ، وإن الشجرة زرعت لكى يتسلقها ، والمرآة وجدت من أجل أن يتطلع إليها ويخرج لسانه وهكذا .

إن تقبل الطفولة يعنى إدراكًا عميقًا بحقوق الأطفال فى أن تكون لهم مشاعرهم ورغباتهم ، وأن تكون لهم حريتهم المطلقة وغير المحدودة ، كل المشاعر ، والتصورات ، كل الأفكار والرغبات ، كل الأحلام والتمنيات بغض النظر عن المحتوى - يجب أن تقبل وتحترم ، ويجب أن يكون مسموحًا بالتعبير عنها بوسائل رمزية مقبولة . إن التخريب مرفوض وغير مسموح به ! وإذا ما حدث فعلى الآباء أن يعيدوا توجيهه لكى يمارس فى متنفسات أخرى وقنوات مختلفة ، والأمثلة على ذلك كثيرة : إنها قد تكون فى رسم صور كاريكاتيرية انتقادية ، إلقاء زهر الطاولة ، نشر الخشب ، تسجيل رغبات سخيفة على شريط تسجيل ، تأليف أشعار ضاحكة ساذجة ، كتابة رواية بوليسية .. إلخ أما التساهل الزائد على الحد فسوف يقودنا إلى الموافقة على أمور تخرج على الحدود المقبولة ، أما التسامح المقنن - أى الذى يدخل فى نطاق القانون - فإنه يجعل لصغير يثق فى نفسه ، والكبير يؤمن بقوته وشخصيته ، كما يؤكد قدرة الطفل على التعبير عن نفسه وعن أفكاره وعن مشاعره !

أما التجاوز والتساهل فلابد أن ينجم عنهما القلق والتوتر والمطالبة المتزايدة .
لحقوق جديدة يصعب منحها ، بل يصعب منعها أيضًا . .

الأطفال والطاعة

أكبادنا : فى حاجة إلى الانضباط والطاعة والنظام ، وسبق أن قلنا : إن مشاكلنا معهم فى هذا المجال تأتى من مصدرين أو تتكون من شقين : الأول : المشاعر الغاضبة .. والآخر : التصرفات الغاضبة .

والمشاعر يمكن التنفيس عنها بالتعبير والكلمات ، لكن حدودًا يجب أن توضع للتصرفات وما أكثر تلك الخواطر الغريبة التى تثيرنا من أبنائنا !

* * *

إن طفلا فى السادسة من عمره قد يقول :

– أريد أن أكسر هذه الساعة لأعرف ماذا بداخلها ؟ ولأعرف كيف تسير عقاربها ؟

إن الأم هنا قد تغضب وتثور ، وهذا خطأ ، إنها يجب أن تتقبل حب الاستطلاع عند ابنها ، بل يجب أن تسعد بهذا الاتجاه العلمى المبكر نحو المعرفة فى اللحظة التى لابد أن تجد سبيلا لكى تحول بين ابنها وبين هذا التصرف المخرب ، فى حسم كأن تقول له :

– إننى أعرف مدى شغفك وتطلعك إلى معرفة ما فى داخل الساعة ، ولكنها لكى تظل تعمل لابد أن تبقى « مغلقة » كما هى ! تعال بنا نفتش ونبحث عن رسم أو صورة للعدد والآلات التى داخل الساعة ، لنرى كيف هى ؟

ولتعرف كيف تعمل ؟ .

ولنا أن نتصور أمًّا واجهت ابنًا بالغضب لتطلعه إلى فتح الساعة أو كسرها ، إنها ولاشك ستزيده إصرارًا على ذلك ، ولسوف يتحين أول فرصة يغيب عن بصر أمه لكى يحطم الساعة ! أما إذا جاوبته بهدوء فسيلتقيان ! لقد وجدت إحدى الأمهات ابنها يرسم « ويشخبط » على حائط الغرفة ، وكان أول رد فعل لهذا هو الغضب الشديد الذى ظهر على ملامحها إلى درجة أخافت الصغير وأرعبته ، وقد تمتد يدها له بالضرب ، ولكننا نتساءل عن التأثير الذى يحدث لو أنها قالت له :

— لا ، يا حبيبى ، ما كان يجب أن ترسم على الحائط ! إنه منظر لا يجعلنا نبتهج ، خذ هذه كراسة رسم ، أو بعض الأوراق لترسم بها (لوحات) نعلقها على الحائط ، أليس ذلك أفضل ؟

وتبدأ الأم فى اللحظة نفسها فى تنظيف الحائط ، وقد ينفعل الصغير ، نقول ، « قد » وربما عبر الطفل عن انفعاله هذا ، بعبارة صغيرة ، كأن يهمس :

— ماما ، أنا أحبك يا ماما .

ونستطيع أن نلتقط صورة أخرى من منزل آخر وقع فيه الشىء نفسه من الطفل : لقد رسم وخطط الجدران بالألوان ، فشوه شكلها ، فما كان من الأم إلا أن صرخت .

— ما هذا الذى فعلته يا أحمق ؟ ماذا أصابك ؟ هل فقدت عقلك ؟ ألا تستطيع أن تفهم أن هذا الذى صنعته بالجدران قد أفسدها ؟ إنك طفل مزعج فاسد ! لست أدرى ماذا أفعل بك ؟ ولا كيف أتصرف معك ؟ انتظر ! عندما

يعود أبوك للبيت سأخبره ، لكى يكسر يديك اللتين رسمت بهما هذه الرسوم السخيفة !

مما لا شك فيه أن فارقًا كبيرًا بين ما حدث فى البيتين : إنه فارق ضخم كالفارق بين النظرة الجديدة لموضوع الانضباط ، والنظرة القديمة ! لقد كان الآباء فى الماضى يحاولون أن يوقفوا بكل عنف التصرفات غير المقبولة الصادرة عن أطفالهم دون أن يبحثوا دوافعهم إليها ، كانت القرارات والحدود توضع من خلال لحظات الغضب وفى أثناء الحوار الصاخب ، وكانت دومًا مملوءة بالعنف والشتائم ، بل بالضرب ! وكانت الكلمات والأوامر تلقى فى وقت لا يمكن فيه الطفل أن يسمع ويصغى ، وإذا سمعها فهو لا يستجيب ، لأنها تعطى فى لحظات تحدٍّ ومقاومة من جانبه ! وكان الطفل يُترك ولديه الشعور الحاد بأن عمله وتصرفه ليسا فقط موضع النقد ، بل إن شخصه أيضا وخلقه وإنسانيته موضع شك ! إنه ردىء سيئ .

والنظرة الجديدة لموضوع الطاعة ، والانضباط - تساعد الطفل وتعاونه فى مجالى الشعور ، والخلق !

إن الآباء يجب أن يسمحوا لأطفالهم - تحت شروط سنناقشها فيما بعد - بأن يعبروا عن مشاعرهم فى حين يجب أن يحددوا ويرشدوا ويوجهوا تصرفاتهم ، وبالذات غير المقبول منها ، ويجب أن تكون هذه الحدود موضوعة بشكل يحفظ للآباء هيبتهم وللأبناء احترامهم ! إنها ليست حدودًا حادة وقاسية ، بل هى حدود تربوية وتعليمية وتستهدف بناء الشخصية ، وتطبق بدون عنف أو غضب .

إن تفهما لموقف الطفل لابد أن يكون فى الاعتبار ، ويجب أن يكون فى

الحسبان أن الطفل يجب ألا يعاقب - مرتين - من أجل رغبته فى ممارسة الممنوع فكل ممنوع مرغوب - ويكفى أن يمنع عنه .. ولا يضاف عقاب آخر فوق الحرمان ؛ فقد يزيده ذلك تشبثًا بالممنوع .

إن الانضباط والنظام إذا استخدما على هذه الصورة فإن ذلك يقودنا إلى تقبل اختيارى من جانب الطفل لأوامرنا وتعليماتنا ، وقد تتغير تصرفاته وأفعاله : أى أن محاولة الآباء فرض الانضباط قد تستبدل به محاولة من جانب الأبناء للانضباط والالتزام بدوافع داخلية ؛ إذ تتكون لدى الصغار بعض القيم التى يوضحها ويصنعها الآباء ، وإذا بها تصبح من تطلعات الأبناء : إن هؤلاء الصغار يرتاحون أكثر حين يعرفون الحدود المسموح بها للحركة والتصرف حتى إننا نستطيع أن نقول : إن تصرفات الأطفال تقع داخل مناطق ثلاث : كإشارات مرور خضراء وصفراء وحمراء :

- **المنطقة الخضراء** : هى التى تضم التصرفات المقبولة والمسموح بها والمرغوب فيها ، وهى منطقة نقول دائمًا فيها : نعم ، نقولها بارتياح .

- **المنطقة الصفراء** : هى منطقة تضم سلوكًا ليس ممنوعًا ، لكنه قد لا يكون موضع قبول من جانبنا لأسباب عدة منها :

- **أولا** : إن السائق الذى توضع على سيارته كلمة (تعليم) لا يعاقب ، لأنه أخطأ فى إعطاء الإشارة تجاه اليمين ، ومضى هو إلى اليسار .. مثل هذه الأخطاء التى تقع من الذين يتعلمون من الممكن ، بل من المؤكد أنها مستقبلا سيتم تلافيها .

ثانياً : إنه فى حالات خاصة ، وفى مواقف بعينها : كالمرض ، والحوادث ، والانتقال إلى بيت جديد ، والانفصال عن الأصدقاء وحدوث طلاق أو وفاة

فى الأسرة – تحتاج هذه الحالات والمواقف إلى بعض التجاوزات لعبور الظروف القاسية وللمواءمة مع الجديد ، إننا قد نتقبل التجاوز فى مثل هذه المواقف لأنها استثنائية .

– **أما المنطقة الثالثة** – وهى الحمراء فهى محرمة ، ممنوعة ، مرفوضة ، ولابد أن نقف فورًا عندها ، وهى تشمل السلوك والتصرف الذى يضر الصحة ويضر مصلحة الأسرة اجتماعيًا ، واقتصاديًا ، ونفسيًّا ، وهى تضم أيضًا تلك الأمور التى يمنعها القانون ، والقيم الأخلاقية ، والعرف الاجتماعى .

ومن الضرورى أن نكون حاسمين بالنسبة للمنطقة الحمراء المحرمة بقدر ما نكون متسامحين بالنسبة للمنطقة الخضراء . وعندما يسمح للطفل بتصرف يعلم جيدًا أنه يجب منعه من ممارسته فإنه يعتبر ذلك حقًّا مكتسبًا لا يمكن الرجوع فيه ، قال طفل لأمه :

– إنك لا تحبيننى !

– لماذا يا حبيبى ؟

– لأنك أصبحت تمنعيننى من التعلق بالسيارة من الخلف حين تمضى ببطء أمام البيت !

لقد سمحت الأم لطفلها بهذا الشىء ، وضاق حين منعته منه ! وأخرى كانت توافق عليه وإذا بها تواجه من ابنها يومًا يقول :

– إنك لاتحبيننى .

– لماذا يا عزيزى ؟

– سمحت لى بالتعلق بالسيارات من الخلف فى أثناء سيرها

– لأنك كنت تستمتع بذلك !

– إن هذا كان يعرضنى للموت ، لو أنك أحببتنى لمنعتنى من تعريض نفسى للخطر !

وهذا الشىء ينطبق على الكثير من الأمور : طفل يعتقد أن أباه أخطأ لأنه سمح له بالاحتفاظ بخنجر ! طفل آخر ما عاد يحترم أبويه ، لأنهما لم يوقفا عبث أصدقائه بلعبه التى كسروها ! إن الأطفال الصغار لديهم عبقرية خاصة فى إدراك الممنوع ، ويجب أن يساعدهم الآباء على السيطرة على النوازع والرغبات التى تنتابهم . إن الآباء بوضعهم للحدود يساعدون الأطفال لا على وقف تصرفاتهم الخطرة فحسب ، بل إنها تعنى رسالة سرية تقول :

– لا تخف من ميولك ورغباتك ودوافعك ، إننى لن أدعك تذهب بعيدا إلى درجة الإضرار بنفسك ، إننى أقف لأحميك حتى من نفسك !

اطمئن أيها الحبيب !

القرارات الحاسمة

أكبادنا : فى حاجة إلى حدود يلتزمونها من أجل التدرب على الانضباط والنظام .. وخلال وضع هذه الحدود – كما فى كل العمليات التعليمية – تتوقف النتائج على المقدمات ..

* * *

إن الحدود توضع من أجل أن نقول للطفل فى وضوح كامل :

– إن سلوكًا بعينه وتصرفًا بذاته غير مقبول .

– وإن هناك سلوكًا آخر ، وتصرفًا ثانيًا ، بديلا ومسموحًا به ؟

والأمثلة على ذلك كثيرة ، وإن كانت المقدمة غامضة بعض الشيء . إننا نستطيع أن نقول للطفل :

– إن إلقاء الأطباق والأكواب غير مسموح به .

– إن إلقاء الكرة ممكن .

وبأسلوب آخر : الأكواب والأطباق لم توجد لتلقى ، والكرة وجدت لكي ترمى ، ومن أجل اللعب . أما أن نُحرِّمَ إلقاء الأشياء على الإطلاق فأمر غير سليم ، لأن هناك فعلا ما وجد من أجل هذا إن هذا هو استخدامه الطبيعي . غير أن هذا يجب ألا يجعلنا نعطى تعليمات جزئية . أو متذبذبة : بمعنى أنه يجب أن يكون هناك تمييز بين رش الورد بالماء . ورش الشقيقة به ! وهناك أمر يجب أن يكون حاسمًا . إذ ليس مقبولا أن نقول للطفل :

– إن فى استطاعتك أن ترش شقيقتك بالماء بشرط ألا تبتل كل ثيابها .

هذا أمر غير جائز ، لأننا نترك للصغير تقدير « درجة » أو « حد » استخدام الماء فى العبث مع شقيقته ، وهكذا ندخل فى أمور تقديرية يمكن الاختلاف عليها ، ونجعل الصغير فى هذا الموقف لا يحدد الصواب من الخطأ ، إن القرار يجب أن يكون حاسمًا والرسالة يجب أن تكون واضحة .

– هذا التصرف ممنوع . يجب أن يقف .

وعندما تكون الأم غير قادرة على تبين ما يجب عليها أن تفعله – فعليها أن تهدأ أو تسكن . وتفكر إلى أن تصل إلى قرار واضح . وفى قضية وضع الحدود بين ما يجب وما لا يجب يضيع المتردد المذبذب فى مناقشات طويلة لا طائل منها . ووضع القرارات والأوامر بشكل دائم ومستمر وحاد يخلق لدى الأطفال حالة من التحدى ، وينتج عنها معارك مستمرة بين إرادات متصارعة وليست

متعاونة ، وهى معارك بلا انتظار ، ولا يمكن أبدًا أن تحسم لمصلحة طرف من الطرفين ؟ إن الحدود يجب أن توضع لتقلل من الشد والجذب ، ولتؤكد سلطة الآباء بلا توبيخ أو شتائم للأبناء ، ومحاولة حل المشاكل بضربة واحدة تلقى مقاومة حادة ولدينا صورة لممارسة غير مرغوب فيها فى هذا المجال : كانت الصغيرة ابنة السنين الثمانى فى متجر كبير مع أمها ، سألتها الأبنة :

— لقد اخترت ثلاث لعب ، هل تشترينها لى يا أمى ؟

— لعب ؟ إن عندك منها الكثير ، إنك دائما تريدين أن تشترى كل ما يقع عليه بصرك ! حان الوقت لكى تفهمى أنه لايمكن تحقيق كل ماترغبين فيه ، إنك لم تعودى صغيرة !

وبعد لحظات أدركت الأم أنها كانت عنيفة جدًّا مع الابنة لسبب خارج عن الإرادة ، وهو أنها قد اشترت بكل ما معها من نقود احتياجاتها من المتجر ، وأحست بالحرج إزاء طلب الابنة فانفجرت فيها بهذه الكلمات ، وحاولت الأم أن تصلح الموقف ، وتصالح الطفلة ، وترشوها ببعض الحلوى التى تحبها ، وإذا بالصغيرة وقد اكفهر وجهها ترفض الرشوة ! والواقع أنه كان يجدر بالأم أن تستبدل بهذه العبارات الغاضبة شيئًا يرضى الصغيرة ويخفف عنها الرفض مثلا :

— إنك ترغبين — فيما يبدو — فى نقل كل ما فى المتجر من لعب إلى البيت ، لكن . آسفة .. لم يتبق اليوم معى من النقود ما يكفى شراء لعبة جديدة ، لكننى سأعطيك قطعة نقود لشراء بالون أو حلوى اختارى : هل تشترين البالون أو الحلوى ؟

وقد تختار الصغيرة الحلوى التى رفضتها فى المرة الأولى ، لأننا نقلنا القضية إلى اختيار بين شيئين وحولنا نظرها عن موضوع اللعب بذكاء .. وقد تبكى

الصغيرة من أجل إجبار الأم على شراء اللعبة ، وهنا يستوجب الأمر الرفض من جانب الأم ، وهناك أربع طرق لكى تحدد المواقف بلا استثارة للأطفال ، وهى تمضى كالتالى :

إن الأب يدرك رغبة الصغير فى الشيء ، لذلك يعززها بقوله :

– إننى أعرف جيدًا أنك تريد أن تذهب إلى السينما .

ويعود الأب فيوضح بهدوء وفى عبارة رقيقة الحدود التى يلتزمون بها فى البيت :

– ولكنك تعرف يا عزيزى أن القاعدة عندنا أنه « لاسينما فى أيام المدرسة » !

ويرجع الأب ليشير إلى الوسيلة أو الوسائل التى يمكن تحقيق رغبة الصغير عن طريقها :

– إنك تستطيع بلا شك الذهاب إلى السينما يوم الخميس أو يوم الجمعة .

ويعاون الأب الابن على أن يهدأ ولا يناقش تلك المناقشات التى تثور عند إلقاء الأوامر فيقول :

– يبدو أنك لاترضى عن هذه القاعدة وعن هذا المبدأ ، وربما عندما تكبر ويصبح لك بيت تستطيع أن تغير هذه القاعدة وتلغى هذا المبدأ !

وليس من الضرورى بالطبع أن يكون هذا هو الأسلوب المتكرر فى مثل هذه الظروف ، أحيانًا نضع الحدود ونعبر عن المشاعر ، فمثلا عندما نجد الصغير يهدد بقذف حجر على شقيقه ، ساعتها تستطيع الأم بسرعة أن تغير من الموقف قائلة :

– لا ، لا تقذف به شقيقك ، بل ألق به تجاه الشجرة .

ومن الأفضل أن تسترعى نظره وتشير بيدها إلى الشجرة ، وبعدها تبدأ الأم

فى تفريغ مشاعر الصغير بكلمات أخرى مثل :

– الإنسان له أن يغضب من شقيقه ما شاء له الغضب ، بل قد يضيق به إلى درجة الكراهية ! لاضرر فى هذا مؤقتًا ، ويمكنه ساعتئذ إلقاء الحجر على الشجرة كأنها هى شقيقه ! إنه يستطيع أن يرسمه على الورق فى صورة مضحكة ، ويلصق الصورة على الشجرة ويقذفها بالحجر ! لأن ذلك لن يسيل دمها !

إن اللهجة التى تقال بها مثل هذه العبارات يجب ألا يكون فيها أى تحد لمشاعر الصغير الذى يكاد ينفجر بها ، ولا أى تحد لاحترامه لذاته ونفسه ، ومن الأفضل ألاّ نضع الحدود عن طريق ضمير المخاطب ، بل من الأفضل أن تستخدم عبارات مبنية للمجهول ، مثل عبارة تقول :

– « لاسينما » فى أيام المدرسة .

هذه العبارة تثير ضيقًا أقل ، وتوترًا أبسط من عبارة :

– إنك تعرف أنه من المستحيل أن تذهب للسينما فى أيام المدرسة ، ممنوع ؟ وعبارة ثانية تقول :

– حان وقت النوم .. تصبح على خير !

خير من عبارة تقول .

– أنت أصغر من أن تسهر كل هذا ، قم إلى سريرك !

وعبارة ثالثة مثل :

– كفى شجارًا وصراخًا .

أفضل من عبارة تقول :

– من الأفضل أن تكفّ عن الشجار والصراخ !

إن الحدود تصبح مقبولة أكثر حين نشير بوضوح إلى مهمة الشيء موضوع الحديث .

– هذا المقعد للجلوس عليه .

ذلك أحسن بكثير من :

– لا تقف على المقعد .

وأيضا ، نجد أنه من الأحسن القول :

– هذه المكعبات لتلعب بها وتبنى البيوت .. وذلك بدلا من

– لا تلق بهذه المكعبات ، لا أسمح لك بهذا ، إنه خطر جدًّا .

واضح أن تغيير كلمة بكلمة يحدث الكثير ، واختيارنا للكلمات فى تعليم الطفل الانضباط والنظام يعنى أننا منضبطون ، ويعنى أننا قدوة ..

نشاط الأطفال

أكبادنا : يحتاجون إلى الانضباط ، والتدرب على التزام النظام .. وأكثر مشاكل الانضباط التى تواجهنا مع الأطفال ناتجة عن الرغبة فى وضع بعض القيود والحدود لنشاطهم الجسمانى .

* * *

لذلك نسمع على مدى ساعات اليوم أمهات وآباء يهتفون :

- لاتجر ، ألا تستطيع أن تمشى مثل بقية عباد الله ؟
- كف عن هذا القفز ، اجلس هادئًا مثل الآدميين !
- لماذا تقف أو تقفز على قدم واحدة مع أن الله خلق لك قدمين ؟
- هل جعل لك قدمين ، ولم يجعل لك « مخًا » تفكر به ؟
- سوف تسقط ، ويدق عنقك إذا لم تكف عن هذا الذى تفعله !

والواقع أن نشاطات الأطفال يجب ألا تقيد بشكل مطلق ؛ لأن هذا النشاط ضرورى من أجل النمو الجسمانى والعقلى للطفل ، إنهم فى حاجة إلى الجرى والقفز والتسلق وغير ذلك ، وقلقنا على (أثاث) البيوت يجب ألا يتجاوز اهتمامنا بصحة الأطفال ، فإن كبت نشاط الطفل ينتج عنه توتر عاطفى يعبر عنه الصغير أحيانًا بالعدوان والتصرف العشوائى ! ومن الضرورى أن توجد للصغير مجالا لنشاطاته ، فإن ذلك يعتبر سبيلا لتعليمه الانضباط والتدرب على النظام ،

ويريح الآباء أنفسهم ؛ إن الأبناء يستجيبون للهجة الودود الصادقة ، لكن السؤال الذى يطرح نفسه :

– ما العمل عندما يخرج الأبناء على القاعدة ولا يستجيبون للأوامر ، ويتخطون الحدود ؟

إن الإجابة التى يراها التربويون عن هذا السؤال واضحة جلية تقول :

– على الآباء أن يستجيبوا لدورهم فى حنان ورقة ككبار وأسوياء ، يجب أن يتصرفوا فى حزم ، ويجب ألاّ يدخلوا أو يجرهم الأطفال إلى نقاش حول عدالة هذه الحدود أو ظلمها لهم ، ويجب ألا يطيلوا فى تبرير وجودها ، ليس من الضرورى أن نشرح بالتفصيل للصغير : لماذا يجب عليه ألاّ يضرب شقيقه ؟ فقط عليه أن يعلم : لا عدوان . أيضا : لسنا مطالبين بأن نفهم الطفل لماذا يجب عليه ألا يكسر زجاج النافذة ؟ ، فقط عليه أن يعرف ويلتزم بأمرنا . زجاج النافذة لم يوضع ليكسر ، قاعدة يجب ألا تكسر ، وعندما يخرج الطفل عن الحدود يزداد قلقه ، لأنه يتوقع العقاب ، ويجب ألا يزيد الأب من قلق الطفل فى هذه اللحظة بالذات ، إنه إذا تكلم طويلا فسيؤكد ضعفه فى وقت يجب أن يمثل القوة ، إن الطفل فى مثل هذه اللحظات يحتاج إلى الكبير يعتمد عليه لكى يساعده فى السيطرة على دوافعه دون أن يفقد ماء وجهه ! وهذا مثل يوضح لونًا من ألوان تخطى الحدود ، تقول الأم :

– يبدو أنك لن تسكت إلا إذا رأيتنى أصرخ فيك ! حسنًا (وتصرخ) كف عن هذا وإلا فإنى سأنهال عليك ضربًا حتى أمزق لحمك ! إذا ألقيت بشىء آخر فسألقى بك على الأرض ، و..

والحق أنه بدلا من هذا التهديد والوعيد كان يمكن الأم أن تعبر عن غضبها

الحقيقى بأسلوب وطريقة أفضل ، كان فى استطاعتها أن تقول :

– هذا الذى تفعله يضايقنى ، يغضبنى ، يثيرنى ، هذه الأشياء لم توجد لتلقى !

إن الآباء وهم يفرضون الحدود ، ويضعون القوانين التى يجب ألاّ تخرق عليهم أن يكونوا يقظين إلا أن عليهم ألا يخلقوا معارك وصراعات بين إرادات مختلفة ،تقول طفلة لأبيها :

إننى سعيدة هنا ، لا أريد أن أعود الآن ، سأبقى ساعة أخرى هنا فى النادى .

– تقولين إنك ستبقين ساعة أخرى هنا ، وأنا أقول . إنك لن تبقى !

وهذا الموقف قد يقود إلى إحدى نتيجتين كلتاهما غير مرغوب فيها : هزيمة للطفلة ، أو هزيمة للأب ! إن التركيز هنا يجب أن يكون على رغبة الطفلة فى البقاء بدلا من الاهتمام بإصرارها على تحدى سلطة الأب ، إن عليه أن يقول :

– أعرف أنك سعيدة هنا ، وأعرف أنك تتمنين أن تبقى مدة أطول ، عشر ساعات مثلا ، لكن حان الوقت . علينا أن نذهب الآن !

وإذا استمرت الطفلة على عنادها يستطيع الأب أن يأخذ بيدها فى رقة ويمضى معها إلى خارج النادى مع الأطفال الصغار ! التصرف والفعل يكون أكثر فاعلية من الكلمات والقول . ويحاول الطفل أحيانًا أن يتملص أو يدفع يد أبيه .. والقانون التربوى هنا « لا » إنه لا يسمح أبدًا بدفع الأب والأم ، أو الأيدى تجاهها فى أى محاولة من أى لون ، إن ذلك ضار بالطرفين ، يملأ الأب غضبًا وكراهية ، ويجعل الصغيره قلقًا خائفًا من العقوبة ، فضلا عن الإحساس العميق بالذنب ، وبعض الأمهات يقلن للأطفال فى الثالثة أو الرابعة :

– لا ، يا عزيزى ، ابتعد عن شعرى ووجهى ، يمكنك أن تضرب يدى برقة ، هكذا ! . وهذا مرفوض ، يجب على الأم أن توقف فورًا هذا الاعتداء والعدوان من جانب الطفل قائلة :

– لا ، لن أسمح لك أبدًا بمد يدك على إطلاقًا ! إذا أغضبك شىء فعليك أن تذكره فى كلمات بسيطة ، ودون أن تحرك يديك مطلقًا إنه تحت أى ظروف يجب ألا يسمح الآباء للأبناء بمد اليد ، فالأم إذ سمحت لابنها بمداعبتها بهذا الأسلوب :

– اضرب يدى ، لكن لا تجعلنى أتألم !

فإنها بهذا تضعه أمام تصرف لا يمكن أن يكون له مقياس ولا ترمومتر ، قد لا يعرف ما يؤلم مما لا يؤلم ! إنها مسألة تقديرية لا يمكن تركها لحكمة الشخص . وقد يحاول أن يجرب ويمتحن ضرباته ؛ ليعرف أيها يكفى المداعبة ، وأيها يؤلم ؟ وهنا يثور سؤال آخر :

– وماذا عن ضرب الآباء للأطفال ؟

الضرب – برغم سخافته – وسيلة شائعة للتأثير على الأطفال . ويبقى الضرب هو الوسيلة الأخيرة التى يلجأ إليها الآباء بعد أن تفشل الكلمات الطيبة ، وبعد عدم نجاح الوعيد والتهديد ، وهو يأتى – أى الضرب – بدون خطة مسبقة وبلا سبق إصرار ، يأتى ثمرة غضب مفاجئ نصل إليه تدريجًا أو فجأة .

والضرب قد يصلح للحظة الراهنة : يخفف توتر الأب ، ويجعل الطفل يستجيب ويطيع على الأقل لبعض الوقت . إن الضرب كما يقول بعض الآباء :

– إنه ينقى الجو ويحل المشكلة !

وإذا كان الضرب مؤثرًا بهذه الصورة فلماذا نجد لدينا الكثير من عدم

الارتياح تجاهه ؟

إننا لا ستطيع أن نسكت شكوكنا تجاه جدوى الضرب ! إنه لا يفيد على المدى الطويل ! إننا نحرج إذ نستخدم القوة ، ونسأل أنفسنا دائما :

هل من وسيلة أخرى لحل المشاكل ؟

وأول سلبيات الضرب أنه يلقن الأطفال درسا خاطئا فى حل للمشاكل ! إنه ببساطه يقول لهم : عندما تغضبون . اضربوا ؟

إننا نلجأ لهذا بدلا من أن نجد وسيلة أكثر حضارة وتمدينا وإنسانية للتنفيس عن مشاعرنا ! إننا نلقن صغارنا أسلوب (الغابة) فضلا عن أن أسوأ ما فى الضرب أنه قد يوقف نمو ضمير الطفل ، إنه يخفف عنه عبء الإحساس بالذنب لخطئه ، والإحساس بالذنب أفضل سبيل للتربية ، حتى لايتكرر الخطأ ! إنه عندما يدفع ثمن غلطته لا مانع من تكرارها ، إنهم يسوون حساباتهم أولا فأولا ، إن الضرب يسمح لهم بالخطأ ماداموا يدفعون أسبوعيا أو شهريا مقابل هذا الخطأ ، بل إن بعض الآباء يقولونها صراحة :

— إنهم يبدون أحيانا وكأنما يطالبوننا بأن نعاقبهم !

إن الطفل الذى يبحث عن العقاب يحتاج إلى مساعدة على التغلب على إحساسه بالذنب وعلى غضبه وعدم رضائه عن نفسه ومناقشة الأخطاء أفضل فى هذا المجال للتنفيس والتكفير عنها دون أن ينفجر بها المرجل ، ذلك يفيد الآباء والأبناء ، ويلغى العقوبة البدنية للأبد .

الثقة بالصغير وقدرته

أكبادنا : حرمتهم الحضارة بقدر ما أعطتهم ، وكما يوزع المخرج الأدوار على الممثلين أعطت الحضارة الحديثة الآباء دور « مفسد البهجة » و« قاتل المسرات » الذى يضطر على مدى اليوم كله إلى حرمان الأطفال من أشياء كثيرة بهيجة تسرهم ، وتقفز كلمة « لا » على ألسنة الأمهات والآباء لكى تحرم الصغار آلاف المتع الصغيرة التى يتطلعون إليها بكل لهفة !

– لا تمص إصبعك !

– لا تمد يدك إلى هذه الحلوى !

– لا تحدث ضجة ، ولا تلعب بهذه اللعبة !

إن الحضارة بالنسبة للطفل باردة وثقيلة وقاسية القلب متحجرة : فبدلا من أن يرضع الطفل صدر أمه الحنون أعطت الحضارة الرضيع زجاجة لبن ! وبدلا من الذراعين اللذين يحيطانه صنعت له فراشاً من صوف ! وبدلا من الانطلاقة الطبيعية الحلوة تطالبهم بضبط النفس ! لقد وضعت له قيودا كثيرة من أجل أن يصبح إنساناً اجتماعيًّا ، لكن الآباء والأمهات يتجاوزون المعقول ، ويبالغون حتى إنهم يقومون بدور الشرطى حارس الحضارة والحياة الاجتماعية ! ولا ينبغى هذا حتى لا يتسببوا فى غرس كراهية وعداوة من الممكن تجنبها . إن الأم يجب أن تتفادى من القيام بدور الموقظ لطفلها يوميًّا للذهاب للمدرسة :

– اصح .. لقد تأخرت .. قم .. بسرعة (للطفل)

– اصحى ، استيقظى .. هيّا .. موعد المدرسة (للبنت)

هذه النداءات الصباحية التى تقال فيها عبارة :

— صباح الخير !

تقال هذه العبارة مرة برقة وحنان ، ومرات فى لوم وتقريع ، والطفل يضيق بالأم التى تقطع كل صباح نومه ، وتفسد أحلامه ، وتريده ليترك فراشه الوثير ليوم شاق ! إن هذا الطفل يخاف لحظة دخول أمه إلى غرفته وقيامها بجذبه من تحت الأغطية ، ويخاف صوتها الذى يدق كالأجراس !

— هيا .. هل ستنام للظهر؟ إنك ترهقنى كل صباح .. صباح الخير. قم .. وخير لكل الأطراف أن تقوم « الساعة المنبهة » بهذا الدور بدلا عن « الأم المنبهة !» كانت سلمى الصغيرة — وعمرها ٨ سنوات — تجد صعوبة فى الاستيقاظ وترك الفراش ، وهى تحاول كل يوم أن تبقى بضع دقائق أخرى فى فراشها ، وتحاول الأم مرة باللين ومرة بالشدة دفعها إلى القيام .. ولكن الصغيرة تظل على حالها : بطيئة فى قيامها ، عابسة عند إفطارها ، متأخرة عن موعد مدرستها ؟ وكانت هذه المناقشات اليومية الطويلة تتسبب فى ضيق الأم وتعبها على مدى اليوم كله ، وتحسن الموقف وتغير تماما حين قدمت الأم إلى ابنها ساعة منبهة أنيقة جميلة ، فرحت بها الابنة ، وسعدت وهى تقرأ الإهداء عليها :

— إلى العزيزة سلمى التى لا تحب أن يوقظها الآخرون فى الصباح الباكر. وهى تستطيع بهذه الساعة المنبهة أن تكون سيدة نفسها وسيدة وقتها ، وتصحو فى الوقت الذى تراه مناسبًا !

سألت سلمى — وهى تمسك بالساعة الجديدة الأنيقة — الأم وهى تبتسم ..

— كيف عرفت يا أمى أنى لا أحب لأحد أن يوقظنى ؟

– لقد استنتجت هذا ..

وعندما دقت الساعة فى صباح اليوم التالى لتنبه سلمى إلى موعد الاستيقاظ – قالت الأم لابنتها !

– إن الوقت مازال مبكرًا ياعزيزتى ، إن لك أن تنامى بضع دقائق أخرى !

– لا ، لا ، قد أتأخر عن المدرسة .

وقفزت سلمى من فراشها ، وإلى حد ما حلت المشكلة !

ويجدر بنا ألا نصف الطفل الذى لا يستيقظ من نومه بسهولة : بأنه كسول ! إن الصغار الذين لا يغادرون فراشهم بسرعة لا تجدى معهم السخرية واللوم والتعنيف ، وبدلا من الدخول معهم فى معارك يومية متصلة يجب أن نتركهم يستمتعون بهذه الدقائق الخمس الذهبية ، وببعض أحلام اليقظة ، وهذا يتيسر بضبط الساعة المنبهة على موعد مبكر ، ويجب أن تتسم عباراتنا بالحنان أكثر مما تتصف بالعنف والتقريع ، ولابد أن تشحن بالعطف بدلا من الغضب والتوبيخ :

– يبدو أنه من الصعب أن تغادر فراشك مبكرًا اليوم بسبب سهر الأمس !

– ما أمتع أن تبقى فى فراشك مع النوم اللذيذ والأحلام الممتعة ! لكن ..

– تستطيع أن تتقلب فى سريرك خمس دقائق أخرى !

مثل هذه العبارات تجعل الصباح بهيجًا ومشرقا ، وتخلق جوًا من الدفء والمودة ، فى حين يحدث العكس إذا ما قيلت عبارات أخرى مثل :

– قم أيها الكسلان !

- هيا ، انزل فورًا من سريرك

- أما زلت فى فراشك أيها « التنبل » !

وهناك عبارات أخرى تقال فى مثل هذه المناسبة الصباحية قد تؤتى أثرًا عكس مانرجو :

- أما زلت فى فراشك؟ هل أنت مريض؟

- ماذا بك؟ هل تشعر بصداع أو احتقان فى الزور؟ أرنى لسانك .

هذه التساؤلات القلقة توحى للصغير بأن حنان أمه سيزداد لو أنه مرض ، أو ادعى المرض ، وقد يتصور أن أمه سيخيب ظنها فيه لو أنه بقى فى فراشه وهو سليم ، فيبتكر أشياء وهمية تجعله يظل فى مكانه لكى يرضيها وما أكثر ما تأتى نصائحنا بعكس المطلوب منها ، مثلا :

- هيًا أسرع .

كثيرًا ما نلحظ بعد هذا الأمر مزيدًا من التباطؤ والتكاسل ؛ لأن الطفل يضيق بالأوامر والتعليمات ، ولا يجد أمامه سبيلا لمحاربتها إلا بالتحدى ! ويمكننا بدلا من الإلحاح على الصغير بالإسراع أن نحدد له فترة زمنية بذاتها ، لكى يغادر فراشه أو يستعد خلالها . إن ذلك يخلف عنده لونًا من التحدى للزمن ذاته .. يريد أن ينجز العمل فى وقت محدود ؛ لذلك يتعجل أموره بالذات حين نقول له :

- أمامك عشر دقائق لتلبس !

- الفيلم يبدأ الساعة السادسة ، والآن هى الخامسة والربع .

- سنقدم العشاء فى الثامنة . أى بعد ربع ساعة فقط .. استعد ..

- الصيوف سيكونون هنا خلال عشر دقائق ، جهز نفسك لاستقبالهم .

مثل هذه العبارات تعنى فى واقع الأمر أننا نثق فى الصغير وفى قدرته على أداء ماهو مطلوب منه فى الوقت المحدد ، لذلك نراه يريد أن يكون عند حسن ظننا ، وبالذات حين نستقبل يومنا كل صباح .

ولنا أن نستعرض يومًا فى حياة طفل . ماذا لو كانت البداية سيئة ! إننا نريدها حلوة بهيجة ؛ ولذلك فمن الضرورى أن يكون الإفطار وجبة بلا نصائح أو مواعظ أو فلسفة أو مثل ! إنها آخر لحظات له فى المنزل قبل مغادرته إياه إلى المدرسة ، فيجب أن يشيع جو حنان وبسمة حلوة خلالها ، وعلى كل فالإفطار وجبة غير صالحة للحديث الطويل والحوار الممتد ، الصغار ليسوا بكل طاقتهم ، مازالت آثار النوم عالقة فى جفونهم ، وأقل شىء فى هذه اللحظة يثيرهم ! وقد أسلفنا الحديث عن الطعام على أن وجبة الصباح يجب كما قلنا أن تكون وجبة طعام وليست وجبة كلام ! وخاصة أنه مازالت لدينا معركة ارتداء الملابس من أجل المدرسة والاستعداد للخروج .

موقفنا من معركة ارتداء الملابس

أكبادنا : مع كل صباح يكلفوننا شططا ، منذ لحظة الكفاح من أجل إيقاظهم ، والنضال لكى يتناولوا إفطارهم ، وتأتى بعد ذلك معركة ارتداء الملابس ورباط الحذاء .. والأم تنهض بعبء ضخم فى كل هذا : توقظ هذا ، وتدعو هذه لكى تصحو ، وتنطلق إلى المطبخ للشاى واللبن والطعام ، وترجع إلى هؤلاء الذين يستعدون للذهاب للمدرسة والعمل .

وترتفع أصوات :

– أمي ، لا أجد حذائى !

– أمي ، لم توقعى على شهادة المدرسة !

– آه ، ونقود الرحلة ، أين هى ..؟

وقد يأتى صوت الأب من مكان ما يصرخ بحثًا عن بعض أشيائه الضائعة ، وقد يشتد الصراخ حول « زرار » لم تخطه الأم ، وملابس لم تعد من عند الكواء ، وربما وجدت جدة عجوز تسأل عن دوائها ، والأم تحاول خلال كل ذلك أن تؤدى ألف عمل وعملا : تكلم اثنين أو ثلاثة فى وقت واحد ، وتجهز الشطائر للمدرسة ، وتساعد الصغير فى ارتداء ملابسه ، وتمشط شعر الصغيرة ، وترتب كتب الثالث .. وهو يصيح :

– أختى أخذت قلمى .. أين الحقيبة يا أمي ؟

– كتاب المطالعة كان هنا .. يا أمي ..

وتتردد كلمة « يا أمي » عشرات المرات وهى لا تكل ولا تمل ! ولو حسبنا كَمْ ميلا تقطع فى ساعة الصباح ، وكم جهدًا تبذل – لأذهلنا ما تحسبه وهى غادية رائحة كالنحلة الشغالة ، تكلم هذا ، وترد على ذلك ، وتساعد ذلك ، وتنهى عملا لتبدأ آخر ، هى معركة يومية ، كل ثانية فيها عمل فيها طلب ، فيها مفاجأة ! والصغير قد يسير بحذائه دون أن يربطه .. ويقول الأب :

– أكاد أفقد صوابى حين أرى رباط حذاء ابنى يتأرجح ، ويكاد يوقعه إذا وطئه بأقدامه !

هل من الضرورى أن نلزمهم بربطه ؟ أن ندعه يخب فى حذائه ، كأنه غير مهتم به ، بل كأنه سعيد به .. أليست هذه فرصة لتدريبه على المسئولية ؟ والواقع أنه يجب علينا ألا نربط بين رباط الحذاء والمسئولية ، ومن الأفضل

ألا نثير جدلا حول هذا الموضوع بأن نشترى للأطفال أحذية بلا أربطة ، أو علينا أن نربط لهم الحذاء بلا نقاش .. وبلا تعليق ، وسيتعلم الطفل – إن عاجلا أو آجلا – أن يربط حذاءه قبل خروجه من البيت .. وقد تقول الأم :

– ملابسك يا ليلى ليست أنيقة بشكل كاف !

وربما يبدو أحمد كأنه ذاهب إلى حفلة .. أنيقًا معطرًا من حسن الحظ أن الكثير من المدارس لها ملابس رسمية عادية تريحنا من المبالغة فى اختيار الألوان – سمة العصر – وتقلل من همومنا بالنسبة للتفاوت بين الأبناء بالنسبة لملابسهم .. ويجب علينا ألاّ نحشو رءوس الأبناء بالتحذيرات والقلق حول ملابسهم والنظافة :

– هأنتذا تخرج من البيت نظيفا كالفلة البيضاء ! احذر أن تتسخ ملابسك .. وقد تراه يتطلع إلى ملابسه قبل الخروج ، فتقول له :

– المهم أن ترجع بها نظيفة .. تذكر كم أتعب فى غسلها !

وفيما نرى أن حرية الطفل فى أن يجرى ويقفز أو يلعب الكرة يجب أن تكون لها الأولوية على الأناقة !

ومن الطبيعى أن يرجع الصغير من مدرسته وقد اتسخت ملابسه ، ولحظتها ليس هناك أفضل من أن تكون الأم وديعة معه ، فتقول له بلا توبيخ أو تعنيف :

– واضح أنك عشت يومًا حافلا فى مدرستك ، غير ملابسك ، وضع ماتخلعه فى سلة الغسيل .

وليس من المناسب الإشارة إلى أنه قد أصبح قذرًا ، إنك – أيتها الأم – تمرضين من الجهد المبذول فى الغسل ، وذلك لسبب بسيط : لا يمكن للطفل

أن يضع النظافة فى مكان أهم وأسبق من اللعب !

من البديهى أن اللعب فوق كل شىء وقبل كل شىء ! ولذلك فالملابس التى تغسل لا تحتاج إلى الكى أفضل ، وتساعد على حسن معاملة الطفل أكثر مما تفعله المواعظ حول النظافة !

ونعود لمعركة الصباح :

– اين المسطرة ؟ قلمى الحبر ضاع !

– نظارتى ! أريد نظارتى ! وضعتها هنا قبل أن أنام !

وهذه صرخات طبيعية صباحية ، والطفل خلال لحظات الصباح واندفاعاتها قد ينسى أشياء يجدر بنا أن نعطيه إياها دون أن نضيف مواعظ ونصائح ، إن عبارة تقول :

– هاهى ذى نظارتك ياعزيزى ، مسطرتك هناك تحت المكتب يا عزيزتى .. هذه العبارة أفضل من عبارات أخرى قد تقال مثل :

– أنت كثير النسيان ، من الممكن أن تنسى رأسك ذاته لو لم تكن بين كتفيك !

– أنت فوضوى ، لو رتبت أشياءك ، ما صارت غرفتك دكان عطار !

الصباح ليس وقتًا مناسبا للكلمات التربوية ، والمواعظ الأخلاقية ، فيجب ألا نلقى على سمع الطفل قائـمة من الأوامر والنواهى والتحذيرات قبل رحلة المدرسة ، بل من الأفضل كثيرًا عبارات مثل :

– أرجو لك يومًا ممتعًا .

بدلا من تلك الكلمات التقليدية :

–لا تسبب مشا كل فى المدرسة ، لا تتشاجر أنت وجارك ! وعبارة تقول :

– إلى اللقاء ، بعد نجاحات ظريفة ، فى المدرسة ، فى انتظارك فور انتهاء دروسك .. خير من عبارة :

– لا تتسكع فى الشارع بعد خروجك من المدرسة !

إن هذه الفترة الصباحية التى قد لا تمتد ساعة كاملة – لها أهمية كبيرة : فالتصرفات فيها تلقائية ، والوقت ضيق لا يحتمل حواراً ونقاشًا طويلين وخاصة إذا كانت الأسرة كبيرة العدد ، وإذا كان أطفالها فى سن مبكرة ! إنها ساعة محتشدة بالعمل ، ربما نكون بالحديث عنها قد كشفنا سرها عند بعض من يعيشونها دون أن يتنبهوا لما تحويه من مجهود ، لكن مطلوب من الآباء والأمهات تدريب الأبناء على شىء هام جدًّا ، نريد أن نسمع الطفل يقول فى لحظة خروجه للمدرسة :

– أمى أريد أن أودعك ..

ولحظتها يجب على الأم أن تنفض يدها من كل شىء ، وكذلك الأب ، إن الابنة أو الابن يحتاج لأن يقولها .. ببساطة وحب :

– أمى .. قبلينى قبل أن أمضى !

– هل لى أن أقبلك يا أمى قبل أن أذهب ؟

هذه اللحظة خطيرة خطيرة ! إن من يستطيع أن يلحظها ويرقبها من بعيد قد لا يستطيع أن يرى ما يحدث فى هذه اللحظة ، لكن شيئًا هامًّا فى منتهى الأهمية يقع فى هذه الثانية بالذات ! إن الأم تلتفت لحبيبها الصغير أو لابنتها الحبيبة ، تلتفت إليهما الأم وقد زال كل التعب الذى شعرت به نتيجة مجهود الصباح العنيف . راح التعب .! كل خطوط الإرهاق التى رسمت على جبينها طيلة الصباح محيت .. اختفت .. ساعتها تضع على وجهها وشفتيها أحلى ابتسامة

ى الوجود حين تعطى القبلة أو تأخذها من ابنها .. وتقول أم :

– إننى لا أنسى جهد الصباح فحسب ، بل إننى أشعر أن ما تبقى من عمل البيت قد أصبح سهلا بسيطًا ! ماذا يعنى أن تقف فى المطبخ ساعة أو ساعتين ، أو تغسل ساعتين أو ثلاث ، أو ترتب وتنظف ثلاث أو أربع ساعات ؟ ما قيمة كل هذا أمام أروع وأحلى وأجمل (قبلة) فى الوجود ! .. إن الطفل يقول :

– أريد أن أقول إلى اللقاء ياماما .. وأعطينى (قبلة) ..

وتقول الأم :

– إنه يستحق فعلا القبلة !

والأم – فيما نرى – تستحق ألف قبلة .

اليوم المدرسى

أكبادنا : يتغيبون بضع ساعات عن البيت ، يقضونها فى المدرسة ، ومن الأفضل كثيرًا أن تكون الأم فى ساعة عودة الأبناء من المدرسة فى انتظارهم ، لتستقبلهم ، وتحييهم ! وبدلا من أن تستقبلهم الأم بتلك الأسئلة التقليدية التى تتلقى عليها إجابات متكررة يمكن الأم أن تستبدل عبارات يستدل منها على تفهمها لما يلقاه الابن من مصاعب ومتاعب فى المدرسة !

إن الأم قد تسأل :

– كيف حال المدرسة اليوم ؟

طيبة .

– وماذا فعلت اليوم ؟

– لا جديد .. نفس ما أفعله كل يوم !

لاجدوى من مثل هذه الأسئلة ، ولا فائدة فى الردود والإجابات عن هذه المساءلة ومن المستحب أن تقول الأم شيئًا آخر :

– يبدو أنك قضيت يومًا حافلا فى المدرسة ، واضح أنك سعيد بعودتك للبيت ، هل افتقدتنا كما افتقدناك؟ تعال أريد أن أسمعك تتحدث عن الحصص والمعلمين والزملاء ، هل من شىء طريف حدث اليوم !

وإذا لم يكن فى استطاعة الأم أن تنتظر الابن فلا أقل من أن تنتظره منها رسالة قصيرة تبلغه أنها اضطرت لترك البيت لمهمة عاجلة قصيرة ! أمهات كثيرات يستخدمن الكتابة فى التخاطب مع الأبناء ، ويجدنها وسيلة طيبة للتعبير عن مشاعرهن ! والحق أن هذه الرسائل تزيد من الروابط الأسرية ، لقد تركت أم لابنها سطرًا تقول فيه :

– اضطررت للذهاب إلى خالتك ، هى تضع مولودها ..

وعادت بعد أن نام الصغير ، وإذا بها تجد على رسالتها تعقيبًا يقول :

– عودة سالمة لك ، ومبروك لخالتى !

واهتزت الأم للتعليق ، وكذلك الأب الذى يعود مرهقًا من عمله ويحتاج إلى جو هادئ ، ويحتاج إلى ألا يستقبل على الباب بكمية من الشكاوى والمشكلات والطلبات ! إنه فى حاجة إلى كوب شراب بارد ، حمام دافئ ، بريده اليومى ، مجلاته الأسبوعية ! ولابد من تركه لفترة دون إلحاح عليه بأى أسئلة فترة هى واحة راحة تضيف الكثير إلى الحياة الأسرية ! والأطفال يجب أن يدربوا على احترام هذه الفترة ، أما العشاء مناسبة حلوة لتبادل الحديث ، ونردد نحن العرب دائمًا :

– تحدثوا على الطعام ولو بثمن أسلحتكم !

يجب ألا يكون العشاء من أجل الطعام فحسب ، بل من أجل الجلسة والحديث ، ولابد من أن يقل الكلام عن الطعام ذاته ، والكمية التي يأكلها الأطفال ، بل من المهم تغذية مشاعرهم ووجداناتهم وعقولهم خلال هذه الوجبات ! وإذا كنا قد مضينا مع الطفل منذ استيقاظه فلابد أن هناك وقتًا للاستذكار ، وآخر للترفيه ليس مقصورًا على الأطفال ، وقد وصلوا إلى درجة من القوة والسيطرة فى بعض البيوت إلى درجة أنهم أصبحوا يتحكمون فى خروج آبائهم ! بعض الأطفال يبكون ! يقول أحدهم :

– لا تخرجى ياماما ، لا أريد أن أبقى ! إنى أخاف !

– طبيعى أن يخاف الإنسان ، لكن لابد أن نعرف : ممن يخاف ؟

– من البقاء وحدى ؟

– لا ، لا ، هذا لا يخيف ، هذه حجة تريد أن تستبقينى بها فى البيت !

– نعم ، هذا ما أريده !

– ولكنك ستحرمنى الاستمتاع برؤية أهلى ، ومشاهدة فيلم معهم ! . لابد أن أخرج .

إن اعتراض الطفل ، أو تهديده ، أو بكاءه يجب أن يهمل ، وردودنا عليه لابد أن تكون فى منتهى الوضوح والحسم ، وإن قيلت فى لهجة ودود تعنى أنه من الضرورى لها أن تخرج لسهرة بين حين وآخر .. للترفيه ، كما يرفه هو – أى الطفل – عن نفسه بالتليفزيون ! وهو جهاز ينتزع من أبنائنا بضع ساعات يوميًّا ، هم يفضلونه على القراءة ، والموسيقى ، والأحاديث ! وهو يحتاج لحديث طويل منفصل ندعه لوقت آخر ، ونعود إلى يوم فى حياة الصغير ، لابد

أن ينتهى ذلك اليوم بصراع تقليدى ، وعندما يرتفع صوت الأم بتلك الصيحة :

– هيا .. إلى النوم .

فى كثير من البيوت – كما تثور معارك الصباح من أجل الاستيقاظ – تثور معارك أخرى من أجل ذهاب الأطفال إلى فراشهم ! إنهم يريدون أن يسهروا لساعة متأخرة ، والأمهات يرغبن فى دخول الصغار إلى سريرهم ! ويصبح وقت النقاش عبئًا على الطرفين ! والسبيل الوحيد لجعل الأطفال يتطلعون إلى هذه اللحظة بحب ورغبة هو أن نجعل فترة ما قبل النوم مجالى حديث ممتع وحكاية حلوة ، إنهم يحبون لحظات خاصة مع ماما أو بابا يتقاسمان خلالها المشاعر والآمال ، بل المخاوف ، ذلك يدفعهم إلى نوم هادئ مريح ، قد يجرى هذا الحوار بين أم وطفلها – ابن السنوات الثمانى :

– احك لى كل ما دار فى يومك يا صغيرى !

– كان يوما طويلا ، لم أكن أريد أن أصحو من نومى ! كنت فى حلم جميل أيقظتنى منه !

– كيف لى أن أعرف أنك كنت تحلم ؟

– ثم عنفتنى ولمتنى لأنى لم أشرب اللبن ، كان سخنًا ملتهبًا كالنار ؟

– (تضحك) – لماذا لم تقل لى هذا ؟

– قلته ولم تسمعى ، كنت تساعدين شقيقتى فى البحث عن ملابسها

– آه معذرة !

– وخرجت للمدرسة ولم أتلق قبلة الصباح ، ولم تعطينى الفرصة لتقبيلك .

– يا إلهى إذن الآن قبلتان ! ولى قبلتان !

– فات الأوان ! كان اليوم كله فى المدرسة ، بعد كل هذا ، سخيفا جدا !

– إنه لمن المؤسف أن أسمع هذا .

– ورجعت فلم أجدك بالبيت ، ولم أجد من يعرف أين أنت ولا متى تعودين ؟

– قلت لك أين كنت .. اضطررت لهذا الخروج !

– وعندما عدت صرخت فى ؛ لأنى كنت أشاهد التليفزيون .. مع أنى كنت أنجزتِ كلِ واجبات المدرسة !

– كنت متعبة ، لم أكن قادرة على الاستماع لشىء ، لكن ، لماذا كل قائمة المضايقات هذه ؟ .

– (يضحك) ، أنت سألت يا أمى : ماذا دار فى يومى ؟

– آه ! هيا ننسى كل هذا ، ستضحك كثيرًا عما حدث عند خالتك ..

ويشمل هذا الحوار كل ما فى نفس الصغير ، ويجعله يغمض عينيه فى ارتياح ، ولنا أن نتصور لو أنه نام وكل هذا فى نفسه تجاه أمه ! إن اليوم الطويل المضى قد يتكرر ! وقد يصبح هو الشىء العادى ، الأمر الذى يرسب الكثير فى نفس الصغير ، ومن هنا كان استعراضنا اليوم فى حياته يهدف للكشف عن برنامج هذا اليوم ، وكيف نثرى من لحظاته ، ونجعل ساعات وجودنا بين أبنائنا أكثر إمتاعًا لنا ، ولهم ؟ وقد يدور حوار آخر كهذا :

– كيف كان يومك ؟

– رائعا يا أمى ! صحوت قبل أن تدق الساعة ، وكنت أول وجه أراه .

وكنت مبتسمة كالمعتاد .

– وصباحك قبل المدرسة ؟

– أحيانًا أجد كل شيء سهلا ، وأرتدى ملابسى وأفطر فى لحظات بفضل النظام الذى وضعته لنا !

– واليوم الدراسى ؟ والمعلمون ؟

– كل شيء كان موفقًا . وعندما عدت ووجدت طبقى المفضل على المائدة أدركت أنك تحبيننى وتفكرين فىّ خلال غيابى فى المدرسة !

وهكذا يمضى الحوار حلوًا يقطر حبًّا ، يملأ القلوب بالأمل ، ويفعم الصدور بالبهجة ، إنها لحظات لاتنسى فى حياة الصغير ، وهى مشبعة للأم والأب ، فلماذا لا نحرص عليها ؟ كلنا فى واقع الأمر فى حاجة إلى (حكاية ما قبل النوم) ، سواء كان اليوم ثقيلا مملا مضنيًا ، أو كان ظريفا لطيفا سعيدًا !

غيرة الأطفال

أكبادنا والغيرة : قضية مطروحة دائمًا ، ويجب ألا نغفل عنها ، ولابد أن نحاول أن نحل محلها المحبة والتعاون والتواد ، وإلا فإنها - أى الغيرة - ستذهب بهم للطرف الآخر. الحسد ، وله فى تاريخ الإنسانية مآس مفجعة ، فكلنا يذكر أن أول حادثة قتل كانت بسبب الغيرة بين الشقيقين : قابيل وهابيل . وحكاية سيدنا يوسف وإخوته الذين حقدوا عليه معروفة . ودراستنا للغيرة تكشف أن وراءها دائمًا تفضيل الأب لواحد من أبنائه ! والأطفال يحبون قراءة قصص الغيرة والمنافسة والثأر ، وهى تثيرهم وتمس مشاعرهم والغريب أنهم لا يتعاطفون دائمًا والضحية !

* * *

وأخطر لحظات الغيره تكمن فى قدوم طفل جديد !

- إننا نحبك كثيرًا لأنك ولد رائع ، ولهذا قررت أنا وأبوك - أو أنا وأمك - أن نجىء بطفل آخر مثلك تمامًا ! إنك ستحب هذا الطفل الجديد ، إنه سيكون طفلك ، كذلك ستكون فخورا به ، سيكون لديك دائمًا من تلعب معه ، وتداعبه !

هذا الإعلان للخبر غير صادق ؛ إذ يجب أن يتفادى الآباء من هذا الشرح المطول غير المقنع ، فما لا شك فيه أنه أمر يثير الغيرة والحسد والمنافسة .. رضينا

أم أبينا ! إنها أولى مشكلات الطفل التى يواجهها فى الحياة على الأرض ، ويحتاج فيها للمساعدة بدلا من أن نكون مجرد عاطفيين ! إن الطفل سوف يرد على هذا البيان الطويل قائلا لنفسه :

— إذا كانا يحبانني حقيقة فإنه ما كان يجب عليهما أن يبحثا عن طفل آخر ويجيئا به ! لا بد أنني لست شيئًا حسنًا ، ولا جميلا بقدر كاف ، لذلك يريدان أن يستبدلا بي هذا الوافد الجديد الذى سيحبانه أكثر ! ويرعيانه أكثر ! وسأكرهه !

هذا هو ما يفكر فيه الصغير ! إن كائنًا آخر سيقاسمه حب أمه ، والطفل يعرف أن اقتسام الشىء يعنى أن نصيبه سيكون أقل ! مثل اقتسام قطعة من الحلوى أو الكعك ، هذا شىء يقلقه ، وإذا تصورنا أن هذا الشىء سوف يبتهج له الطفل فإننا واهمون وغير منطقيين ، وفترة الحمل تؤكد لديه الشكوك ويهمس لنفسه :

— إن هذا الصغير قبل أن يصل قد شغل أمى ! إنها أصبحت منذ الآن أقل اهتمامًا بي ! إننى لا أستطيع أن أجلس « فى حجرها » بسبب هذا الطفل المتخفى فى بطنها ! ومع ذلك فهو يؤكد وجوده : هذا المقتحم الدخيل « الحشرى » !

والواقع أنه فى استطاعتنا أن نعلن عن وصول الطفل الجديد بدون طبول أو أبواق عاليه أو موسيقى صاخبة ! بل من الضرورى أن نقدم الخبر فى بساطة شديدة ، يكفى أن نقول :

— سوف يكون لدينا طفل جديد فى الأسرة قريبًا .

وبالطبع سوف يكون هناك رد فعل سريع ومباشر ، وسوف تكون لديه عشرات الأسئلة تدور فى رأسه .. وسوف يكون عنده أشياء مقلقة يحبسها فى صدره ، ومن حسن الحظ أننا كآباء نستطيع أن نساعد الأبناء لكى يعبروا هذه المشكلات ، ولا يستطيع أحد ، ولا يستطيع أى شيء أن يغير من حقيقة أن الطفل الجديد يشكل تهديدًا كبيرًا لأمن الطفل ! وعلى هذا فإن التوتر الحادث للطفل يتوقف على حكمتنا ومهارتنا ، ولدينا مثال نرويه يوضح أمثل أسلوب لتقديم طفل جديد . يروى أحد الأبناء :

— عندما ولد شقيقى أخذنى أبى من يدى ، لكى أراه ، وحتى اليوم أستطيع أن أذكر الوجه الأحمر لذلك الطفل الراقد على ذراعى أمى ، وصوتها يهمس لى :

— إنك يا عزيزى من الآن مطالب بأن تكون أفضل وأحسن ، فقد أصبح لدينا طفل آخر ! إنك لم تعد الطفل الوحيد ، ومن هذه اللحظة ستكون أنت وشقيقك الطفل الصغير قد أصبحتما اثنين بعد أن كنت الوحيد من قبل !

— وأعتقد أننى خلال عمرى كله من ذلك الحين للآن وأنا حريص كل الحرص على ألا أتفوق على شقيقى أو أحيل حياته إلى جحيم !

وبالعكس . هناك مثل آخر يوضح كيف يعين هذا التقديم ، ويساعد الطفل على التغلب على مشاعر الغيرة التى تنتابه نتيجة قدوم طفل جديد ، تروى إحدى الأمهات :

— عندما رأتنى ابنتى حاملا — وكان عمرها خمس سنوات — كانت تبدو فرحة مبتهجة ، لقد رسمت شمسًا ساطعة ، وزهورًا ملونة للحياة مع الوافد الجديد ! ولم أشجع هذه النظرة الوردية للحياة ، فهى نظرة لجانب واحد منها ،

لذلك قلت لها :

– مما لاشك فيه أن ذلك سيكون شيئًا ظريفًا أحيانًا ، ولكنه فى أحيان أخرى سيسبب مشاكل عدة ، إنه سوف يبكى ويزعجنا ، سوف يبلل ثيابه وفراشه ، إننى سوف أكون مضطرة لأن أغسل له جسمه ، وأطعمه وأعنى به ليل نهار ، قد تشعرين – ياعزيزتى – أننى إلى حد ما قد تركتك وحدك ، وربما تشعرين بالغيرة وربما قلت لنفسك :

– إن أمى لم تعد تحبنى ! إنها تحب الوليد الجديد أكثر مما تحبنى !

وتضيف الأم :

– عندما تنتابك هذه المشاعر أرجو أن تجيئى لتخبرينى . وسأعطيك ساعتئذ مزيدًا من الحب ، لذلك أرجوك ألا تقلقى ، إنك ستكونين على ثقة من حبى الكبير لك !

إن الكثيرين من الآباء يترددون فى استخدام هذا الأسلوب فى تناول المشكلة ، إنهم سوف يخافون وضع أفكار خطيرة مثل هذه فى أدمغة الأطفال ، وعلى هؤلاء الآباء أن يتيقنوا أن هذه الأفكار ليست جديدة بالكامل بالنسبة للأطفال ، وتأثيرها لايمكن إلا أن يكون جيدًا ؛ لأنها تعكس فهم المشاعر الإنسانية ، إنها تغسل الشعور بالذنب ، وتستدعى المودة والقربى ، ومن الأفضل إذا شعر الطفل بالحرية أن يعبر بصوت عال عن غضبه لهذا الوليد الجديد ، نعم ، هذا أفضل من أن يظل غضبه همس النفس وحبيس الصدر ! لو حدث أن كبت مشاعره فقد تظهر فى أحلامه ، كما قال صغير :

– حلمت أمس أنى أدفع بأخى من الدور الخامس !

وقد يصحو الصغير من حلمه صارخًا ، بل قد يجرى إلى فراش أخيه ليفتش

عنه ويطمئن عليه وعلى أنه مازال هناك ! ويسعده أن يراه سليمًا ، حتى لا يعرف الأبوان أنه لا يحبه !

والواقع أن الأحلام تتحول إلى كابوس ثقيل ، ويترجم الصغير مشاعره فى صور بدلا من أن يرويها فى كلمات ، والأخيرة أفضل ، ولدينا حكاية تروى فى هذا المجال :

– أصيب ابننا ، وعمره خمس سنوات ، بعد مولد شقيقه بضيق فى التنفس ، وظننا أنه يحب شقيقه لدرجة الموت ، ويبدو أن تعبير « لدرجة الموت » هو أصدق تعبير ، وقد وجد الطبيب أنه ليس مصابًا بمرض عضوى ، فتم تحويله إلى مستشفى أمراض نفسية ؛ لكى يستطيع أن يعبر عن غيرته وغضبه بالكلمات ، بدلا من أزمات التنفس !

إن بعض الأطفال يعبرون عن غيرتهم بإصابتهم بالسعال ، وببثور تظهر على جلدهم : بعضهم يبلل فراشه فى أثناء نومه ، إنهم يعبرون بوسيلة ما إذا عزت عليهم وسيلة الكلام . بل إن بعضهم قد يصبح مخربًا : يكسر الأطباق بدلا من أن ينطلق صوته صاخبًا معبرًا عن الغضب ، وبعضهم يقضم أظفاره أو يشد شعره تعويضا عن الرغبة فى عض شىء آخر أو شده وجذبه ، ولهذا نفضل دائمًا أن تكون الكلمات والعبارات هى وسيلة التعبير ، والآباء مطالبون بتيسير ذلك لهم حتى لا تحبس مشاعرهم ، بل تنطلق لتريح !

مظاهر الغيرة

أكبادنا : لديهم مشاعر غيرة قد لا تلحظها النظرة المجردة ، وعلى الآباء أن يدركوا ذلك وأن يعرفوا أن للغيرة عدة وجوه ، ومظاهر مختلفة ، وهى تعبر عن

نفسها بوسيلة ما مهما حاول الأطفال إخفاء هذه المشاعر التى قد تظهر فى الرسم على الجدران .

وعدم التنفيس عن الغيرة فى الطفولة له ثمار مرة الطعم تظهر من حولنا نحن الكبار فى المنافسات المحتدمة ..

إنها تظهر مع ذلك السائق الذى لا يريد لسيارة ما أن تسبقه على الطريق ، وتبدو مع ذلك الذى لا يريد أن يخسر دور شطرنج ، أو هذا الذى يراهن بحياته ليثبت وجهة نظره فى أمر ما ، أو هذه التى تريد أن تبز وتتفوق على زميلاتها فى كرم الضيافة ولو كلفها ذلك فوق طاقتها ! وتبدو فى هذه المرأة التى تخسر المعركة قبل أن تدخلها ، والتى تجلس فى المقعد الأخير ، والتى لاتطالب حتى بحقوقها الطبيعية ! إن الغيرة تطبع حياة الإنسان وتؤثر فى شخصيته ، وسنناقش هنا نقاطًا ثلاثًا :

* أسباب الغيرة وأصولها .
* المواقع والاتجاهات التى تثير الغيرة .
* كيف نعالج الغيرة ونخفف من آثارها ؟

وقد يرى البعض أن النقطة الأخيرة ذات أهمية خاصة ، لذلك نبدأ بها ، ونقف عند تعبير بعض الأطفال بصراحة موجعة عن غيرتهم ، فقد يَصْبِغون أحاسيسهم بشكل غير دبلوماسى قائلين :

● أمى ، هل يموت الأطفال الرضع الصغار ؟

● لماذا يا ماما لا نعيد هذا الصغير للمستشفى ، أو نلقى به إلى صفيحة القمامة ؟

بل إن بعض الأطفال قد يعلنونها حربًا حقيقية على الصغار الرضع ،

ويدخلون فى عمليات عسكرية ضد هذا الغازى ، فتمتد أيديهم إليهم كأنما يربتون عليهم ، أو يمسحون فى حنان جسمهم ، ثم تغوص أصابعهم فى لحمهم بلا شفقة ولا رحمة ، يقرصونهم أو يؤذونهم بكل وسيلة ممكنة

والغيرة الأخوية قد تسبب عاهات مستديمة ، وهذه الهجمات الضاربة – جسمانيًّا أو كلاميًّا مرفوضة تمامًا ، ويجب على الآباء وقفها بكل السبل ، لأنها تؤذى الطرفين : الجانى والمجنى عليه ! وكلاهما يحتاج إلى حمايتنا : واحد نحميه من الآخر والآخر نحميه من نفسه وميوله ! ومن الواجب أن نحمي الأول دون أن نؤذى الأخير : فعندما نضبط صغيرًا فى الثالثة يؤذى أخاه الصغير الرضيع علينا أن نقولها فى وضوح :

- يبدو أنك لا تحب شقيقك !
- الظاهر أنك غاضب منه ، حانق عليه !
- أرنى إلى أى حد تضيق به ؟ وسأراقبك وأشاهد ما تصنع !

ونستطيع أن نسلم للطفل (عروسة) كبيرة لينفس فيها عن غضبه ، قد يضربها .

يدفع بإصبعه إلى عينها ، يلقى بها إلى الأرض ويطؤها بقدمه ! علينا ألا نقترح على الصغير ما يفعله ، مهمتنا أن نراقب بعيون محايدة ، ونتجاوب بكلمات متعاطفة ، ويجب ألا نُصدَم لعنف وقسوة المشاعر التى يبديها الطفل فى هجماته ، إنها مشاعر صادقة وأمينة ، والتنفيس عنها لايضر ، ومن الأفضل أن ينصرف إلى الأشياء بدلا من الصغير الذى لا حول له ولا قوة ! ويجب أن تكون تعليقاتنا قصيرة وبسيطة مثل :

- إنك قد أطلعتنى على حقيقة غضبك يا عزيزى .

● آه ! الآن عرفت ماما الأمر .

● من فضلك حين تكون غاضبًا حانقًا تعال إلىّ ، وقل لى : ماذا يغضبك ؟

. . .

إن هذا الفهم يعاون كثيرًا فى تخفيف حدة الغيرة أفضل مما يفعل العقاب أو السبب أو الشتم ، ومما لا شك فيه أن موقفًا كهذا يستحق منا النقاش ، قالت إحدى الأمهات :

عندما ضبطت ابنى – وهو فى الرابعة – يسحب شقيقته الرضيعة من قدميها انفجرت صارخة فيه : ما هذا الذى تفعله ؟ أتريد أن تقتلها ؟ هل تريد أن تقتل أختك ؟ ألا تفهم أنه من الممكن أن تصيبها بعاهة عمرها كله ؟ هل تريدها مقعدة أو مشلولة ؟ كم مرة قلت لك : إنه يجب ألا تخرجها من فراشها ، وإنه يجب عليك ألا تلمسها مرة أخرى !

هذا الموقف من جانب الأم لايفيد ، ولا يرجع الطفل عن تصرفاته الخاصة حتى الأطفال الكبار يجب أن يواجهوا بمشاعر الغيرة التى يحسونها ، لابد أن نكشفها لهم ، ومن الممكن أن يكون الحوار معهم مفتوحًا بشكل أوسع وأكبر ، نقولها ببساطة :

● من الواضح أنك لا تحب هذا الصغير ، وأنك كنت تتمنى لو لم يولد ! وكنت تود لو أنك كنت وحيدنا ، وكنت ترجو أن تستولى على كل الحب والرعاية ، إنك تغضب حين ترانا نهتم به ، إنك تريدنا معك وحدك باستمرار ! ولكننا لن نسمح لك بأن تؤذيه ! إنك تستطيع أن تخبرنا بما تشاء إذا أحسست بالضيق منه وبإغفالنا لك ! نخصص لك وقتًا إضافيًا حتى لا تشعر بالوحدة والضيق !

إن الطفل فى الواقع يجب أن يكون وحيد أبويه ، و« ألا يكون هناك على الحجر سواه ! » كما تقول العامة فى وطننا ، وهذا هو أصل الغيرة وسببها الأساسى ، إنه يريد أن يكون بلا منافس ، وعندما يصل الأبناء الآخرون يدخل معهم فى منافسة من أجل مزيد من الحب من الأبوين ! قد تكون منافسة خفية أو معلنة ، ويعتمد ذلك على تناول الأبوين لموضوع الغيرة بعضهم يغضب لها .

– إنه لمذهل ، إنهم لا يتعاملون كأشقاء ولا كأصدقاء ! إننى أكاد أفقد صوابى لهذا ، إننى أعاقبهم لهذا الصراع المستمر بينهم ، ولكن العقاب غير مجد !

وبعض الآباء يبذلون جهودًا مضنية من أجل التفادى من أسباب الغيرة ، ويحاولون أن يقنعوا الأبناء بأنهم يحبونهم حبًّا متساويًا ؛ ولذلك فلا مبرر للغيرة !

– أنتم أشقاء ، كيف يمكن أن نفضل واحدًا على الآخر؟ مشاعرنا تجاهكم متساوية تمامًا ، لا تنقص ولا تزيد ، فى كل شيء نساوى بينكم : فى الملابس ، فى مصروف الجيب ، فى الهدايا ، فى النزهات – فى كل هذا عدالة ومساواة مطلقتان !

لكن لا هذا الموقف ولا ذاك يخفف من الغيرة : لا العقاب الشديد ولا المساواة الكاملة تحل المشكلة وتوقف سعى أى منهم لمزيد من الحب والرعاية ! وعندما لا يتحقق هذا تبدأ الغيرة ! وعلى كل سواء انطفأت نيران الغيرة بسلام أو اندلعت حريقًا فالأمر يتوقف على اتجاه الأبوين وتصرفها !

ولنجب الآن عن ذلك السؤال :

● ما دوافع الغيرة؟ ما أسبابها الأخرى؟

فى الظروف العادية يشكل سن الطفل ونوعه – إن كان ابنًا أو بنتًا –

الدوافع الرئيسية للغيرة : الابن الأكبر يُحسد على أن له مزايا أكثر ، ويحترم أكثر، وله استقلال أكبر! الأصغر يغار منه لأنه يُحمى ويرعى بشكل أكبر وأكثر ، البنت تغار من حرية الولد ، والولد يغار من الاهتمام الأوضح بالبنت ! وتشتد نيران الغيرة حين يعطى الآباء هذه الفروق أهمية ، ومن حق الصغير أن يغار إذا أحس أن الكبير له أفضليته ، والعكس صحيح ! وإذا قومنا ذكاء طفل وفضلناه لهذا ، أو لجمال شكله أو بقدراته ومواهبه فسيثير هذا الغيرة ، وخاصة إذا انهالت منا على الطفل عبارات المديح لهذه الصفات ! يجب معاملة الإخوة سواسية ، الميزات التى هى أكثر تعنى مسئوليات أكبر. بمعنى أن الابن الأكبر يحصل على مصروف أكبر ، ويتأخر فى الذهاب لفراشه ، الصغير ويحتج ، فنقول له :

● إنك تريد أن تصير مثل أخيك ، وتتمنى لو أنك كبير مثله ، لكن ها قد حان موعد نومك !

وقد يطلب الآباء من بعض الأبناء التضحية من أجل أشقائهم:

● اترك سريرك ، ونم أنت على الأريكة الليلة .

● لن نستطيع أن نشترى لك مكتبًا هذا العام ، لأننا فى حاجة إلى نقود من أجل شقيقك .

إن الطفل هنا يحس أنه حُرم ، وأن الحرمان من أجل أخيه ، فيغار منه ، كما أن هؤلاء الذين يتصورون أن العدالة المطلقة ممكنة فإنهم دائما يفشلون : يجب أن يكون فى الاستطاعة الآن أن نعطى واحدًا من الأبناء تفاحة أكبر فإنه لشىء لا يطاق ذلك الجهد الذى يبذل من أجل مساواة مستحيلة عاطفية ومادية ؟ إنها تدفع صاحب المحاولة إلى توتر وتمزق عنيفين نتيجة قياسه لدرجة العطاء فى

الحب ، لكن الواقع أن حب الآباء لكل ابن من أبنائهم حب خاص متميز ، التركيز على نوعية الحب ، وليس على كميته .. إننا لا نحبهم بالطريقة نفسها ولاداعى للتظاهر بذلك ، إننا نحب كلا منهم على حدة بنوع معين ، بنوع بذاته من الحب . ويجب ألا نغفل هذا ، لأنه فى حالة المساواة سيمسك كل طفل ترمومترًا يقيس به حرارة العواطف ، ونجد نفسنا أمام أطفال يقول كل منهم فى كل لحظة :

- هذا ليس عدلا !
- إن هذا ظلم !

يجب ألا ننفعل لضجيجهم وإعلاناتهم هذه ، إنها « بروباجندا » .. علينا ألا نهتم بالدفاع عن أنفسنا ، فلنقاوم اضطرارنا فى كل لحظة إلى تبرير مواقفنا ، ولنقاوم محاولتهم لجرنا للنقاش الذى لا ينتهى حول قراراتنا . عادلة هى أم لا ؟ ويجب ألا ندفع إلى تحديد عواطفنا وقياس حبنا من أجل العدالة فنقول لكل منهم : إننا نحبه حبًّا خاصًّا ، وليس متساويا ولا عادلا ، فلنعط الطفل أنفسنا لفترة . له وحده ، ولا نشغل بغيره حين نكون معه بالخارج ، لا نتحدث عنهم باستمرار أو نشترى هدايا لهم : لتكون لحظاتنا معهم لاتنسى . وليست مقتسمة مع آخرين !

الخوف والقلق عند الأطفال

أكبادنا : عند كل منهم نصيب من الخوف والقلق ، والآباء والأمهات يجب أن يدركوا هذا ، ويجب أن يعرفوا مصادر هذا الخوف والقلق ، إن بعض الأمهات يتساءلن :

● لماذا يبدو ابنى خائفًا دائمًا ؟ ليس هناك مبرر لهذا ! ولقد ذهب الأمر بأحد الآباء أن قال يومًا وهو يخاطب طفله القلق :

● كف عن هذا الكلام الفارغ ! أنت تعلم جيدًا أنك سعيد جدًّا !

ومن الضرورى والمفيد أن نبحث فى مصادر القلق عند أبنائنا ، لكى نقدم بعض سبل علاج الخوف ، وبعض وسائل تخفيف القلق . وأول هذه المصادر يرجع إلى الخوف من أن يفقد حب والديه ، والقلق من أن يهجراه ! ولقد وصفها جون شتاينبك بشكل درامى فى روايته « شرق عدن » قال :

● إن الرعب الحقيقى الذى يعانيه الصغير هو ألا يكون محبوبًا ، إن رفضه هو جهنم التى يخشاها . ومع الرفض يأتى الغضب ، ومع الغضب يرتكب بعض جرائم الثأر ! أحد الأطفال كان يلتمس الحب ولم يجده فما كان منه إلا أن راح يركل القطة ، وهو يخفى جرمه هذا ، وهناك طفل ثان كان يسرق من أجل أن تجعله النقود محبوبا ، أما الثالث فكان يريد أن يهزم العالم كله ؟ هناك جرم متكرر وثأر !

إن الطفل يجب ألا يهدد أبدًا بالهجران ! ولابد أن نحذر أن نشير لهذا من خلال نكتة أو فكاهة ، ويجدر بنا ألا نقولها فى لحظات الضيق والغضب ! يترامى إلى آذاننا أحيانًا ونحن فى الشارع أو فى السوق صوت أم تصرخ فى طفلها :

– إذا لم تأت حالا فسأتركك .

مثل هذه العبارة تجعل الفزع ينشب أظفاره فى نفس الصغير ، إنها تثير خيالاته فى أنه قد يترك وحيدًا فى هذا العالم ، ومن الأفضل بدلا من تهديده بهذه العبارة أن نمد له يدنا لنسحبه معنا !

وبعض الأطفال يقلقون جدًّا إذا عادوا من المدرسة ولم يجدوا أمهاتهم ، إذ تصحو لديهم مخاوفهم من أن تهجرهم أمهم ، لذلك نصحنا بضرورة ترك رسالة لهم ، وعندما تضطرنا الظروف للبعد عن الأبناء الصغار يجب أن نمهد لهذا !

إن بعض الآباء يجدون من الصعوبة إقناع الأبناء باضطرارهم للبعد عنهم فى مهمة أو رحلة ، فيتسللون ليلا أو فى أثناء اليوم المدرسى خوفًا من رد الفعل على أطفالهم ، ويتركون علائم شرح الأمر ، ويبكى الأطفال ، وقد ينتظرون الآباء عند النافذة .. والتفادى من ذلك كان ممكنًا بالتمهيد والشرح ، لا بالكلمات فحسب ، بل عن طريق أوثق ، ونفضل أن ندع إحدى الأمهات تحكى تجربة لها فى هذا المجال :

– قبل أن أدخل المستشفى لإجراء عملية جراحية ، بأسبوعين كاملين – أخبرت ابنتى بذلك ، وعمرها كان ثلاث سنوات ، ولم تبد اهتمامًا كبيرًا بالأمر ، ولكننى لم أخدع باللامبالاة التى أبدتها ، واقترحت عليها أن نلعب لعبة اسمها « ماما ستذهب إلى المستشفى » .. وأتينا ببعض العرائس واللعب اشتريناها

خصيصًا لهذه المناسبة ، بينها طبيبة وممرضة ، وخلال اللعبة قلت : إن ماما ستذهب للمستشفى لتعود سليمة معافاة .. وسوف تسأل « ليلى » أين ماما ؟ أريد ماما ، قد تبكى ، لكن ماما فى المستشفى ، لتعود بخير وصحة جيدة ، وهى هناك تفكر فى « ليلى » وليلى لا تنسى ماما وتعود ماما للبيت وتفرح ليلى !

وقد تكررت هذه التمثيلية بين الأم والابنة . كانت الأم فى البداية تتكلم كثيرًا ، ثم بدأت الابنة تتحدث ، وأوصت الأطباء والممرضة بماما ، وأنهت الابنة التمثيلية بأنها فى انتظارها فى البيت حين ترجع من المستشفى . وقبل أن تغادر الأم البيت قامت بأشياء كثيرة من بينها وضع صورة كبيرة لها تؤنس الصغيرة ليلى حتى تعود إليها ، فالبعد من أكثر الأشياء إثارة لقلق وخوف الأطفال ، ويأتى بعده فى المرتبة :

● الشعور بالذنب .

ذلك الشعور الذى يغرسه الآباء فى نفوس الأبناء ، وهذا الشعور ، كالملح يعطى الحياة طعمًا ، ويرد الإنسان لطريق الصواب ، ويشكل للصغير ضميره ، لكنه يجب ألا يكون الأساس ، وعندما يتخذه الطفل قاعدة أخلاقية أو سلوكاً اجتماعيًا فهناك مجال للشعور بالإثم أو الذنب ، ولكن عندما نحول بين الطفل وبين أن تكون لديه مشاعر سلبية أو أفكار سخيفة فسوف يحس بالإثم والقلق ! وعلى الآباء الذين يريدون التفادى من ازدياد وطأة الشعور بالذنب أن يعالجوا خروج أبنائهم عن الخط المرسوم بالطريقة التى يعالجون بها نفسها سيارتهم إذا تعطلت ! إن ذلك لا يعنى ذنبًا ارتكبه صاحبها ، إنه فقط يشير إلى ما يجب إصلاحه دون لوم يوجه للسيارة ، أو للأصوات الصادرة عنها ، بل هو يفيد منها فى الإجابة عن سؤال يوجهه لنفسه :

● ما مصدر الخطأ ؟ ما سبب المتاعب ؟ من أين يصدر هذا الصوت النشاز ؟ إنه لما يريح الأطفال أن يعرفوا مسبقًا أن لديهم الحرية الحقيقية لكى يفكروا كيفما يريدون . دون أن يهددوا بفقد حب آبائهم لهم ، ومما يساعد فى هذا المجال عبارات كهذه العبارات :

● إنك تحس الأمور بشكل ، وأحسها أنا بشكل آخر ؟ إننا نختلف فى مشاعرنا تجاه الموضوع .

● يبدو لى أن رأيك صائب . رأيى مختلف . إننى أحترم رأيك ، لكن لى وجهة نظر أخرى .

وقد يخلق الآباء لأبنائهم الشعور بالذنب إذا استعبدتهم الكلمات ، وعذبتهم العبارات ، وقدموا تفسيرات وتبريرات غير ضرورية .. وهذا يحدث كثيرا من « الآباء المصريين » ، الذين يعتقدون أنهم لابد أن يتجهوا للمنطق والإقناع حتى لو كان الموضوع واضحًا لا يحتاج إلى نقاش أو جدل !

● كان محمود – ابن السنوات الخمس – ضيق الصدر بمعلمته فى المدرسة ، لأنها تغيبت أسبوعين عن المدرسة لمرضها . وفى يوم عودتها خطف حقيبتها وجرى فى فناء المدرسة وتبعته المعلمة والأم .. قالت له المعلمة :

● هذه حقيبتى ! أعطنى إياها .

وقالت له الأم :

● أنت تعلم جيدا يا محمود أن هذه الحقيبة ليست حقيبتك ، إن فيها دواء معلمتك .. وإذا لم تعدها فقد تصاب بالبرد مرة أخرى وتتغيب عن المدرسة وأنت بالطبع لا تريد هذا .

إن المشكلة أن مثل هذا الشرح قد يدفع الصغير إلى الشعور بأنه تسبب فى

مرض معلمته ، إنه شرح طويل وممل وضار ، كل ما كان مطلوبًا فى هذه اللحظة استعادة الحقيبة ، وحقيبة فى اليد خير من عشر عبارات فى الفناء لشرح ضرورة إعادتها ! قد تناقش المعلمة فيما بعد الأمر مع محمود عن السرقى غيابها ، وتوضح له كيف يمكن تقبله حتى لايصير الغياب مصدر قلق للطفل ، لأنه يتصور نفسه متسببًا فيه ، مذنبًا ، آثمًا ، ويأتى بعد الشعور بالذنب مصدرًا للقلق – ذلك الخوف الناتج عن أفكار الاستقلال الذاتى للطفل ، واستصغار منزلته ومكانته والسؤال :

● متى يحدث هذا ؟

يحدث هذا عندما يمنع الطفل من الاشتراك فى النشاطات ، وتحمل المسئوليات التى يستطيع القيام بها .. ويكون رد الفعل الداخلى لهذا الغضب الذى يدفعه للثأر والانتقام ، وهذا بدوره يولد الشعور بالاثم أو الخوف من العقوبة .. والنتيجة المرتقبة هى : القلق ، وتنصحنا أم مجربة فتقول :

● إن الأطفال الصغار ليسوا قادرين على السيطرة على بعض المهارات بسرعة ، هم يستغرقون وقتًا طويلا فى عقد رباط حذائهم ، أو فك أزرار قصانهم ، ولكن مساعدة لهم يمكن أن نقدمها لهم فى هذا المجال هى تعليقات خفيفة حول صعوبة مايقومون به .

● إنه ليس سهلا أن يفك الإنسان عقدة رباط الحذاء !

مثل هذه التعليقات تساعد الطفل سواء نجح فى عمله أو فشل : إذا نجح فإن هذه العبارة ترضى غروره ، وإذا فشل فإن عبارة كهذه ستكون خير عزاء له ، لأن الأم – أو الأب – قالت له : إنها مهمة ليست سهلة .. هذا بفضل أن خبرات الأطفال العاطفية تقود إلى مزيد من الارتباط الودى بالأبوين ، ولا

يحس الطفل بالعجز إذا لم يحقق النجاح فى أمر ما .. والمهم ألاَّ يسيطر الكبار على حياة الطفل باحتياجهم « للكفاية » .. (الكفاية) و (القدرة) من أعداء الأطفال .. إنها تكلفهم الكثير عاطفيًا .. إنها تسلبهم جهدهم ، وتحول بينهم وبين النمو وقد تقود إلى انهيار عاطفى .. فلنحذر من أن نجعلها مقياسًا لتقدير الطفل ، فهما من أخطر أسباب إحساسهم العميق بالقلق والخوف !

مصادر خوف الأطفال وقلقهم

أكبادنا : يحسون الخوف والقلق بسبب الإحساس بالذنب ، وإنكار استقلالهم الذاتى ومنزلتهم الخاصة من جانب الكبار ، بجانب الخوف من أن يفقدوا حب والديهم وقلقهم من هجرانهما لهم ! يضاف إلى ذلك أن النزاع بين الأبوين يسبب لهم مزيدا من الخوف والقلق : إن بيتهم مهدد ، كما أنهم قد يشعرون بالإثم ؛ لأنهم قد يتصورون أنهم وراء الصراع بينهما وهم – أى الأطفال – لا يبقون محايدين فى الحرب الأهلية بين الأبوين ! وهم أحيانًا مع الأب وأحيانًا مع الأم .

وهذه اللحظات المذبذبة فى منتهى الخطورة على كلا الأبوين : نفسيتهما وشخصيتهما .. وقد يرتفع صوت طفلة تقول :

– أنا مع ماما !

ويعلو صريخ طفل قائلاً :

– أنا مع بابا !

عندئذ قد ينمو الصغير وهو معاد لكل من ليس من جنسه ، وإذا رفضت

الابنة أمها ورفض الابن أباه مما كل منهما دون أن يكون لديه مثل أعلى يحتذيه .. وخلال الصراعات الأسرية يستخدم الآباء كلمات غير تربوية مثل : الغش ، والكذب ، والخداع ! ولنا أن نتصور مدى تأثر الصغار بهذه الكلمات ، فضلا عن ازدواجية ولائهم ! ولاشك أن حماية أحد الأبوين من الآخر وصراعهما معا - لابد أن يترك بصمة على شخصية الطفل ، بل قد يستقبل الصغير هذه الصراعات ويهدد ويتجسس ، ويعيش فى عالم تسوده التمزقات ..

وهذا القلق الناجم عن المشاكل الأسرية موضوع قد يطول فيه الحديث ، ويحتاج إلى وقفة أخرى .. كل ما هنالك أن الإشارة إليه هنا ضرورة خلال دراسة سريعة لمصادر القلق ، وينجم بعضه من القيود المفروضة على حركة الطفل .

- احذرى الأثاث ، لاتقفزى على المقعد .

- كف عن الجرى داخل الشقة .

إن بيوتنا الحديثة ضيقة ، وهى تمزق الصغار لأنها تحد من حركتهم ونشاطهم الضخم لضيق المساحة ، فالخوف على الأثاث وتكديسه يحول بين الصغار والجرى والتسلق والقفز .. وتبدأ التعليمات حول هذا الأمر من سن مبكرة : فمرفوض أن يقف الصغير فى عربته ، ومرفوض أن يقفز فى مهده ، وغير مقبول أن يتسلق الدرج ، أو يجرى فى الغرف الأمر الذى يضايقهم ويسبب لهم التوتر الذى يخلق القلق ! والحل يكمن فى وصف المشكلة ذاتها : الأطفال فى حاجة للانطلاق ، هم فى حاجة إلى مساحة ومكان ، إلى فناء وحديقة ، لتستوعب نشاطهم وحيوتهم الفائقة ! وسؤال :

هل من مصادر أخرى لقلق الأطفال ، فقد يمكن التفادى منها ؟

كثيرة لاتحصى مصادر قلق أكبادنا : إنهم مثلا يقلقون من انتهاء حياتهم ، بالنسبة للكبار تكمن مأساة الموت فى أنه النهاية الأبدية والأخيرة لكل الآمال ، وهو أنه لا يمكن التفادى منه فلا أحد يتصور كيف ومتى يأتيه الموت ؟ والنفس الإنسانية مزيج من الذاكرة والآمال : ما من مستقبل ، والإنسان لا يستطيع أن يرى نفسه بلا مستقبل ، وهذا ما يجعله يواصل الحياة .. وإذا كان الموت لغزًا بالنسبة للكبار فهو سر ملفوف فى ضباب بالنسبة للصغار ! إنهم لايستوعبون أنه أبدى ، إنه يشعر بالعجز وعدم القدرة على التأثير فى الأحداث .. برغم الدموع والبكاء لايعود العصفور الذى انتهت حياته .. إنه يشعر أن عصفوره هجره ويتصور أنه لو كان يحبه لبقى معه – وهناك سؤال قد يوجهه كثير من الأطفال :

– بعد موتك يا أبى هل ستظل تحبنى ؟

ويحاول بعض الآباء أن يحموا أطفالهم من تجربة الحزن الشديد على من يفقدونه ، إن الأب يستبدل بسرعة بالسمكة الميتة فى الحوض أخرى ، وبالعصفور فى القفص آخر ! وقد لا يلاحظ الطفل الفرق .. وهناك سؤال :

* ماذا يتعلم الطفل من هذه الدروس الحزينة المبكرة ؟

قد يرى فقد عصفوره أمرًا عرضيًا ، لأن حبه يتحول للعصفور الجديد ، لكن يجب ألا نسلب الصغير حقه فى أن يشعر بالأسى والحزن ! إن ذلك يعمق إنسانيته ويبلور شخصيته ، بشرط ألا يتمادى ، وبشرط أن يقبل من الآخرين مشاطرته الأحزان واقتسامها معه ؛ كما يحدث فى الفرح والبهجة ! وعندما يقع حادث وفاة فى الأسرة ، ولا يبلغ ذلك علم الطفل – قد يحس بقلق لايدرى سره ! وقد ملأ ذلك الفراغ الحادث بخيالات مريضة مخيفة مضطربة ، ويحس أنه منفصل لا عن الميت فحسب ، بل منفصل عن الأحياء أيضًا ! إن الخطوة

الأولى فى مساعدة الطفل على مواجهة خسارته بفقد عزيز عليه أن نسمح له بالتعبير عن أحزانه بالبكاء والدموع ، إن مشاعره يجب أن تفرغ من صدره ، ويبدأ دورنا فى تقديم العزاء والسلوى للأطفال بمشاركتهم فى مشاعرهم هذه بأذن مصغية .. بل نفضل أن يضع الآباء على ألسنتهم بعض مايدركون من مشاعر الصغار ، ولا يجد هؤلاء وسيلة للتعبير عنها : ومثلا لو أن الجدة ذهبت للقاء ربها ، والطفل كان مرتبطًا ولصيقًا بها قد يكون من المفيد أن يتبادل الأبوان عبارات كهذه :

- إنك تفتقد جدتك ..
- واضح أنك حزين لفقدها
- لقد كنت تحبها كثيرا وكانت تحبك .
- كنت تتمنى أن تكون دائمًا معك .
- كنت تود لو امتدت بها الحياة .
- إنه لمن الصعب فعلاً أن نصدق أنها رحلت .
- إنه شاق أن تتصور أنها لم تعد معنا .
- إنك سوف تذكرها دائما .. بالخير !

مثل هذه العبارات تؤكد مشاركة الأبوين للطفل فى مشاعره وأفكاره وتشجيعه على أن يقتسما والطفل مخاوفه وخيالاته ! قد يرغب الصغير فى أن يعرف : هل الرحيل يؤلم الراحل ؟ وهل سيبعث يومًا ما ؟ وهل هو أو أبواه - من الممكن أن يتركوا هذه الدنيا ؟ الإجابات يجب أن تكون قصيرة وصادقة .. إن الراحل لا يتألم إنه لا يحس لأنه كالنائم ، وهو لايعود إلا فى الحياة الأخرى ، من الطبيعى أن يرحل الإنسان ، لو دامت الحياة لغيرك ما وصلت إليك !

وعندما قيل لطفلة فى الرابعة – إن جدها ذهب لينام نومته الأخيرة ، سألت :

● هل أخذ بيجامته وملابس نومه معه ؟

كما أن الصغيرة تساءلت :

أرجو ألا يكون جدى غاضبًا لأنى لم أقل له (تصبح على خير) قبل أن ينام ! وعندما نقول لصغير عمره خمس سنوات – إن جدته قد صعدت روحها للسماء وأصبحت كالملائكة دعا ربه قائلا :

أرجو يارب أن تأخذ إليك فى السماء كل أسرة ، وتحولهم إلى ملائكة .. !

وعندما يعطى الصغير الحقائق ببساطة وصدق ، مع مشاعر حقيقية ونظرة حب تصبح أكثر ثقة فى الحياة وفى نفسه . . وهذا الفهم يجعل الأطفال وآباءهم أكثر قدرة على استيعاب حقائق الحياة والموت .. وفى كل المسائل الهامة تتحدث الاتجاهات بصوت أعلى مما تتحدث الكلمات .

الدين والتربية

١

التربية مسئولية : البيت ، والمدرسة ، والمجتمع .. وهذه الأطراف الثلاثة ضرورية ولا غنى عنها فى كل لون من ألوان التربية ، ولابد أن تتضافر جهودها .. والنداءات تتصاعد من الهيئات الرسمية ، ومن الجماعات ، والهيئات ، ومن أجهزة الثقافة والإعلام ، ومن الصحف والمجلات ، ومن الأفراد : أننا فى حاجة ماسة إلى التربية الدينية .. ونحن ندرك جيدًا أنها تبدأ مع البيت ، فما من طفل يرى والده يصلى إلا ويفرش سجادة الصلاة ، ويروح يقوم ويركع ويسجد مقلدًا أباه .. ونبتسم لهذا كثيرًا ، وقد يرضينا ، فنشجع الصغير عليه ، وقد يتصور البعض أن تقليده لأبيه شىء غير مستحب فينهاه عن ذلك ، على أن هذه هى أول بذرة للدين فى نفس الطفل .. والآباء والأمهات قدوة فى هذا المجال : وإذا شب الابن وهو يجد من فى البيت يؤدى الصلاة ، ويصوم رمضان ، ويستمع إلى القرآن الكريم ، ويذكر الله كثيرًا ، فإن هذا الابن سوف يقلد أسرته ، ونتوقع منه أن يكون من المسلمين الصائمين الذاكرين الله ، المحبين لكتابه العزيز ، يتلون آياته ، ويرتلونها ، ويصبحون لها من الحافظين .. والعكس صحيح .. ولدينا تعاليم واضحة من ديننا بالنسبة للأبناء .. فنى الصلاة ، مطلوب أن يتعودوا عليها من سن السابعة ، وأن يُضْرَبُوا

عليها فى سن العاشرة إنْ هم تركوها .. والصوم ، إذا احتمله الصغير وأطاقه ثلاثة أيام . متوالية ، وجب عليه أن يصوم الشهر كله كما جاء فى حديث شريف على أن ديننا الحنيف ليس صلاة وصياماً وعبادات فحسب بل هو أيضا قيم أخلاقية نعتنقها ، ونؤمن بها ، ولابد من تطبيقها على النفس قبل أن تطبق على الآخرين ، ولهذا يجب أن تخلص النفوس وتصفو ، وتشف وترق ، لكى يسود المجتمع ما نادى به الإسلام ، قاعدة للتعامل بين الناس ، وأساسا سليما لبناء يعلو ويرتفع ، معلنًا الإخوة والمساواة ، العدالة والتقوى ، التعاون والحب .. إلى آخر هذه القيم التى درجنا على أن نجعلها تعاليم السماء ، فى حين أنها فى مجتمعات أخرى يرونها أخلاقيات اجتماعية يتدربون عليها حتى أصبحت سمة من سمات الحياة لديهم .

والأسرة كما قلنا تضع البذرة الأولى للتربية الدينية ، وكان المسجد يروى هذه البذرة كمدرسة إسلامية ، وذلك قبل أن ينفصل المسجد عن المدرسة ، ليصبح كل منهما مؤسسة قائمة بذاتها ، لها دورها فى حياة أبنائنا ومجتمعنا .. والحق أن المسجد تأثر إلى حد كبير بهذا الانفصال ، حتى صار مكاناً للصلاة فحسب ، وقد بدأ أخيرا بحمد الله يستعيد مكانته التربوية والدينية ، مكتبة ومجتمعا ، ومنبرا للإرشاد .. ويجب أن نعمل على تنمية دور المسجد ، لكى يؤدى رسالته كاملة ، مؤسسة عليها مسئوليات كبيرة ، وبالذات فى مجال التربية الإسلامية .. ولكى تؤمن الأسرة كلها : الأب ، والأم ، والأبناء ، يتلقون عنه تلك البساطة الرائعة فتنشرح فيه صدورهم ، ويرون النور ، ويشمون العطور ، ويتقربون إلى الله زُلْفَى ، وَمَشْيُكَ للمسجد مثل مشيك لأَهْلِكَ ، فيه ثواب من الله .

وتأتى أجهزة الأعلام ، بجانب المدرسة ، وسيلة للتربية الدينية ، ورائع أن

تُذَكِّر هذه الأجهزة الناس بمواقيت الصلاة ، وجميل أن تحتفل بالمناسبات الإسلامية ، وعظيم أن تخصص برامج عدة للأحاديث الدينية .. وسؤال يطرح نفسه : هل الأسلوب الذى يتخذ محبب للنفوس ؟ هل يوضع كل هذا فى إطارات تجعل المستمع يقبل عليها ويرضى عنها ؟! .. ثم هل من تنسيق بين هذه الأجهزة التى تنوب عن المجتمع فى التربية الدينية ؟! .. لانريد لجهاز منها أن يجهز على ما تبذله الأجهزة الأخرى ، بل نود لها أن تتكامل وتتضافر جهودها مع البيت والمدرسة من أجل إنسان جديد ، مؤمن بدينه وربه ..

ويأتى تيار الرأى العام فى الآونة الأخيرة مع الدين بشكل طيب ، وإن ارتفعت بعض الأصوات تنبه إلى بعض المحظورات التى قد نقع فيها .. من بينها أننا لا نريد أن يشب الأبناء متواكلين .. إننا نريدهم أن يتكلوا على الله فى الوقت الذى يعملون فيه وينتجون ، فالتواكل مرفوض ، والاتكال على الله هو أساس متين للتقدم والبناء .. ونريد أيضا ألا يشب الأبناء متعصبين . وديننا أساسه التسامح ، ولانود أن يسجنوا أنفسهم فى الماضى ونريدهم أن يعيشوا تاريخهم ، بل نريدهم أن يدركوا أن الدين أساس للحضارة وإذا كنا نريد أن نبنى حضارة جديدة تعيش طويلا فلابد أن تُبْنَى على الدين بعد أن أعمت المادة عالمنا شرقه وغربه ..

٢

الدين علاقة بين الإنسان وربه ، والإنسان ومجتمعه ، والإنسان ونفسه .. لذلك يشغل جانبًا هامًّا من حياتنا الفكرية ، والعملية ، والتربوية .. وقضية

الدين واحدة من أخطر قضايانا التربوية .. وكل طفل يذكر ذلك اليوم الذى حمل فيه إلى المدرسة سجادة وفوطة ، وقماشة رقيقة تغطى بها الطفلة رأسها .. ويعلمون الأطفال الوضوء والصلاة لله .

على أن حصص التربية الدينية لم تكن كلها موضع حب وحفاوة من جانبنا ، فقد عمرت بموضوعات تخيفنا من الله وتريعنا من جهنم . وتملأ نفوسنا إزعاجا ، كما أن أستاذنا قد يحدثنا عن (الحلم سيد الأخلاق) ، ويقع أبسط شيء فإذا به ينفجر غضبا ، ويفسد وينهى كل ما قاله عن الحلم . وفى مرة زارنا المفتش وسأل مُعَلِّمنا عن آخر درس وَصَلَ إليه ، فأجابه المعلم بأنه قد وصل بنا إلى درس (الصدق) ، وتجاوزه ، فى حين أن ذلك لم يكن صحيحًا .. والحق أن ما نفقده بهذين الحادثتين أكثر مما نحصله فى جميع حصص الدين .. إذ نفقد القدوة الصالحة فى المعلم ونفقد البوصلة التى تهدينا قبلتنا : الدين ، والبيت الحرام وكتاب الله .

وعندما نقلب فى كتب التربية الدينية نجد أننا مازلنا نحاول أن نحشو ونحشد المعلومات فى ذهن الصغير بشكل يجعل هذه المادة غير ما نريد لها أن تكون .. إننا نريدها محبوبة مقبولة . نريد أن نرسب بها الإيمان فى قلوب الأبناء . لكن ما أبعد الهدف عن أسلوبنا ووسيلتنا إليه . إن مهمة المدرسة بشكل عام أن تعطى أساسا للمعرفة ، وأن تحبب الأبناء إلى المعرفة ، وأن ترشدهم إلى سبلها وأماكنها ، أما هذا الذى نفعله فهو شيء آخر مجرد معلومات ومعارف كثيرة كثيرة .. هل نتصور أننا نستطيع بالمدرسة أن نعطى كل علوم الأرض ومعارفها ؟ لا أظن .. إذن ، لماذا نهتم بإطالة المقرر المدرسى ، ولا نهتم بتحبيب أبنائنا إلى مادة هى صلة الإنسان بربه وبمجتمعه ونفسه ؟.. إن المعلم يؤدى حصته ودوره —

كموظف – يتقاضى أجرًا على عمله ولا يؤديه بإيمان ، ولا يجعله وسيلة قُربى لله تعالى ثم إن قراءاته الدينية متواضعة بشكل يجعل من الصعب عليه أن يرد على الأسئلة والاستفسارات ؛ والأبناء يدركون بشعورهم مدى تعمق معلمينا فى مادتهم ومدى استيعابهم لها .. على أننا نعرف جيدًا أنه إذا تحملت المدرسة بالكامل مسئولية العلوم والرياضيات والمواد الاجتماعية وغيرها فإنّ المسئولية فى التربية الدينية لاتقع على عاتق المدرسة وحدها ، بل إنها مسئولية البيت والمجتمع .. ربما يصدق فى التربية الدينية أننا ندرس النظرية فى المدرسة ، وأننا نطبقها فى البيت والمجتمع .. فإذا لم يشع جو من الإيمان فى المدرسة والبيت والمجتمع جو عبقٌ ، عطِر ، فواحُ الرائحة فإننا لانتوقع من أبنائنا فهما واستيعابا وممارسة للدين . . إن الدين معايشة يومية ، وليس درسًا ، يلقى فى المدرسة أو المسجد . . ولا اتصال ولا انفصام بين مادته وبين الحياة . . فهو بالقطع ليس مجرد معرفة وعلم . . لهذا فهو يحتاج منا إلى جهد أكبر لكى نقدمه وجبة شهية للأبناء .

إن معرفة الدين ضرورية ، وخطوة على طريق اعتناقه كأسلوب للحياة ووسيلة للتقرب إلى الله ، والرضا عن النفس والثقة بها دستور للمعاملات بين الناس .. والسؤال .. هل نغرس فى الأبناء شوقًا إلى معرفة دينهم ؟ هل نعطيهم مفتاحًا إلى هذا الكنز الإلهى الربّانى لكى يغترفوا منه بعد أن تنتهى دراستهم له فى المدرسة ؟ هل ندلهم على الكتب والمراجع لكى يواصلوا تعلم الدين وفق أسلوب (التعليم المستمر) ؟!

تلك هى مسئولية المدرسة ، لكى يواصل الأبناء دراسة الدين ، ولكى يزدادوا معرفة ، وحبًّا له .

٣

سؤال يطرح نفسه .. ما هو أقوم وأفضل سبيل للتربية الدينية ؟! ..

مما لا شك فيه أن « القدوة » هنا هى المدرسة الأولى .. القدوة فى البيت ومعاهد التعليم ، والمجتمع بشكل عام .. وتأتى معرفة الإنسان لدينه خطوة تالية على طريق التربية الإسلامية ، وهذه المعرفة لا تكون فحسب عن طريق التلقين ، والشرح والإفاضة والتكرار .

لقد درج رجال الدين على أن يقدموه فى صور تاريخية عن السلف الصالح وبعض آيات الذكر الحكيم ، والأحاديث ، ثم جانب من المعاملات والعبادات .. وكل ذلك مطلوب ، لكن الوسيلة إليه يجب أن تكون حديثة عصرية ، تواكب الحياة .. كما يجب علينا ألا نغرس فى نفوس الأبناء « التواكل » ، وألا ندفع بهم إلى « التعصب » .. فإن البعض بما يقدمه يجعل الصغير متواكلا معتمدا كل الاعتماد على أن الله سيحقق له كل شىء ، بدون أن يبذل الطفل من جانبه أى جهد ، كما أن سن الأبناء قد تدفعهم إلى فهم قشور الدين والتعصب للمظهر دون الجوهر .. وهذه محظورات لا نود أن نقع فيها .. ومن الضرورى أن يتسرب الدين إلى بقية مواد الحياة ، وألا يقتصر على حصة الدين فى المدرسة ، بمعنى أننا نستطيع أن ندرك عظمة الخالق من قراءة العلوم ، وقدرته سبحانه وتعالى فوق كل قدرة فحين نتعرف إلى الخلية الحية ، أو إلى الذَّرّة ، لا نملك إلا أن نزداد إيمانًا به ، وأيضا حين نتطلع إلى الفضاء وإلى الكواكب والنجوم .. وفى قراءتنا للتاريخ يجب التركيز على التاريخ الإسلامى ،

وكيف كان الدين وراء الازدهار الغربي بالتقدم العربي . . إن الدين يمكنه أن يكون مدخلًا رائعاً لكثير من ألوان الثقافة .

وبودى أن نقرب لأبنائنا كتاب الله . القرآن الكريم .. لغة وفهمًا .. إن الله حين أراد أن يهدى البشر ، بعث إليهم بهذا « الكتاب » الذى يُقَوِّمُ الألسنة المعوجة ، بل يصلح القلوب والنفوس المريضة أيضا .. وقد درجنا على تحفيظ الأبناء بعض قصار السور وعلى اختيار بعض الآيات الكريمة لشرحها لهم .. ويجب أن نفتش عن أنسب سبيل لكى نفتح القلوب لقراءة القرآن ، وللاستماع إليه من خلال أجهزة الإذاعة والتليفزيون ، ومع مراعاة سنهم و الثروة اللغوية لهم .. كما أن الأحاديث الشريفة .. إذا شُرِحت .. سوف تلقى من الأبناء كل إقبال وحب ..

إن رحلتنا مع الإيمان منذ الطفولة تجعلنا ننادى بضرورة تقديم « الله » للأطفال على أنه حب ، ورحمة .. يجب أن نبعد ما بين الأبناء وما بين الخوف والرهبة من الله ..إن كل كبير – كالأب والأم – يمثل بالنسبة لهم سلطة إرهاب ، ويتسبب فى إحباطات لا نهاية لها .. ومن هنا فإن التناول لموضوع (الله) جلَّ جلاله يجب أن يكون بفهم وعمق وحب وود .. وكل ما يروى من حكايات يجب ألا تكون مزعجة مفزعة .. والإجابات عنِ الأسئلة تكون فى حدود ، ولا تفتح الأبواب لأى سؤال جديد .. ولعل حديثا واحدًا يقرب مفاهيم الدين والإيمان ، ويفتح مغاليق القلوب أفيد بمراحل من دراسات طويلة ممتدة لا تترك فى ذهن متلقيها شيئا ، ولا ترسب فى نفسه ذرة من إيمان .. وفى شخصية الرسول – عليه الصلاة والسلام – ما يشد الصغار ، ويبهر الكبار ، وليتنا نقدم لهم هذه الشخصية الرائعة فى ثوب يجعلهم يجرون وراء معرفته معرفة

حقيقية ، ويدفع بهم إلى أن يلهثوا بحثا عن دقائق حياته وأفكاره وأحاديثه .. وأيضا حياة الخلفاء والحروب الإسلامية والبطولات ، وبالذات فى مواجهة أعداء الدين والقومية ، أمر يحتاج إلى دراسة ، بشرط أن نربطه بالواقع المعاصر ، فلا يبقى كل ذلك فى إطار التاريخ ، وفى إطار (ليس فى الإمكان أبدع مما كان) !

إن جهودنا فى موضوع الدين كبيرة ، ولكن الدين مادة تتجاوز فى أهميتها كل المواد ، وموضوع من أخطر موضوعات الدراسة وأن ما نجنيه منه لو أننا نجحنا فيه فسوف يكون أروع ثمار التعليم إنه أمر يتصل بالقيم والسلوك .. يتصل بالتطور والتغيير ، يتصل بالمجتمع والعدالة الاجتماعية ، ويتصل أخيرا بصلة الإنسان بنفسه ، وهى صلة لابد أن تعمر بالإيمان ، بدلا من أن ينفصل وينقسم عنها ، وتنتابه أمراض العصر النفسية ، من « غربة » و« توحش » و« غضب » وغير ذلك من أمراض وافدة ، ناجمة عن بُعد مجتمعاتهم عن الدين والإيمان .. إن أبناءنا بخير ، ماداموا يعرفون ربهم ، ويعيشون على صلة به سبحانه وتعالى ، وماداموا يعرفون تعاليمه وفروضه تجاه مجتمعهم ، وماداموا يعرفون واجبهم نحوه جلّ وعلا إزاء عطائه الكبير .. ليتنا نعيد النظر فى أساليبنا وكتبنا فى هذا المجال .. ليتنا كمجتمع نبذل أقصى ما نستطيع لدعم القيم الدينية فى النفس .. ليتنا كأسرة نغرس بذور الإيمان فى نفوس الأبناء بكل الأساليب والصور من أجل بناء مجتمع أفضل .

الوطن والتربية

١

ليست هناك كلمة لها فى النفس فِعْل السحر ، كما لهذه الكلمة « الوطن » لقد تعلمناها فى فترة مبكرة من حياتنا ، وإذا بها تصبح مدرسة لنا .. نعم مدرسة كبيرة ، دخلناها نتعلم فيها الكثير . إن الوطن كان الموضوع الرئيسى فى حياتنا كتلاميذ ، حين علمونا أن نقف فى الصف ونرفع يدنا إلى جبيننا لكى نُحيى العلم الخفاق ، ويومها سألنا عن العلم ، وعن هذا الذى نهتف له « يحيا الوطن » وفتح السؤال الباب لكى نسمع الكثير عن الوطن .. هو العش للطائر ، ، هو البيت والأسرة ، هو الشارع والمدرسة ، هو الفستان واللعبة ، هو اللقمة وشربة الماء ، لماذا لانقول فى اختصار شديد إن الوطن هو كل شىء ! وكلمة الوطن مرادفة للحياة وقد دخلنا مدرسته الكبرى لنتعلم على يديه كل شىء .. وكبرنا وكبر معى حب الوطن .. وكنا فى دروس الدين نعرف أن فروض الإسلام خمسة ، وإذا بنا نضيف فريضة دين ، فريضة إيمان — هى حب الوطن ..

لقد وجدنا وطننا فى دروس الدين .. ثم وجدناه فى الجغرافيا والتاريخ .. إنه التاريخ ذاته .. ماقيمة تاريخ الإنسانية إذا خلا من تاريخ مصر ، اليمن ، بابل ، أشور ، فينقيا .. إنها الحضارة فى فجرها والمدنية فى مهدها . وعلمنا وطننا دروسا فى التاريخ القديم ثم الوسيط فى العصر الإسلامى ، ثم الحديث

المعاصر ، وهو تاريخ بطل عملاق ، يقرأ عنه الأبناء فى كل بلدة ومدينة تابعة لولاية أو قضاء أو لواء أو محافظة .. لقد امتد وطننا من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى حيث المغرب ، أحيانا نراه طائرًا كالطاووس ، رأسه عند المغرب وينشر ذيله عند المشرق فى الخليج والكويت .. وأحيانًا نرى قلبه فى مصر ، وجناحيه فى المشرق والمغرب .. إن لوطننا صورًا تشكيلية أثارتها خرائط الجغرافيا ، التى نتطلع إليها فى حب ، لأنها تعلمنا أين أرض الآخرين .. تقول لى هنا النيل فى السودان ومصر.. هناك البترول فى الكويت والسعودية .. هنا كذا .. وهنا كذا .. ونحس بالعالم كله إطارًا لوطننا ونحس به قلب الدنيا ، وهو قلبها بحق وصدق ..

ويقودنا هذا التصور لوطننا إلى المتاحف والآثار وإلى الفن والتشكيل ، نحن نرى وطننا بدايته فى المسلات والأهرام فى التماثيل ورسوم الجدران ، ونراه فى المساجد فنًّا عربيًّا إسلاميًّا جميلا .. ويمضى متطورًا لنراه فى لوحات الفنانين. وكأن وطننا قد أضحى لوحات فنية ، غنية بالألوان ، والمساحات خضراء وصفراء .. ونحبه : فهناك فلاحة تحمل جرة ، وحادٍ يمضى وراء الجمل ، وعاملة فى مصنع .. وهذه « نقلة » إنسانية كبيرة ، فلم يعد وطننا مجرد قراءة فى كتاب للمطالعة ، ولا درس فى التاريخ والجغرافيا ، ولا هو فرض علينا حبه فى حصص الدين ، والفن ، ولا هو قصيدة شعر أو مقالة فى صحيفة بل هو كما قلنا (كل شىء) لذلك هتفنا له « يا كل شىء» كان أو سيكون ، وأصبح محورًا لحياتنا بيننا .. أسرتنا .. أهلنا .. صار « الوطن » شيئًا إنسانيًّا .. لحما ودما .. وصرنا منه وصار منا .. وانصهرنا فى حبه .. وعشنا نتغنى له . نعمل فى سبيله نناضل من أجله .. صار الماضى والحاضر والمستقبل .. صار مدرستنا وأستاذنا

ومربينا .. كما أنه أصبح بالنسبة لنا المجد حين ينتصر ، الرفعة حين يعلو ، الشموخ حين يقف معلماً لكل الأوطان ، لكل الأزمان ، عبر جامعة عين شمس القديمة ، والأزهر فى العصر الوسيط ، ثم جامعات الكويت ، القاهرة القيروان .. وأصبح بالنسبة لنا العلم والمعرفة والحضارة والمدنية ، بعد أن كان اللغة والتاريخ والجغرافيا والدين .

يا إلهى .. انصرْ وطننا .. توج كفاحه .. إنه يتغنى باسمك خمس مرات كل يوم من فوق مآذنه ، إنه يعبدك .. إنه يؤمن بك ..

٢

البيت وطن .. وهناك كلمة إنجليزية واحدة تعنى البيت والوطن معًا .. هى كلمة « هوم » (Home) .. لاندرى إن كان لها مرادف بالعربية أو لا ، لكننا ذكرناها لا لمجرد أن نلوى لساننا بكلمة أجنبية ، بل لأننا نريد أن نؤكد معنى خطيرًا .. ذلك هو أن البيت وطن والوطن بيت .. وهذا لا يعنى لعبًا بالألفاظ ، أو عبارة إنشائية موسيقية بل إننا لا نعدو الحقيقة ، ولا نتجاوزها أبدًا .. نعم : البيت وطن : فيه الحمى ، وفيه السكن .. فأنت تأوى إلى بيتك وتعيش فيه ، كالطائر فى العش وتقضى فى بيتك أكثر ساعات يومك ، وفيه راحتك ، وفيه طعامك ، وفيه لباسك ، وفيه نومك .. وفيه فوق كل ذلك الحب والحنان ، الألفة والود .. والوطن بيت : تحنّ إليه فى الغربة وتحس بالوحشة حين تبتعد عنه ، وتعيش فيه أغلب سنين حياتك ، ويختلط علينا وعليك الأمر ، فلا ندرى هل نحن نتحدث عن البيت حين نتكلم عن الوطن ،

أو نحن نتكلم عن الوطن فى حديثنا عن البيت . الأمر الذى يؤكد وحدتهما الكاملة .. ومن هنا على البيت واجب ومسئولية تجاه الوطن ، وتقع على الوطن واجبات كبيرة نحو البيت .. إن البيت حين يحبب أبناءه فى الأسرة ، وفى البيت ذاته ، فهو يؤدى واجبه نحو نفسه . ويجب أن يتجاوز هذا الدور إلى حب البيت الكبير : الوطن والأسرة الكبيرة : شعب بلاده ، بل الأمة العربية – كعائلة – مترابطة متماسكة . .

وكثيرًا تلك البيوت التى تغفل عن هذه القضية الحيوية وتنسى أن مالديها من عطاء وحياة ورخاء يرجع للوطن ، ونحن نناشدها أن تتيقظ لقضية تربية الأبناء على حب الوطن ، فإن مدارسنا تحظى بإجازات فى مناسبات قومية ، ولا تلقى تلك الإجازات اهتمام البيت .. لابد أن تنفذ هذه المناسبات من نوافذ البيوت وأبوابها ، وتحتفل بها الأسرة ولاتعزل نفسها عنها ، بل تشارك فيها الأسرة مشاركة إيجابية ، تربية للأبناء .. تربية وطنية ..

وما من مناسبة للتربية الوطنية أروع من أن يصل الأبناء إلى سن التجنيد .. وحين يناديهم الوطن لأداء هذا الواجب ، يجب أن يلبوه سعداء بأن أصبح فى استطاعتهم أن يردوا إليه عمليًّا بعض ما أعطاه لهم وأصبح فى مقدورهم بذل حياتهم فى سبيله ومن أجله ، وليست هذه هى الفرحة الوحيدة لخدمة الوطن ، بل إن تفوق أطفالنا فى التعليم والثقافة يتم لا لصالحهم فحسب ، بل لصالح وطنهم .. وكثيرًا ما يقال إن الفارق بيننا وبين عدونا الصهيونى فارق حضارى ، وإذا ما ضاق هذا الفارق يتفوق أطفالنا على أطفالهم ، وعمالنا على عمالهم ، ومثقفونا على مثقفيهم ، وتُحسَمُ المعركة لصالحنا قبل أن تنطلق رصاصة واحدة .. وعلى هذا فإن التربية الوطنية تمضى مع الأبناء منذ مولدهم .. إن

عدونا يعزف فى أذن الوَليد لحن أرض الميعاد ، ويربونه على الحقد والكراهية للعرب ، فى حين نربى أبناءنا على الحب للإنسان وللوطن ، ونذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يؤذن للوليد : الله أكبر .. فإذا أردنا لوطننا الحياة والنصر فما من سبيل إلاّ تربية أبنائه على حبه وافتدائه بحياتهم .

والوطن يحمى البيت ، ويدعم الأسرة ، ويهيىء المدارس لأبنائه ويحمل مسئولية أن يحمل إليه الطعام ، والشراب ، ويوفر له إمكانيات الحياة . ويبذل – ممثلاً فى الحكومة – جهودًا كبيرة لحماية الوطن والمواطنين ، ورفع مستواه ومستواهم .. والبيت مطالب بأن يرد ذلك عملا وحبًّا .. فيزرع فى نفوس الأطفال الإحساس بمعنى « الوطن » و« الوطنية » .. لكى يشبوا على أن (حب الوطن من الإيمان) ..

إن البيت حين يحبب الوطن للطفل ، وحين يربيه على تقديسه فإنه يؤدى واجبًا نحو نفسه ويشارك المدرسة فى أداء هذه المسئولية ، ويتعاون مع المجتمع للنهوض بهذه الرسالة ..

« والأم مدرسة » وهى أروع مدرسة حين تُعلِّم الطفل حب وطنه وبلاده وشعبه . . .

٣

نحن نتطلع إلى أن يحب أبناؤنا وطننا كل الحب ، وأن يتغنوا به ، وبخيره ، وأن يعدوا أنفسهم لخدمته ، والبذل فى سبيله ، ولو كان المطلوب بذل أرواحهم وحياتهم لأن ذلك هو السبيل لحريته والحفاظ عليه . لذلك فهناك جهد مطلوب

من المدرسة والبيت والمجتمع لغرس حب الوطن فى نفوس الأطفال ، منذ وقت مبكر.

وقد يتصور البعض أن فى استطاعتنا أن نركن فى هذا إلى المدرسة فحسب على أساس أن لديها منهجا للتربية الوطنية ، وكتبًا ، وأساتذة .. غير أن هذا لايكفى ، ولا نستطيع أبدًا أن نعتمد عليه وحده .. فالمدرسة فى هذا المجال يقع عليها عبء كبير.

التربية الوطنية ، مكانها ليس حجرات الدراسة وفصولها فحسب . بل البيت ، والمجتمع بمؤسساته المختلفة من صحافة ، وإذاعة ، وتنظيمات وجماعات .. والحب للوطن ليس درسًا .. ولكنه تيار ، يحتاج إلى قلوب المواطنين .. يعرفونه جيدًا حين يكون الوطن فى مشكلة .. ويعرفون الوطن عطاء لهم ، مقعدا فى مدرسة ، سريرا فى مستشفى ، موقعا فى عمل ، يعرفونه عزة وأبوة وكرامة ، ألفه وودًّا وتعاطفا .. تشخص عيونهم للسماء ، وهم يرون علمه يرفرف خفاقًا وعاليا .. يفخرون به وهم يرون أبناءه يتفوقون ويتميزون على الدنيا بأسرها فى مجال العلم والفن والرياضة .. يزدهون به وهم يرونه يوفر لهم الحرية ، والإخاء والمساواة .. وعلى المدرسة مسئولياتها الكبيرة فى هذا المجال .

إن تدريس التربية الوطنية ليس وظيفة بقدر ما هو واجب وطنى .. التغنى بالوطن واجب منذ أن تتفتح أعيننا فى الصباح ، حين نرفع علمه ونحييه فى طابور المدرسة ، ونهتف باسمه من أعماق القلوب ، إلى أن يغلق الإنسان عينه لينام .. مطمئنا إلى أنه أعطى وطنه شيئًا فى يومه آمنا إلى أن جند وطنه يحرسون حدوده ، وشرطته يحفظون نظامه ، وأطباءه يعالجون مرضاه ومعلميه يربون بنيه .. وكل إنسان مطالب بأن يغنى لوطننا ، ويحببه للأبناء والمواطنين ، ويجعل

خدمته والفناء فيه رسالتهم ودورهم وواجبهم ..

وإذا أتيحت لنا فرصة مراجعة منهاج التربية القومية لأبنائنا فى المراحل الأولى والمتوسطة للتعليم ، فسوف نجده يضم الكثير عن الأسرة ، الصداقة المدرسة ، البلد (القرية أو المدينة) .. البيئة ، المواطنة ، الخدمة العامة ، عناصر ثروتنا القومية وكيف نحافظ عليها ، الحكومة ، الوطن العربى ، العالم ، الثورة العربية ، العدالة الاجتماعية ، التنمية الاقتصادية ، الاستعمار والصهيونية ، فلسطين ، الجامعة العربية ، هيئة الأمم إلخ .

كل هذا على أبنائنا دراسته فى التربية الوطنية ، قبل أن يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم .. ونسأل أنفسنا : أليس هذا بكثير ؟ إننا نريد أن يحب أبناؤنا هذه الموضوعات لا أن تصبح مجرد مواد تعليمية كثيرة لدرجة تزحم الأبناء ولا تصل إلى التأثير فى مشاعرهم وأفكارهم ، ونحن نسعى إلى أن يعتنقوا الوطن والحرية والعروبة ..

والحق أن التربية الوطنية يجب أن تتجاوز حجرة الدراسة إلى المدرسة كلها ، وإلى أجهزة الإعلام والثقافة ، لأن ربط الأبناء بالوطن أمر حيوى ، لأنه يعنى حياة هؤلاء الأبناء مستقبلا .. وإذا كانت التربية الاجتماعية والأخلاقية والرياضية ضرورية ، فالتربية الوطنية تحوى فى ثناياها كل هذا ، وتتضمن جميع ما فى هذه الألوان من قيم ، فالوطن فوق الجميع ، ويجب أن نربى الجميع على حبه .. وتقديس ترابه وأرضه أمر حيوى لابد أن نبذل من أجله طاقة كبيرة ، ومن خلال كل الوسائل ، والصور ، والمواقف فقد أعطانا الكثير ، وحق علينا أن نرد له فضله وجميله وخيره .. إنه أفضل وطن ، وأجمل

وطن وخير وطن .. إنه وطن الأجداد والكرامة والإنسانية .. وطن الأنبياء والرسل والأديان .. وطن العروبة والخير والرخاء .

٤

ونجيء إلى الحديث عن دور المجتمع لتربية أبنائه على حب الوطن ..

ونحن لا نعرف فى أى سن من سنى العمر يتبين الطفل معنى « الوطن » ولكن الذى نؤكده أنه يحدث فى بلادنا فى فترة متقدمة ، وأن أهلنا يدهشون لكثير من الكلمات التى تقفز على ألسنة الأطفال متغنية بالوطن والشعب والأمة ، والديمقراطية ، والدستور ، وكل ما يتصل بهذه الموضوعات .. وقد يكون السبب القوة العربية التى اندلعت مع الخمسينات ، وقد يكون ذلك لأننا فى منطقة يشتغل عدد كبير من بلادها وأهلها بالقضايا العامة ، وينضمون للتنظيمات السياسية ، ويخوضون المعارك الانتخابية .. وقد تكون المدرسة وراء ذلك ، فمنذ سن مبكرة يرتفع صوت الأطفال يهتف لفلسطين ، والتحرير ، والوحدة .. وهم يفضلون كل حدث يقع فى وطننا العربى ، بجانب هذه المادة التى يدرسونها وهى « التربية الوطنية » و « التربية القومية » .. والأولى تعنى الأرض والأمة ، ومدلولها أوسع وأشمل من الثانية التى تعنى وحدة قومنا العرب فحسب ، وليس وحدة أوطانهم .. وقد جعلتنا قراءة الصحف نتابع الأحداث ، وتتراكم معرفتنا بما يجرى فى وطننا وفى عالمنا ، خاصة وقد تولى الطلبة تلخيص الأخبار اليومية فى إذاعة المدرسة كل صباح .

والحق أن مسئولية المجتمع بكل أجهزته ، أن يثير الاهتمام بالوطن وقضاياه

وأن يحبب الأبناء فيه ، فإن كثيرين ينشئون وهم يدورون حول أنفسهم ولا تتعدى أفكارهم الخاصة مصالحهم الذاتية ، وتتركز كل رغباتهم فى تحقيق مايرضى رغباتهم . إنهم يتصورون أن الدنيا تلف فى فلكهم ، وأنهم مركز الكون .. وكثيرا ماترى الواحد منهم لايهتم بما يقع فى روما أو باريس أو غيرها وكأنه لا علاقة له به وهم يتخيلون أن الحدود السياسية تطوى بداخلها كل شيء وأن آثار الأحداث لاتعبرها .. وفجأة يتأثرون بزلزال فى اليابان ، وتوقف مصنع فى إنجلترا ، ونقص محصول الشاى فى سيلان ويكتشفون أن العالم قرية صغيرة مترابطة ، ينعكس كل حدث فيها على كل ركن من أركانها .

وليس أمر التربية الوطنية يقف عند هذا الحد ، بل إننا بُلينا بفقدان أجزاء من أرضنا فى أرجاء متفرقة ، ومُزقنا دويلات وأقطار ، وكان لابد من النضال ضد العدوان ، سواء كان احتلالا للأرض ، أو نهبا للثروات أو تقسيما للبلاد .. ومن هنا كان لابد أن نربى الطفل على حب أرضنا فى كل قرية وواحة وفى كل محافظة وولاية ، وفى كل دولة وقطر .. وكان لابد أن نربى النشء على حب مواطنينا فى كل أرجاء الوطن العربى ، ابتداء من الأسرة الصغيرة إلى الأسرة القومية ، بل الأسرة الإنسانية قاطبة .. ومن هنا تجيء التربية الوطنية ، فإنها إنسانية المستوى ، تُخرج الإنسان عن نطاق اهتمامه بذاته فحسب .. وهذا اللون من التربية هدفه الأول الوطن والقوم والإنسان .. ولابد أن يُبنى هذا الحب على المعرفة والفهم ، لترسيب الوعى به ، والولاء له ..

المجتمع والتربية

١

ما من كلمة تُرهِبُ ، كما تُرهب كلمة « المجتمع » .. التى نترجمها فى حياتنا العادية إلى « الناس » وإذا ما أقدمنا على عمل ما ، سألنا أنفسنا : وماذا يقول الناس ؟! .. إننا حين نتصرف نحسب حسابهم ، ونجعل لرأيهم مكانته ، فلا نخرج على عرف اختطوه ، ولا على تقاليد درجوا عليها .. إن المجتمع قد أصبحت له قيمه وأخلاقياته التى قلما نخرج عليها ، ولهذا فهو أداة تربوية فى منتهى الأهمية والخطورة ، على الرغم من اتهام البعض لهذا المجتمع بأنه قيد على حركتنا وحديثنا وانطلاقنا ، وبأنه يحمل تراثًا قديمًا متخلفًا ، لم يعد يصلح لعصرنا لذلك يرفعون فى وجهه راية العصيان ، ويضربون بالكثير من قيوده عرض الحائط .. وأيًّا كان الموقف من المجتمع وتقاليده وقيمه فنحن فى مسيس الحاجة إلى التعرف عليه ، والاقتراب منه ، والتعامل معه ، وإذا كان المجتمع يفرض علينا الكثير ، ويشكل – بصورة أو بأخرى – لونًا من ألوان تربية أفراده ، فإن الأفراد عليهم تجاه هذا المجتمع واجب ومسئولية ، ذلك أنهم مطالبون بتطوير مجتمعهم ، والأخذ بيده إلى مدارج الرقى والكمال .

ولعل سؤالا هنا يفرض نفسه : ما « المجتمع » ؟ « وما التربية الاجتماعية » إن بابا ثابتًا فى صحف ومجلات الدنيا كلها يحمل كلمة « المجتمع » يسرد بعض

أخبار أناس يتصور المحررون أن منهم يتشكل المجتمع .. هذه عادت من إجازتها .. وهذه سافرت .. وتلك أقامت حفلة ، وهكذا .. ويميل كتاب ومحررو المجتمع إلى الحديث عن العلاقات بين أفراده : هذه خُطِبت لفلان ، وفلان تزوج فلانه وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك .. وقد تنشر هذه الصفحة أنباء اجتماعية أخرى لها طابعها العام : كحفل إقامة سفارة ، أو دعوة البعض إلى حفل تكريم إنسان .. وهذه الصفحة تحفل بصور لنجوم المجتمع ، وصور النساء هنا أكثر بالطبع . . وسؤال آخر يفرض نفسه هنا : هل هذا حقًّا هو المجتمع ؟ ! . . هل هؤلاء - بصدق - هم نجومه ؟ ! . .

إننا نترك لكم الإجابة عن هذا السؤال ، ولا شك أنكم تشاركوننا الرأى .. إن المجتمع تركيبة شديدة التعقيد ، وهو فى واقع الأمر مجتمعات عدة تتداخل وتتشابك ، ولا يمكن أن تكون هذه الأسماء اللامعة الطافية على السطح هى المجتمع كله .. إن لدينا مجتمعًا فى البحر فيه بحارة وصيادون وأصحاب سفن صغيرة إلخ .. ولدينا مجتمع فى مجال التجارة ، بل مجتمعات ، فالتجارة ألوان وألوان .. ولدينا مجتمعات موظفين .. ومجتمعات رجال أعمال .. ومجتمعات سفارات .. ولدينا تجمعات مهنية : جمعية للمعلمين ، وللمحامين وللصحفيين ، إلى آخر هذه الجمعيات .. لذلك فإن الحديث عن مجتمع بذاته ، أو جماعة بعينها ، ماهو إلا حديث عن شريحة فقط من المجتمع .. وكل شريحة لها ظروفها الخاصة ، وهى قد تتناقض مع شرائح أخرى ، وقد تتفق معها .. وربما تتصارع هذه الشرائح من المجتمع ، وربما تعاونت .. ولكن من الضرورى أن يكون هناك حد أدنى متفق عليه بين الجميع ، هو تيار رأى عام ، يسود المجتمع كله ويحكمه .. ويتبلور هذا التيار فى صورة قوانين وقرارات ولوائح

وتعليمات .. كما يتبلور فيما نسميه فى حديثنا العادى « كلام الناس » ورأيهم وحكمهم على الأفراد والجماعات الصغيرة فى المجتمع ..

إن المجتمع يشارك بمؤسساته فى تربية أفراده .. ومسئولياته كبيرة وضخمة .. إن المجتمع مؤسسه تربوية كبيرة تساهم فى تشكيل حياة أفراده .. وتأثيرها عليهم لا يقل عن تأثير (الأسرة) .. فالمجتمع يملك أدوات كثيرة تشارك فى صنع الأفكار والرأى العام ، ومن بينها أجهزة الثقافة والإعلام ، ومن بينها المؤسسات الاجتماعية المختلفة .. ومن هنا تأتى أهميته وخطورته .. إنه – أى المجتمع – قد يلفظ إنسانًا فيحكم عليه بالموت والإعدام ، وقد يكرم آخر ، فيجعل منه بطلا مرموقا ونجمًا لامعًا .. وهو فى كلا الأمرين يؤدى دورًا بارزًا وهامًا فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، ولهذا فقد حَمّلنا بعض المسئولية فى الأخذ بيد الأبناء .. بجانب ماتتحمّله الأسرة والمدرسة برغم أنها واحدة من أدوات المجتمع غير أنها أداته الرئيسية للتربية ، لذلك نفرد لها مسئوليتها .. ويؤكد ذلك أن ثلثى المسئولية فى الواقع قد ألقيت على كاهله .. لذلك أصبح « المجتمع » علمًا قائمًا بذاته .. والطريف أن مبتكر علم « الاجتماع » عربى ، هو العبقرى ابن خلدون ، ومع ذلك فإن معرفتنا بهذا العلم قليلة وأغلب ما ندرسه منه وعنه مستورد .

٢

قلت إن المجتمع يتحمل مع المدرسة ، ومع الأسرة مسئولية التربية .. والأسرة قد أصبحت أخيرا واحدة من مؤسسات المجتمع كالمدرسة .. وهى – أى الأسرة – تلقى نقدًا شديدًا بالنسبة لدورها من المجتمع ، ويحملها البعض

أكثر من طاقتها ، ويحاول البعض التخفيف عن مسئولياتها ..

وعندما سُئل زوربا اليونانى ، فى الفيلم الشهير المأخوذ عن رواية الكاتب المعاصر كازنتاكس .

– هل أنت متزوج ؟

أجاب : نعم . بيت . وزوجة – وأولاد . المأساة كاملة ياسيدى ..

وانفجر رواد الفيلم بالضحك للملاحظة الأخيرة .. ولاشىء يحظى بالضحك على المستوى الإنسانى قدر العلاقة بين الرجل والمرأة بشكل عام ، والعلاقة بين الزوجين بشكل خاص .. إن الرجل يستطيع أن يطلق هذه النكته ويضحك ويقهقه ، ولكن المرأة قد ترد على ذات السؤال بأسلوب آخر ، فتقول :

– نعم : بيت . وزوج . وأولاد . المسئولية كاملة ياسيدى !

إن الجانب الاجتماعى فى حياة المرأة له انعكاسه الهام والخطير على دورها ورسالتها ، إنهم يقولون إن عمل المرأة له مرتبة ثانوية فى حياتها ، ويرتبون الأولويات ، مرة زوجها على رأس قائمة الاهتمامات ومرة أولادها ومرة بيتها ، وقلما يقول أحد إنه عملها .. غير أننا نرى أن هذه الاهتمامات أشبه بأرجل المائدة ، لا نستطيع أن نعرف بالتحديد أيها يحمل المائدة – وأيها أهم ، وله أولوية .. إننا نرى أن هذه الاهتمامات كلها مسئولية ترفع من مائدة الحياة ، لتظل ثابتة الأركان ولا تتزعزع ولا تسقط .. واهتمامها بزوجها يجب ألا يكون على حساب أطفالها ، واهتمامها بعملها يجب ألا يكون متجاوزًا اهتمامها ببيتها ..

وأستطيع أن أقول إن المرأة طالبة ، بأن نطبق المبدأ الشريف : « أعط للبيت ما للبيت وأعط ما للزوج للزوج .. أو أعط ما لقيصر لقيصر ، وما للناس

للناس » .. إنها حكمة غالية عن الرسول الكريم .. المعلم .. لكى لاتطغى مسئوليات البيت على الأولاد ولا يجور الزوج على البيت .. وإن كانت هناك أوقات يأخذ أحدهما من الآخر .. إذا مرض الابن مثلا ، فله أولوية الاهتمام .. هنا تتغير المقاييس والموازين إلى حدما ، ويصبح من الضرورى تطبيق قائمة الأولويات ..

إن الجانب الاجتماعى له تأثيره على حياة المرأة .. ومجتمعنا العربى مع الأسف لم يعط التربية الاجتماعية حقها إلا منذ فترة قصيرة .. وهو حين فعل ذلك فصل مهمتها عن مهمة المعلمة ، مع أنه جانب من أخطر مسئولياتها كمربية ، إنها مسئولية تعادل المسئولية التربوية والتعليمية ولا تقل عنها أبداً .. لقد وكلت هذه المسئولية الاجتماعية إلى المشرفة الاجتماعية ، وهى – أى المشرفة – تتحمل ما كان يجب أن تتحمله المعلمات ولتركيز المسئوليات الاجتماعية إيجابياته ، ولتوزيعها على المعلمات أهميته .. فالمعلمة لايمكن إلا أن تكون تربوية واجتماعية فى نفس الوقت .. وإلا فقدت الكثير من عناصر نجاحها كمعلمة .

ودور المدرسة – متمثلا فى المشرفة الاجتماعية – يجب أن يكون أكثر وضوحًا ، خاصة والأسرة فى بلدنا – مجتمع قائم بذاته – ولا تشكل قدرًا كبيرًا من جوانب التربية الاجتماعية لأبنائها . فمازلنا نعيش مجتمعًا منفصلا ، فى علاقة البنات بالأولاد ، وإن كنا نعيش قيمًا رائعة فيما يختص بصلة الرحم ، وذوى القربى ، فمازالت هذه الوشائج تربط بعضنا ببعض ، رابطة نفخر بها ، ولانريد لها أبدًا أن تنفصم .. إنها تجعل الأسرة – التى هى أولى خلية فى المجتمع – متماسكة متعاونة متآزرة .. ونحن فى حديثنا لا نحب أن نقف عند السلبيات

فحسب ، إننا نريد القضاء عليها ، وفى الوقت نفسه لابد لنا من أن ننمى ما فى مجتمعاتنا من إيجابيات بناءة ..

٣

إن المشاكل التى تحملها التلميذات من بيوتهن ، كثيرة ، متعددة ، متنوعة . وهذه المشاكل قادرة على أن تفسد على المعلمة « العملية التعليمية » وتحول بينها وبين أداء واجبها ، مهما بذلت من جهد ، ومهما قدمت من تضحيات . ولن تستطيع المتخصصة ، أن توزع نفسها على مئات الطالبات ، قد تكون جهودها مثمرة ، حين تركزها فى حالة كبيرة واحدة أما خلال اليوم ، ويوميًّا ، فلابد وأن تكون المعلمة هى المتخصصة وبعينها الناقدة الفاحصة ، تستطيع أن تكتشف صاحبة المشكلة ، كما يكتشف الطبيب المريض بعلامات خاصة ، بارزة ، واضحة : حالات البكاء المستمرة أو التشنج ، وظواهر من هذا السبيل ، قد تقودنا إلى المشاكل الكبيرة التى تركز المتخصصة جهودها عليها . أما حالات السرحان ، والمقاطعات ومعاتبة الزميلات ، فالمعلمة قادرة على اكتشافها ومعالجة صاحبتها على الفور ، بشتى الوسائل وأهمها : العناية بصاحبتها ورعايتها ، ودفعها إلى أن تنفس عن نفسها بذكر ما يضايقها ، دون أن تكون المعلمة فى ذلك ، مجرد محبة للاستطلاع ، بل إن الاطلاع على المشكلة ، يحمل المعلمة مسئولية الحفاظ على سرها ، والعمل على حل مشكلتها .

كل معلمة يجب أن تحصل على قدر ، وقدر غير قليل ، من الدراسة الاجتماعية ، والتربية الاجتماعية .. كل معلمة يجب أن تكون متخصصة

اجتماعية ، بجانب تخصصها فى مادتها .. كل الدنيا تسير على هذا النظام .. واضطررنا نحن فى الوطن العربى نتيجة لكثرة مشاكلنا فى هذا المجال ، أن نحيل هذه الأمور إلى متخصصة ، وربما كان أجدر بنا ، أن نزيد اهتمام المعلمات بالجوانب الاجتماعية ، بدلا من سلخها عنهن ، الأمر الذى يجعلهن تلقائيا ، يتأين عنها ويباعدن ما بينهن وما بينها ، وتحول المعلمة كل شىء ، وكل طالبة إلى المتخصصة وهذا فشل من المعلمة .. إنها يجب ألا تلجأ إلى هذا الأسلوب ، إلا إذا رأت الحالة مستعصية الحل . تحتاج لخبرة وجهد ، ليسا عندها ، ولا يحدث ذلك أكثر من مرة أو مرتين فى العام ، لتأخذ المعلمة على عاتقها بقية الحالات .. ذلك يقرب الطالبات إلى المعلمة ويقربها منهن ، ويجعل بينهما مزيدا من الثقة والانسجام ، ولا يحمل المتخصصة فوق طاقتها .. إن المعلمات أكثر عددًا ، واقتسام المشاكل يخفف منها كثيرا ، ولا يشتت المتخصصة ويبدد جهودها الكبيرة .. إن الطالبات يحملن الكثير من الأزمات الاجتماعية ، — وبالذات الأسرية — معهن إلى فصول الدراسة ، وليس من السهل فصل الإنسان عن حياته هذه ، لحظة وصوله المدرسة ، ونحن نعرف كيف تؤثر الحياة الاجتماعية على الدراسة والتحصيل .. ومن الضرورى ، تضافر جهود البيت مع المدرسة ، والمدرسة مع البيت ، من أجل جيل جديد أصلح اجتماعيًّا لمواجهة مشكلات الحياة الحاضرة ، ولبناء أفضل للمستقبل .

وحياة المرأة الاجتماعية الخاصة ، لا هى الحفلات ، ولا السهر خارج البيت .. وهى أيضا ليست قاصرة على شئون البيت .. وعمل المرأة خارج بيتها ، لا يعفيها من مسئولياته .. إنها فيه مربية لأولادها ، وهى فيه وزيرة اقتصاد وخزانة ، وهى فيه وزيرة صحة وشباب ، وهى .. وهى .. هى مجلس

وزراء كامل ، ويعلم الله وحده ، كيف تنهض بكل ما عليها من أعباء ، وعليها بعد ذلك أن تخرج من بيتها كل صباح ، وقد رسمت على شفتيها ابتسامة طيبة ساحرة لتواجه مجتمع العمل .

إن الأم التى تتخلى عن دورها ومسئولياتها الاجتماعية ، لا ينتظر لها النجاح كأم .. التربية فى معناها الشامل ، تضم القضايا الاجتماعية ، وعلم الاجتماع فى مسئولية الواسعة ، يحتوى التعليم والتربية ، وفصلها فصم لشخصية الأم وإجهاز على رسالاتها .. إن المرأة : ابنة وأمًّا .. وربة بيت ، وزوجة ، يجب أن تتحمل المسئولية كاملة .. ومن بينها التربية الاجتماعية المثلى لأولادها ..

الأخلاق والتربية

١

تتردد كلمة الأخلاق كثيرًا ، وتقترن بالتربية ، ولا ينفصمان ولا يفترقان .. والبعض ، يرون الأخلاق ثمرة من ثمرات التربية ، ويراها آخرون هدفًا من أهدافها ، وأيًا كان الرأى ، فنحن مع الشاعر الذى قال :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهذا البيت ، يدق لنا الأجراس .. إنه يقولها بصراحة موجعة ، إن الأمة التى لا تتمسك بالخلق ، تذهب وتضيع ، وما ينطبق هنا على الأمة ، يسرى على الأفراد والمجتمع بالطبع .. وقد يرتفع صوت يقول صاحبه : أين هى (الأخلاقيات) فى عالمنا ، وكثير من دوله المتقدمة أصبحت (لا أخلاقية) ، ومع ذلك فهى لم تذهب ، بل مازالت باقية تفرض وجودها ، بل وأحيانا سيطرتها ؟! .. نقول .. إن هناك قدرًا من (الأخلاق) فى كل حضارة ، وهذا القدر هو الذى يبقى عليها ، إن الذى ذهب بقوم نوح ، وعاد وثمود ، هو أنهم فقدوا كل مقومات الأخلاق ..

ومما نحمد الله عليه فى بلادنا ، أن لدينا كماً من القيم الأخلاقية ، وتيارًا من الفضائل الإنسانية تسود حياتنا ، إذا ما جرت مقارنة بيننا وبين الدول التى

تسمى بالمتحضرة .. بل إن ضميرنا كثيرًا ما يعذبنا لأشياء استسلموا لها هم ، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتهم ، فى حين تأباها مجتمعاتنا ، ويرفضها الأفراد عندنا .. ولسنا هنا ، نمتدح أنفسنا ونفخر بها ، فهذه ليست قيمة أخلاقية ، فى حد ذاتها ، لكننا نود تقييمًا موضوعيًا ، لموقفنا وموقف الآخرين من قضية الخلق .. والضمير .. وذلك تمهيدًا لتسليط الضوء على سلبياتنا ، وإن كنا قد بدأنا بإيجابية نزرع فى النفس بعض الثقة ، ونحول بينها وبين تعذيب الذات . .

إننا – كعرب – قوم لنا أخلاقياتنا .. وقيمنا .. وشرفنا .. وقد تعلمت عنا أوربا الكثير من خلال الحروب الصليبية ، صلاح الدين الأيوبى يذهب بنفسه إلى عدوه .. ولا ينتقص هذا من عظمة البطل المسلم ، بل تدرك أوربا الدرس المستفاد من هذه الخطوة .. ولسنا بصدد مقارنة بيننا وبينهم ، فقط ، جرنا الحديث عن الأم والأخلاق ، إلى هذه العبارات التى نخلص منها ، إلى أن قيمنا رائعة ، وهى ليست محفوظة فى متحف تاريخى ، بل هى حية بيننا ، تحتاج منا إلى أن تنفض عنها التراب والغبار .. ونحن هنا لن نسرد قائمة بالقيم الأخلاقية التى لدينا منها ، والتى ينقصنا بعضها .. ولكن لكى تفكر الأمهات من وقت لآخر ، فى القيم التى يودون إعطاءها لأولادهم ويتساءلن أى هذه القيم يحتاجها الأبناء فى حياتهم مستقلا ، خاصة أننا فى عالم متغير ، ولا نعرف صورة العالم الذى سيعيشون فيه .

ومع ذلك ، لابد من قيم ثابتة ، مثل مؤشر البوصلة ، لكى تهديهم ، هل هم سائرون فى الطريق الصحيح أم لا ؟ .. ومن السهل أن نتصور أن هذه القيم ، يمكن أن تكون مثل ساعة نورثها لأبنائنا أبًا عن جد .. بعض الأمهات

يندهشن ، لأن مايرونه قيمًا ، لا يحتاج إلى نقاش مطلقا ، ويجدون أنها مهملة من عائلات وأصدقاء حولهم . وتتساءل هؤلاء الأمهات ، كيف ندرب أولادنا على هذه القيم ، ونجعلهم يعتنقونها ، وهم يرون أنها ليست مجال اهتمام من جانبهم ، بل على العكس يجدونهم يتصرفون عكسها ؟

الحقيقة ، أنه لابد أن تكون الأمور واضحة فى أذهاننا . وتكون لنا قيم هادفة مؤمنين بها تمامًا ونطبقها كقدوة .. فلا نقول لأولادنا : « الصدق منج » فى حين يروننا أحيانا نحيد عن الصدق ، وحينما نقول : « قيم هادفة » فإن هذا يجعل مواقفنا وقراراتنا ، أكثر تحديدا ووضوحًا .. لا خلاف حول الصدق وأنه أساس الأخلاق .. لكننا نفاجأ ونحن نود غرس قيمة كالتهذيب فى نفوس أطفالنا أننا نحتاج إلى أن نقول لهم لابدَّ أن يحسنوا اختيار كلماتهم .. والخيط رفيع جدًّا بين بعض القيم الأخلاقية واللا أخلاقية ، وتحتاج من الطفل أن يميز ما الذى يخدش كرامته ، ولابدَّ أن يغضب له ، وما الذى يجب أن يواجهه بالحلم والأخلاق والهدوء ولدينا فى الشرق كمية هائلة من القيم ، وكمية أضخم من النصائح ، كثير منها متخلف عن عصور ظلم وظلام .

ولهذا ، فإن التربية والأخلاق – كما قلنا فى البداية – لاينفصلان .. سواء كانت هذه الأخلاق تختص بالإنسان الفرد ، أو لها طابعها الجماعى . وهنا ، لابدَّ وأن يبرز دور « الضمير » ليحدد لنا الخير من الشر ، الصواب من الخطأ ، ويجب أن نعرف ماهو الضمير ، وما أهميته بالنسبة للتربية والخلق .

٢

« الضمير » درس فى النحو ، يحدث عن « أنا وأنت ، وهو » ثم هو درس فى الفلسفة ، ودرس فى علم النفس .. أما فى التربية ، فإنه يعنى شيئًا أكبر من درس النحو وعلم النفس ، يعنى إيجاد ذلك الرقيب الداخلى على تصرف الإنسان ، ذلك الهاتف العظيم الذى يقف بينه وبين الإقدام على ارتكاب الخطأ .. إننا هنا لانعنى ولا نهتم بالمعرفة المجردة ، بل بالتدريب على خلق الضمير وتنشئته ، ليؤدى دوره ورسالته فى حياة الإنسان ، ويقوده خلال رحلته فيها إلى الخير والسعادة .. فالضمير هنا أساس الخلق ، ورمزه وهدفه ..

ويرهقنا الضمير ، نحوًا ، وخلقًا فى الطفولة .. ففى النحو ، لدينا الضمير الظاهر والمستتر .. وتعددت الضمائر ، وتعددت مواقعها ، فهى مبتدأ تارة ، وهى فاعل تارة أخرى ثم خبر أو مفعول .. كان درسًا طويلا مرهقا فى بداية دراسة النحو والصرف .. أما خلقًا فإن الضمير يعذبنا فى كل خطوات الحياة ، إذا كان ضميرًا حيًّا يقظًا ، لايريد لنا كسبا سريعا فى الحياة الدنيا أو فى الحياة الآخرة .. بل يرتفع صوته مع كل تصرف ويصرخ بنا ألا نحيد عن الطريق المثالى وألا نخرج قيد أنملة عن القيم العليا .. إنه يجعلنا كأطفال ، نصارح أمهاتنا : أننا كسرنا الشىء قبل أن تكتشف هى أنه كسر . ويؤرقنا هذا الضمير إذا ما وجدنا من فرد أو جماعة انحرافا عن المثل العليا ويظل الضمير يصرخ فينا ، لكى نلتزم بجادة الصواب فى كل أمورنا ، مهما كلفنا ذلك من مشقة وتعب .

ويرهقنا الضمير علميًّا ، ونفسيا ، حين ندرسه فى علم النفس ، فقد اهتم به

الكثيرون ممن تفرغوا لعلم التحليل النفسى ، وقالوا عن الضمير إنه « الذات العليا أو الذات المثالية ، التى تفرض رقابتها على الذات السفلى أو الغرائز » . إنها عبارة صعبة لم أفهمها وأستوعبها جيدًا ، إلا عندما قرأت قصة دينية قصيرة ، تناقش أجمل ما فى شهر رمضان ، ويعرض الكاتب الصور الرمضانية فى جمال أخاذ ، ويقدم أحلى ما فى الشهر الكريم ، وينعطف فجأة ليقول : « إن رمضان صنع مجد رجل عظيم ، فقد أعلن له أبوه فى طفولته ، أنه يستطيع أن يراقب أعماله ، ويستحيل عليه أن يراقب صيامه .. وأن الرقيب على الصيام هو الله ، وشىء من داخل الإنسان يحول بينه وبين الإفطار .. ونمّى الصغير ذلك الشىء الذى بداخله ، والذى عرف أنه الضمير ، ليصبح عملاقًا يأخذ بيده إلى طريق الخير والنجاح » .. وقرأت هذه القصة فى رمضان ، وشعرت إزاءها بارتياح عميق ، فقد فسرت لى الذات العليا ، والذات المثالية ورقابتها على الذات السفلى والغرائز ..

ويرهقنا الضمير ، فلسفيًا ، وحياتيًا ، عندما نخطو إلى دراسة الفلسفة ، ولايصدع الضمير رأسنا فحسب ، بل « يصدعنا » كليًا إذا صح التعبير .. فقد يكشف بعمق عن ذلك التوتر ، الذى نستشعره فى باطن نفوسنا ، بين ما نملكه وبين مانريد تحصيله .. بين ما حققناه ، وما نرجو أن نحققه بين ما نحن عليه بالفعل ، وما نبغى أن نكون عليه الخ ..

هذا « التوتر » هو الذى يجعل الإنسان موجودًا أخلاقيًا بمعنى الكلمة ، لأنه هو الذى يجعلنا نراقب أهواءنا وحوافزنا وشتى ميولنا . وهو الذى يدفعنا إلى مجاهدة غرائزنا وانفعالاتنا ودوافعنا الطبيعية ، وإذا بالضمير أساس ومرتكز لكل دراسة حول الأخلاق .. إنه ميزان الخير والشر ، الصواب والخطأ .. بل قد

يرتضى القانون ، أو الناس أشياء ، ويرفضها الضمير .. لأنها تثير نفوره وعدم ارتياحه . وإذا كنت قد أوردت قصة عن رمضان والضمير ، إلا إن الضمير ، يجب أن ينبع مِن إحساسنا بالحاجة الماسة إليه ، كمجتمع وكأفراد .. وهو ليس درسًا أخلاقيًّا يلقنه صاحبه من الخارج لكى ينبثق من داخله . بل هو ممارسة فعلية ومعاندة للنفس ، إلى أن يستقر فيها الضمير عملاقًا يأمر وينهى .. وما من شك ، فى أن أروع ما يمكن أن نطلقه على إنسانة أو إنسان ، أن نقول : إن عندها أو عنده ضمير .. وهذه الصفة ، تكفى وحدها لكى تؤكد أن أصحابها على درجة عالية من الخلق .

٣

بذلت محاولات عدة لتعريف الضمير ، ولمعرفة موقعه من التربية الأخلاقية .. والضمير كما يوجد لدى الفرد ، يوجد لدى المجتمع .. أى أن هناك ما لايرتضيه الفرد ، وما لايرتضيه المجتمع ، وفقًا للضمير الذى ينمو ويتشكل بالممارسة العملية للقواعد الأخلاقية .. وقد عرفوا الضمير بأنه « الوظيفة النفسية التى تقوم بأحكام خلقية على الأفعال الإنسانية » ونحتاج هنا ، إلى معرفة مقومات الضمير ، وعناصره .. وأولها عنصر عقلى يشرع ويأمر وينهى ، ويصارع الغرائز من أجل توجيه الإرادة .. وقد استطاع الفيلسوف الألمانى « كانت » أن يفرض على كل شعبه ذلك الأسلوب فى التفكير ، وتحكيم العقل فى كل شىء وترك بصمته على كل طفل ألمانى ، يولد ويشب ويتعلم ويعمل ويفكر .. إنه يرى الضمير صورة من صور الفهم والعقل .

وقد ترفض هذا ، فالعالم ليس عقلاً فحسب ، ولا فهمًا فقط .. هناك الوجدان والشعور ، ولهذا العنصر الثانى من عناصر الضمير ، أنصار ، منهم ، جان جاك روسو ، وكان اهتمامه كبيرًا بالشعور والوجدان ، وعن طريقهما ، نعرف راحة الضمير لدى كل عمل طيب نقوم به ، وتأنيب الضمير على ما نرتكب من خطأ ، أو لأننا لا نقدم على الخير بما يرضينا .. وكم تغضب على روسو ، عندما تعرف أنه كان يحسن الكلام والدراسة ، ولا يطبق ما ينادى به ، حتى لقد وضع أروع كتب ونظريات التربية ، ووضع أولاده فى ملجأ للأيتام ، لينهض عنه بعبء تربية أولاده ، الأمر الذى يؤكد لنا ، اتساع الهوة ما بين النظرية والتطبيق ، ويتبقى العنصر الثالث الأخير من عناصر الضمير ، عنصر المجتمع .. ومما لا شك فيه أن قيم مجتمع ما ، تترسب فى نفوس أبنائه ، وتساهم فى تشكيل الضمير ، وكثيرا ما نرفض أشياء بضميرنا ، قائلين : « وكلام الناس ؟ » .. إننا نخشى حكم المجتمع الذى يحدد استجابتنا للظواهر الأخلاقية بتراثه الاجتماعى وبيئته الحضارية .. وكان صاحب هذه النظرية ، عالم الاجتماع الكبير « ابن خلدون » ودور كايم من بعده . والواقع ، أن المعرفه أساس للبناء ، وليس المقصود أن يكون البناء أساسًا فحسب ، لكن الحديث عن الضمير ، لا يجب أن يكون حديث العلم والمعرفة ، فالبعض يتصور « العلم والمعرفة » فهلوة ، ولايدرك أن الضمير كان موضوع دراسة من الفلاسفة وعلماء النفس ، فقد تحدثوا عن نشأة الضمير ، وتصدوا للمذاهب التى ناقشت الموضوع ، البعض يرى الضمير فطريا يولد مع الإنسان ، وقال البعض الآخر : إن الضمير يوجد ويكتسب .. ووصل بهم الأمر ، إلى القول بأن القوانين لا تخلق الصفات الطيبة ، إنهم ينكرون التربية ، ولكنهم يرون أنها لاتبدأ من

اليوم ، إنما تستند إلى أساس فطرى تبنى عليه العادات والقيم . وليس أجمل من قصيدة للشاعر الفرنسي الكبير « فكتور هوجو » يقول فيها :

إذا كان هناك ثمة منظر أروع من البحر فهو منظر السماء ..

وإذا كان هناك ثمة منظر أروع من السماء فهو الضمير ..

فالضمير عندى ليس نحوًا وصرفًا ، ولا هو علم نفس وفلسفة ، بل هو فى مصاف الحياة ذاتها ، ولقد تطورت الحياة الإنسانية إلى الأفضل ، لأن هناك شرفاء ، ذوى ضمائر حية عذبتهم ، لكى يعطوا البشرية عصارة عمرهم وفكرهم ، من أجل حياة أفضل ، وما كان فى استطاعتهم أن يحجبوا عن الإنسانية فيض خواطرهم ، وبفضلها رووا أشجار الحرية والتقدم ، فاخضرت وأثمرت قيمًا غالية عزيزة أثرت عقول البشر ووجدانهم ، وبنت مجتمعهم على أسس أكمل وأروع .. وما استطاع ذوو الضمائر الميتة أن يؤخروا المسيرة ، فقد انتهوا بموت ضمائرهم .

ونعود من حيث بدأنا .. إلى « المعرفة » و« التربية » .. قد نعرف كل هذا وأكثر من هذا عن الضمير ، ولكننا نفشل فى إيجاده وخلقه وتنشئته وتربيته .. وقد لانعرف الكثير عن الضمير ، ولكننا نزرعه فى نفوسنا ، ونفوس أبنائنا ونتعهده بالرعاية والاهتمام ، فيثمر الخير ، ويثرى الحياة .. لأنه القاعدة التى تنطلق منها التربية الأخلاقية وهو الأساس لها ، ومن فوقه يقوم بنيان شامخ يشمل عشرات القيم ، التى آمنت بها الإنسانية خلال مسيرتها الطويلة ولابد لنا من أن نعرف هذه القيم الأخلاقية ، ونؤمن بها ، ونعتنقها ، لكى تسود حياتنا كأفراد وجماعات ، وتصنع منها شيئًا يستحق أن يعاش ..

٤

كان الصدق – ومازال ، وسيظل – أول ما نريد أن نغرسه فى أبنائنا .. وقد كان الكذب أكبر الكبائر ، وأسوأ ما يمكن أن يلصق بإنسان .. ودائما أبدًا ، يدوى فى آذاننا هذا الحوار ..

– هل يكون المؤمن جبانًا ؟ هل يكون المؤمن ..؟ هل يكون ..؟ .

– نعم

– هل يكون المؤمن كذابًا ..

– لا

لا ، وألف لا .. لا يكون كذلك أبدًا . إن الكذب أم الكبائر .. ويروون عن رجل ألقوا عليه بضعة أسئلة .. هل تسرق ؟ هل تشرب الخمر ؟ هل . . . ؟ كانت إجابته على كل ذلك : لا .. لا أرتكب مطلقا مثل هذه الأمور .. وكان السؤال الأخير .

– ماهى الصفة التى تضيق بها نفسك ؟

– إننى .. إننى .. إننى أحيانًا أكذب ..

وانفجر الحاضرون ضحكا .. فقد اعترف بإجابته على الأسئلة بأنه يرتكب كل آثام الوجود ، فلا أحد يصدق حين ينفى عن نفسه هذه الاتهامات ، والذى يكذب ، يظل يكذب حتى يصدق نفسه وحكاية جحا شهيرة ، حين ضايقه الأولاد ، فزعم لهم أنه فى دار فلان فرح وعرس ، فذهب الأولاد ، وإذا به يقول لنفسه : قد يكون هناك فرح وعرس فعلا فى هذا الدار .. وانطلق إليه ..

ولتصوره فى لقاء مع الأولاد عند هذه الدار ، لقاء كذبه .

ونحن نذكر قصة الولد الذى كان يصرخ الذئب الذئب .. وحين جاء الذئب بحق ، وارتفعت من جديد الصرخات لم يستجب لها أحد ، والتهم الذئب ذلك الولد الذى أودى به كذبه .. لذلك قالوا « إن التربية هى الصدق » وترتفع فى أعيننا قيمة الصدق وندرك أنه أبو الفضائل .. فالشجاعة موقف صادق : كذلك الكرم والصبر والأمانة إلى آخر هذه القائمة الرائعة للقيم الإنسانية ..

وكثيرًا ما نضطر إلى أن نحمل شمعة ، نبحث على ضوئها عن « الصدق » فى عالمنا فلا نكاد نجده ، وهذه شعارات قد يرفعها الأدباء ، أما التربويون ، فإنهم يجدون الصدق فى حجرات الدراسة ، ينطلق على ألسنة الصغار والمعلمين ، ولست أنسى قصة تلميذ صغير عاقبة معلمه فبكى بحرارة فى لحظة دخول المفتش ، الذى اتجه على الفور إلى الصغير يسأله ما به ، وتردد التلميذ قبل أن يقول : إن نحلة قرصته . وابتسم المفتش ابتسامه عريضة ، فقد أدرك الأمر.. لكن المعلم جاء إليه حيث يقف قرب التلميذ الباكى ، وقال له متحملا المسئولية :

— ليس صدقًا .. إننى فى الواقع عاقبته ..

وسعد المفتش سعادة بالغة بالموقف ، كما سعد باحتمال التلميذ للعقوبة ونسبها إلى النحلة. إنه صادق الحب لمعلمه . والصدق فوق التضحية والشجاعة .. إنه — كما قلت — قيمة تربوية عالية لا تعلوها قيمة أخرى لذلك يجب أن نلتزم بها التزامًا كاملا فى الحياة .

الفن والتربية

١

عالمنا يموج بتيارات فنية ، وكل الدنيا تسعى لتجميل المدن ، والطرق ، والمبانى ، وتبذل جهودا مضنية لكى يفتح المواطنون أعينهم على الجمال أينما ساروا .. والفن مسئولية الدولة والمجتمع ، ومسئولية الأسرة والأبوين ، ومسئولية المدرسة والمعهد ..

إن المدن التى لا طابع لها ، تؤثر فى نفوس سكانها وضيوفهم أسوأ تأثير ، وينعكس ذلك على تصرفاتهم وسلوكهم .. لذلك تحرص كل الدول المتقدمة على أن تجعل المدن قطعة من الجمال بتنسيق الشوارع ، وزرع الحدائق ، واكتساب مساحات من الخضرة ، مع توزيع للألوان مناسب لا يؤذى العين .. حتى أنهم يشترطون لطلاء منزل من الخارج ضرورة أخذ رأى الجيران فى الألوان ، حتى لايفتحوا أعينهم على ما يؤذيهم .. كما أن مصالح ومجالس لتنسيق المدن توجد فى كل البلدان ، تتفرع عنها هيئات لتجميل الأحياء .. وبالتالى الشوارع والميادين .

ويدأ الجمال يفرض نفسه على البيوت منذ فترة ليست بالقصيرة ونشأت هندسة ديكور المنازل .. والأثاث .. وتسلل الفن إلى الغرف والحجرات ، من أجل أن يصنع جوًّا بهيجا للأسرة تعيش فيه ، وتستمتع به .. وذلك شىء رائع

إذا اتسق ما فى البيوت مع البيئة خارجها ، وإذا ما اتفق مع الجذور التاريخية الخاصة بسكان هذه البيوت .. فالديكور واللوحات برغم عالمية الفن ، يجب أن توائم وتناسب أصحابها ، ويجب أن تنبثق من نفوسهم ومزاجهم وماضيهم .

ومدارسنا تعلم أبناءنا الفن .. رسمًا وتشكيلا ، وتحاول أن تدربهم على تذوقه .. وهى خطوة هامة على الطريق ، برغم كل ما يمكن أن يثار فى هذا المجال .. فالبعض ضد الفن .. والبعض ضد أساتذة الفن أنفسهم .. والبعض ضد المنهج والأسلوب المستخدم فى هذا المجال . ولسنا نحب أن نشوه كل شيء ونحكم عليه بالفشل لمجرد أن نقدًا يوجه إليه .. لقد وجد الفن فى المدرسة ، ويجب استثمار وجوده ، خاصة وشباب جديد ينهض بأعبائه ، بكل ما فى استطاعتهم ، وبعضهم ينجح برغم المعوقات ، وبرغم أن حصص الفن لاتلق ماهى جديرة بها من احترام ، إذ كثيرا ما يعتدى عليها من جانب مواد دراسية أخرى ، يتصور أساتذتها أن الفن والرسم أمور ثانوية ، يمكن إغفالها وتجاوزها واستبدالها بما هو أهم منها .. وهكذا تتضافر عوامل كثيرة على الهبوط بالتربية الفنية من كافة الجوانب التى يجب أن تكون فى صالحها ، والتى يجب أن تتحمل مسئولية النهوض بها .

إن الفن ضرورة للأجيال الناشئة ، وفى سنوات العمر الأولى بالذات ، تكون ممارسته مجدية بشكل كبير ، بل يجد فيه الأطفال متنفسًا لمتاعبهم النفسية .. ولقد عبر طفل عن إحساسه بأبيه بأن رسمه ، وكفه ويده أكبر من كل جسمه ، وكشف بذلك عن استخدام الأب لهذا الكف فى إيذاء الابن لدرجة جعلته يتصورها شيئا عملاقا فى حجم الأب نفسه ! ورسم طفل آخر أمه ، عبارة عن دائرة كبيرة فيها بضعة أسنان . وكانت تشير بذلك إلى أن أمه لاتريد

على أن تكون فمًا كبيرًا يصرخ فيه ، فالفن هنا علاج وتربية ، ولدينا فرصة من خلال الكتب الملونة على تدريب الأطفال على رؤية الألوان ، ومعرفة تأثيرها عليهم ، وفهم أهميتها فى الحياة .. ثم لدينا لعب تكشف عن قدرة الطفل على إدراك الحجوم ، وأخرى لمعرفة المساحات ، وبذلك تتدرب عينا الصغير على ما حوله ، وعلى فهم علاقاتها بعضها ببعض ، والإحساس بما يمكن فى هذه العلاقات من جمال .. والمدرسة وحدها ليست مسئولة عن كل هذا فإنها قد تكون جميلة ، منسقة ، رائعة ، ويفسد البيت بإهماله للفن ما تبذله المدرسة .. وربما تضافرت المدرسة والبيت على خلق ذوق فنى رائع ويحيط المجتمع كل هذه الجهود بما يصنعه فى الشارع من إعلانات سقيمة ، وبنايات منفره ، ونحن نود أن يتم التنسيق بين كل هذه الجهات لكى نصنع جمالا يمتع أعين الناس ويبهج نفوسهم .. فإننا لا نستطيع أن ننسى تلك العبارة المرحة التى تقول :

« شىء طبيعى أن الفن الردىء يخلق الذوق الردىء »

وهو مالا يمنعنا من أن نتساءل : هل كان الفن الردىء ليوجد لولا وجود الذوق الردىء ؟ ! ..

ونحن لانريد فنًا رديئًا ، ولا ذوقًا رديئا ، إنما نسعى من أجل فن جميل وذوق أجمل ..

٢

فزعت حين سمعت أن والد طالب ذهب إلى مدرسة ابنه ، يريد أن يخرجه منها ، لأنه يرفض أن يتعلم الطفل الرسم ، إذ إن الأب يعتقد أن الدين قد حرم

الرسم .. فزعت لأن مثل هذا اللون من الناس مازال يعيش بيننا ، وبهذه العقلية المتخلفة .. وأدركت السر فى تخلف الفنون فى بلادنا : إنتاجًا وتذوقًا .

مازلت أذكر رسمًا لطفل صغير وضعه على الورق تلقائيًّا .. وعندما سألته : ما هذا ؟ أجاب : لاشىء .. مجرد شىء جميل .. ولم يكن يدرك حينئذ أنه يقول كلاما فنيًا على أعلى مستوى ، وأن سنين طويلة قد راحت من عمر الإنسانية وهى تفتش من خلال المدارس الفنية على « الجمال » وتحاول أن تضعه فى عيون الصغار ، وتبذل جهودا مضنية من أجل أن تصنعه أصابعهم بالريشة والفرشاة والقلم .. ويكبر الأطفال وقد بدأت أصابعهم تتيبس ، وتتصلب ، وتتحجر ، ولا تطيعهم لكى يعبروا بها عن الأشياء الجميلة بالخطوط والتكوينات والألوان ، إلى أن نفدت – بفضل أساتذة التربية الفنية – كل قدرة على التعبير بالرسم ، وانتهت علاقة الأطفال بصنع الفن ! وكادت تنتهى كذلك علاقة المجتمع بالفن – كتشكيل – فهو لم يعد يتذوقه بعد أن وُضع أساتذة التربية الفنية قواعد وأصولا للرسم الجميل ، وغير الجميل ، حتى بدأت العيون هى الأخرى تتيبس وتتحجر عن رؤية الجمال فى اللوحات والتماثيل ، ولولا أنهم فنانون بالأصالة ، والطبيعية ، والوراثة ، لانتهت علاقتهم تمامًا بهذا العالم الذاخر بالجمال والروعة ، ولانقطعت صلتهم بالمعارض والمتاحف ، بل نكاد نقول إنهم كادوا لا يلتفتون إلى رسم بمجلة أو صحيفة .. أصابهم السادة الأجلاء أساتذتهم بعمى مؤقت عن مهرجان الجمال والألوان المتمثل فى لوحات الفنانين وقطعهم الساحرة .. (سامحهم الله ، وغفر لهم) .. إن الفن إضافة ساحرة ورائعة للحياة ، بل صياغة جديدة لها ، كما أنها تنعكس عليه فى لغة مؤثرة تلعب بالخطوط ، والمساحات والأشكال والألوان ، وتلعب بالارتفاعات

والمسطحات والمنحيات بشكل متزن يؤثر فى الرائى وتجعل حياته أكثر بهجة وسعادة .. كل ذلك فاتنا فى طفولتنا ، مع أن الطفولة متفتحة للتعبير عن نفسها عن طريق هذه اللغة الإنسانية الفريدة ، ولا يقابل هذا بالتشجيع ، بل بالسخرية والاستنكار ، الأمر الذى يدمر كل رغبة فى مواصلة هذه الوسيلة الطبيعية من وسائل التعبير ، وتغلق النافذة أمام العيون .. ولو أنهم كانوا يفهمون الأصول الفنية ، ولو أنهم كانوا أكثر وعيا بالهدف الذى يسعون إليه ، والوسيلة التى يمكن أن تحققه لما حدث لى هذا الإحباط ، ولبقى الفن وسيلة رباط بيننا وبين الآخرين ، نأخذ منهم ونعطيهم .. إن الفن ليس غاية فى حد ذاته برغم كل تجميله للحياة وتعبيره عنها ، إنه يهدف إلى تمثله ، لينعكس سلوكًا وتصرفًا إزاء كل مواقف الحياة ..

وإذا كنا قد فقدنا طريقنا للفن : تربية وتعليمًا ، فيجب ألا نفزع ونضيق حين نسمع طالبة تقول إنها لا تحب الرسم والتربية الفنية ، وهى بذلك لا تحب « الحياة » .. إن الفن استثمار لوقت الفراغ ، وامتاع للوجدان ، ولا قدرة للطالبة على استيعاب بقية مواد الدراسة إذا هى انصرفت عن الاستمتاع بالفن .. إنه يربى الوجدان ويصقل الإحساس ، وهو قادر إذا مارسه صاحبه على علاجه من كثير من الأمراض التى قد تنتابه كالخجل والانطواء .. إنه حين يستغرق صاحبه يجعل منه إنسانًا حساسا شفافًا ، قادرًا على العطاء .. والشرط الوحيد لذلك ، ليس الموهبة فحسب ، بل أن تجد هذه الموهبة أسرة واعية ومعلمًا متفتحًا يحتضنها بحب وأمل وتشجيع .. إن الطفل فنان ، ومعبر ومبتكر ، إذا فتح أمامه الطريق ، ولقى اليد المساندة الحانية .. لا أحد يستطيع أن يدرك مدى سعادة الصغير حين يجد لوحته قد علت وارتفعت على الجدران .. إن ابن صديق لى

كان وهو يطلعنى على كراس الرسم ، أو التربية الفنية ، الخاص به .. كان عبارة عن غلاف ، وبضعة أوراق بيضاء قليلة لا يكاد « الدبوس » يجمع ما بينها أو يشبكها .. سألته : أين الرسوم ؟! أجاب : إن كلها أعجبت المعلمة ، لذلك تنتزعها من الكراسة وتعلقها .. قال هذا فى فخر وزهو وثقة فى النفس ، أكاد أقطع معها أننى أمام ليونارد ودافنشى صغير وجديد ، إننا على ثقة من أن كل أم لديها فنان كبير بين أطفالها ، وهى تستطيع أن تنمى موهبته وتصقلها وتجعل منه عبقريًّا .. وفى الوقت ذاته فى إمكانها أن تقبر هذه الموهبة وتأتى عليها .. وما من سبيل لنجاح الطفل - فى مجال الفن خاصة والحياة عامه - ونحن نحرم أصابعه من التدريب ، ونحول بين عينيه وبين الاستمتاع بالجمال .. فى المتاحف ، والمعارض .. وفى الطبيعة ..

٣

إن الفن جو .. تستطيع الابنة والأم أن تخلقه وتصوغه بقدراتها ومهاراتها وخبراتها ، إنها تجعل الصغير ينظر للموضوع من زواياه التشكيلية والانفعالية والتعبيرية . . من أجل أن يصبح هذا الموضوع مساحات وخطوطًا وألوانًا ، ومن أجل أن تقيم جماليًا ، وليس وفق المقاييس والقواعد التقليدية .

والحق أن الأسرة فى بلادنا ، ومعها المدرسة ، والمجتمع ، لا يتعاونون لكى يخلقوا فنانا خلاقًا مبتكرًا ، لا يوجدون إنسانًا متذوقًا متفهمًا ، ليتنا نضع منهجًا ، نجعل فيه نصب أعيننا هذه الخامة الإنسانية المتفتحة على الحياة ، صاحبة الأصابع اللينة المرنة ، التى تحتاج إلى أن تعبر ، وتتذوق .. وليت

لوحات معبرة تتناثر فى أرجاء وأبهاء بيوتنا ومدارسنا تجملها ، وتفتح الأعين على الجمال .. ولن أنسى ذلك الصغير الذى أمسك بيدى لكى يرينى لوحة صغيرة جميلة رسمها بنفسه ، ووجدتها أمه أنها من الجمال بحيث يمكن أن تعلقها فى غرفته .. ولن أنسى طفلا آخر أمسك بيد أمه يقودها إلى آخر ركن فى المدرسة لكى تشهد لوحة له معلقة هناك ، وهو يقف بجانبها راضيًا سعيدًا .. تمنت أن يمتد بها العمر ، لكى يمسك بيدها إلى معرضه !.

ولسنا نريد بالطبع أن يمارس الجميع الفنون التشكيلية بصورة تصل بهم إلى المعارض ، ولكننا نريد أن يستمتع الجميع بعيون ذواقه تصل بهم إلى مشاهدة المعارض ، ونريد من الجميع أن يمارسوا إمتاع عيونهم بالفن رؤية وتطلعًا .. نريد أن نرى الصغار والشباب والكبار يسعون إلى المعارض والمتاحف. يستقطرون الجمال فى عيونهم ، كما يتمتعون بالطبيعة : بحارًا ، وجبالا ، وخضرة .. إن هذا يثرى حياتهم .. إن ساعة وسط الجمال ليست بساعة . إنما هى بعمر كامل .. لأنها رصيد ، يسحب منه صاحبه مع الأيام ، بعد أن يختزن فى أعماقه ما يرسب فيها من قيم جمالية ، تبقى مشعة ومضيئة ممتدة لوقت طويل وبعيد .. ولكم نتطلع إلى الأمهات وإلى معلمات الفنون راجين أن يسكبنْ حب الجمال فى عيون ونفوس الأبناء .. وأن يملأن قلوبهن شغفًا بها وبالحياة .. إننا نحب من أبنائنا الا يكتفوا بأن تكون غرفهم نظيفة ، بل جميلة ، وما أيسر ذلك .. وكثيرًا ما نرى فراشات زاهيات الألوان ، وأشجارا دائمة الخضرة ، وغابات وشلالات وبحيرات على جدران غرف أبنائنا ونتطلع إليها بحب ونستمتع بها ، تذوقا للجمال ، وتدربًا على استيعابه .. ونريد من مدارسنا أن تكون كذلك .. وبيوتنا أيضًا فى حاجة إلى لمسات الجمال ، ذلك وحده هو الكفيل

بإنجاب فنانين يجعلون حياتنا أثرى وأجمل .. وحياتهم هم أيضا .. ونحن لاندرى إلى أى مدى يمكن أن تتأثر نفوس أطفالنا بالرسوم الرديئة التى تطالعهم فى البيوت أو المدارس ، إنها قد تفسد أذواقهم ، ويكون لها أسوأ الأثر عليهم حاضرًا ومستقبلا .

الرياضة والتربية

١

ليس للرياضة فى حياة الأسرة فى بلادنا مكان ، ولو أننى سألت ربة أسرة عن الرياضة التى تمارسها لا نفجرت ضاحكة ، واعتبرت سؤالى « نكتة » والأمر نفسه ينسحب على رب الأسرة ، وذلك برغم النوادى الرياضية الكثيرة التى نقيمها ، والتى جعلت الرياضة تنحصر فى شىء واحد ، هو الانحياز لفريق بذاته ، وناد بعينه والتعصب مع الأسف لكرة القدم ، لا أكثر ولا أقل .. ولابد وأن نرفع يدنا ضد هذا الذى يجرى قائلين :

– (فيتو) .. أى .. إنى أعترض .. نعم ، نحن نعترض على أن يظل الأمر على هذه الصورة البالغة الضرر بنا ، صحيًّا ، ونفسيًّا .. والسؤال الذى يعتبره رب الأسرة وربة الأسرة نكته وأقصد به الرياضة التى يمارسانها ، يدهشنا أن نجد الرجل المتحضر والمرأة المتحضرة يجيبان عليه بأنهما يمارسان أغلب ألوان الرياضة بداية بالمشى على الأقدام ، والسباحة ، و... و... إلى آخر هذه القائمة من الألعاب التى توارثناها عن مصر القديمة ، والإغريق الذين ابتدعوا الأولمبياد ، وهو تقليد بعث من جديد مع القرن العشرين .. أما نحن فلم تعد لنا رياضة اللهم إلا النزهة فى البر ، وخلال عطلة الصيف .. وهى لا يمكن أن تكون كافية على الإطلاق والسؤال : هل فات الوقت ؟ ألم يعد هناك من أمل

لتدارك هذا الذى يجرى ، خاصة بالنسبة للأبناء ، والأجيال الجديدة التى أتيحت لها فرصة التدريب على ألوان من الرياضة فى المدارس ؟!

كما أن هناك (التعليم المستمر) يجب أن يكون هناك (الرياضة المستمرة) تغرسها المدرسة ، ويتعهدها البيت والأسرة ، ويشجعها المجتمع والدولة ممثلين فى الأندية الرياضية ، وبغير هذا سوف تظل الرياضة شيئًا بعيدًا عن حياتنا ، وستبقى (نكتة) لا أكثر ولا أقل .. فى حين أننا مطالبون بأن تدخل الرياضة فى حياتنا بشكل عضوى ، نحن الذين آمنا بأن (العقل السليم فى الجسم السليم) .. وتكفينا نظرة إلى العالم الخارجى ، لنكشف إلى أى حد نحن مقصرون فى حق عقولنا وأجسامنا بتفريطنا فى الرياضة .. وقد فرض علينا ديننا الحنيف رياضة — بدنية وروحية — خمس مرات فى اليوم ، وأقصد بها « الصلاة » وفرض رياضة وترويض المعدة والنفس من خلال صوم رمضان ، وفى الحج رياضة فيها طواف وسعى ، ومع كل ما يمثله كل ذلك من توجيه كريم ، فإننا نبدو كأنما لا نفهم هذه الإشارة ، وكل لبيب بالإشارة يفهم ، ولكن من أين يأتى الفهم ، ونحن لم ندفع سقم العقول والأجسام برياضة ترفه عنها ، وتقوى منها ، وتدفع الضعف وتقيها المرض ، والوقاية خير من العلاج ؟

وها نحن قد شخصنا المرض ، وكشفنا عنه ، ويبقى أن نفتش عن الدواء ، ونبحث عن العلاج الناجح لهذه المشكلة التى لا أحسبها أخذت منا عناية كافية .. على الرغم من أن صفحة رياضية كاملة ، تفردها صحفنا اليومية ، وتنشر فيها أخبارًا وتحقيقات عن الرياضة والرياضيين ، وأنباء عن دروع وكئوس وميداليات ، ومباريات .. إلا أن ذلك لا يمكن أن يقوم دليلا على أن الرياضة تدخل حياتنا بشكل عضوى ، ولا هو يؤكد أن لها دورًا حقيقيًا ، لذلك لابد

من خطة شاملة ، يتحمل فيها كل طرف من الأطراف جانبًا .. من المسئولية ، لكى ننهض بعبء التنفيذ .

على أن هذه خطة يجب أن تنطلق من إيماننا بهذا الذى نقوله ، ويجب ألا تتصور الأمهات والآباء أن الوقت قد فات .. إن لكل عمر رياضته المفضلة ، وقد نجحت الإنسانية فى ابتكار ألوان من الرياضة للعجائز. لمن هم فى السبعين ، وما فوقها .. وأوضح مثل للرياضة التى يمكن أن يمارسها الجميع لعبة (الجولف) التى تجعل لاعبها يسير نحو عشرة أميال دون أن يحس ودون أن يشعر لأنه يقطعها خطوة خطوة ، ببطء وراء دفع كرات صغيرة إلى حفر فى الأرض ، بواسطة مضارب خاصة .. كما أنهم ابتكروا ألعابًا رياضية للأطفال من سن الحضانة حتى يقووا من أجسامهم وعضلاتهم ، ويواكب هذه الألعاب برنامج خاص للتغذية لتعويض الجسم عما يفقده خلال ممارستها . إن الأسرة فى حاجة إلى ثقافة رياضية لكى نخلق رأيا عامًّا يساند قضية الرياضة ، ولكى نخلق وعيًا بما يجب أن نعمله لتحقيق شعار (الرياضة للجميع) ، وليست للرياضيين الذين يمارسون لعبة بعينها ، ويحترفون رياضة بذاتها .. هؤلاء ليسواهم هدفنا ، بل إننا نريد لقطاعات عريضة من الجماهير أن تسعى للرياضة بألوانها .. ولعل الألعاب السويدية التى تقتصر على تحريك الأذرع والسيقان ، والجذع ، والرأس ، وباختصار كل أعضاء الجسم ، فى حركات منتظمة ، موقعة أيسر ما يمكن أن يقوم به من فاتهم ركب الرياضة ..

إننا ننتظر الكثير من المدرسة فى هذا المجال ، ونتوقع الأكثر من المجتمع والأندية .

٢

يمارس الأطفال الرياضة بتلقائية رائعة ، وذلك من خلال « اللعب » ويتم هذا قبل أن يدخلوا المدرسة ، ويلعبون « الرياضة » بشكل منظم ، وعلى أيدى المعلمين والمعلمات .. ولكننا نلاحظ شيئًا طريفًا .. ذلك أنه عندما تحولت الرياضة إلى « حصة » قل حبهم لها ، وإن ظلت واحدة من أحب ساعات اليوم الدراسى إلى التلميذات ، إن لم تكن أحبها على الأطلاق بالنسبة للطالبة .. ومعلمة التربية الرياضية ومعلمها ، يتمنى الجميع لو أنهم أصبحوا مثلها : صحة ، وشبابًا ، وقوامًا .. وهم يحبون مهنتها إذ إنها مهنةً تبقى لصاحبها الصحة والشباب ، والنشاط والحيوية ، ويتقاضى أجرًا فى مقابل ذلك ! وليس هناك مهنة تعادلها فى ذلك ، فالطالبات يقبلن على حصتها وعليها إقبالاً قل أن يحدث بالنسبة لبقية المعلمات .. يشدهم بالرداء الأبيض ، الناصع ، والحركات الإيقاعية ، والجرى والقفز .. ثم الكرة ، بل لعباتها .. وتتمنى الطالبات أن تتحول كل ساعات الدراسة إلى « ألعاب » ولا تتحقق أمنيتهن ، بل حدث العكس إذ تبدأ معلمات المواد الدراسية يزحفن قرب نهاية العام الدراسى على حصة التربية الرياضية ، حتى تكاد أن تختفى من الجدول ، وشعور بالأسف والأسى لذلك ينتاب الطلبة والطالبات رويدًا رويدًا. يضطر الطالبات لأن يباعدن ما بينهن وما بين الرياضة والتربية الرياضية حتى كادت تختفى من حياتهن الدراسية قرب انتهاء المرحلة الثانوية .. لكنها فى الواقع لا تنتهى من حياتهن ، لأنها تترك أثرًا لا ينمحى ، وتتركز فى عبارة تقليدية هى فى واقع الأمر من أجمل

وأعمق العبارات التى تؤثر فى النفس ، تلك هى « الروح الرياضية » .. وإذا لم تكن التربية الرياضية قد خلفت غير هذه الروح ، فإنها تكفى بحق ، وصدق .. والمعلمة الذكية تلح على اللعبات الجماعية . ولسان حالها يقول :

– نعم ، هناك بطلات فى ألعاب فردية ، كالسباحة مثلا ، لكن بطولاتها تتواضع بجانب بطولات الذين يتعاونون ، ويفضلون الإيثار على الأثرة ، والجماعية على الفردية ، والتعاون على الأنانية .

والتعاون من أبرز ما نتعلمه من التربية الرياضية .. وهو قيمة عظيمة فى الحياة ، حين نشعر أننا كعائلة فى البيت ، وكأسرة فى المدرسة ، نعزف لحنًا واحدًا ، نتعاون ونتآزر فى عزفه آلات أوركسترا كاملة ، فإذا بالمعزوفة سيمفونية رائعة وبهذه الروح يحقق الفرد ذاته بشكل أفضل ، ويقول كل من حولنا عنا إننا « متعاونون » وهى صفة إنسانية نعتز بها أكثر مما نعتز لو نجحنا بشكل فردى ، فالواحدة منا ناجحة كعضو فى جماعة ، وناجحة بنجاح الجماعة .. وبذلك يزدوج النجاح فى الحياة بشكل حلو ومثمر وممتع .

والحديث عن النجاح يجرنا إلى نقيضة ، وإلى الدرس الثانى الذى تلقننا إياه الرياضة والروح الرياضية .. هى تعلمنا ألا نزدهى ونفخر ونتيه بالنجاح ، ولا (ننتفخ) بالفوز إلى درجة نصبح معها بالونة قابلة للانفجار غرورًا ، وهى أيضا تدربنا على تقبل عدم النجاح بقلب ثابت ، ولا يفقدنا ذلك الثقة فى النفس ، فإن الحياة نهار وليل والذى يتعثر ويقع مرة ، يجب أن ينهض وينفض عنه التراب ، ثم يمضى ويواصل السير على الطريق من جديد .. وليس أروع من « الرياضة » أسلوبا للتدريب على تقبل النجاح والفشل فى حجمها الحقيقى .. بلا تهويل ولاتهوين ، لهذا أو لذلك ، وإنما علينا أن نقدر الحجم الحقيقى لكل

منها ، إن إطار السيارة يحتاج إلى كمية مناسبة من الهواء ، إذا قلت عجزت السيارة عن السير وإذا زادت هذه الكمية انفجر الإطار .. وهذه الكمية المتناسبة من الهواء شديدة الشبه بما تزرعه فى نفوسنا التربية الرياضية .. إنها حركة تحفظ توازننا ، وتصلب منا قامتنا ..

٣

تعلمنا التربية الرياضية أن الحياة ليست علما فحسب ، ولا عملا فقط .. بل هى « لعبة » أيضًا .. وإذا ما اجتمعت العناصر الثلاثة – العلم والعمل واللعب – استطاعت أن تقيم على أعمدتها بناء الحياة الناجحة السعيدة .. « واللعب » ليس عيبا ، بل من العيب أن ننصرف عنه ، على أساس أنه للأطفال فى حين هو ألزم للكبار ، لكى تظل روحهم طفلة وشابة ، ولكى تبقى أجسامهم مرنة ، قادرة على التحمل .. وإذا كانت ممارسة التربية الرياضية قد أفلتت منا ، مع الأسف ، فإننا يجب أن نحاول مع كل صباح أن نتذكر بعضًا من تمريناتها .. وما من مرة نحاول أن نقلد العصفور وهو يهز جناحيه استعدادا للطيران ، إلا وأحسسنا كأننا عصفورة طليقة سعيدة بحق .

ويجب على كل معلمة فى المدرسة أن ترفض بشدة أن تعتدى على حصة التربية الرياضية ، إنها بذلك تحرم طالباتها من ساعة حلوة ، ولسوف يتضررْن من طيلة حرمانهن منها ، ولن يتابعن الدرس مهما كانت أهمية هذا الذى تقوله المعلمة التى استولت على الحصة .. بل لو تغيبت مدرسة التربية الرياضية لظرف خاص ، وعهد لمعلمة أخرى بأن تحل محلها ، يجب عليها أن تصحبهن إلى فناء

المدرسة ليلعبن معا ، وتصبح الحصة طريفة ، لأن المدرسة تمارس الرياضة وقوفا .. وتمارسها حديثا عن الرياضة لتحس الطالبات أنها منحازة إلى اللعب بقدر انحيازها للعلم والعمل .

ومن المحتم أن تتناول فى حديثها أن تقوية البدن أمر حيوى ، فهو ليس إناء الروح والنفس فحسب ، بل لاسعادة فى الحياة إذا مرضت منا الأجسام ، فرضها يسقم الأرواح والنفوس ، والصحة تاج على رءوس الأصحاء ، والوقاية خير من العلاج ، والتربية الرياضية تقوم كل هذا وتفيده ، وتبعث فيه النشاط والحياة ، وتدربه على الاحتمال ، وتجعله أكثر مرونة وقدرة على خوض معارك المنافسات ، والمنافسة ليست شرًّا كلها فهى تشحذ كل الطاقات والقوى ، وتدفع الإنسان إلى بذل كل ما يستطيع من أجل أن يفوز فوزًا شريفًا مشروعًا .. وليس من الضرورى أن تكون الطالبة متفوقة فى الرياضة برغم حبها لها ، ويجب ألا تضيق أبدًا بانتصار زميلاتها عليها ، بل لعل هذا تدريب لها على تقبل النتائج أيًّا كانت ! ، وعندما تصيب الهدف فى كرة السلة ، تتلقى تهليلا من صديقاتها ، يمحو كل آثار الفشل ، وعندما تسبق فى الجرى تستقبل بالتهنئة الحارة بشكل يرفع معنوياتها ، على أن الفشل يجب ألا يقعدها عن « اللعب » لأن الكسب يكمن فى اللعب ذاته ، فنصيب صاحبته أجر إذا مارسته ، وأجران إذا فازت فيه .. ولابد أن نردد « علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل » ونود لو أننا تعلمناها كلها ، ومارسناها جميعا ، على أن هناك رياضات أخرى ، هى الرياضة العقلية والفكرية ، وهى « تربية رياضية » أيضًا ، أى أن يمارس المرء اللعب بالأفكار ، والجرى وراءها ، ويحاول أن يظل دائما على صلة برياضة المشى .. والصلاة .. وما شابهها من رياضة ، لا وقارًا واستعلاء ، بل

لأنها ما نستطيعه . وقد يحدث أن نتذكر السباحة صيفًا . ولكننا عمومًا مقصرون في حق رياضة البدن بشكل عام .. وكلما نظرنا إلى الأوروبيات يعجبنا قوامهن ، وكيف يستطعن المحافظة عليه .. وربما تنجح في ذلك نتيجة الحركة الدائمة .. غير أن المرأة الشرقية تستحق العطف لكثرة جلوسها ، الأمر الذي يحولها إلى شجرة جميز ! ! ومطلوب منا ، لا للرشاقة ، ولا للصحة ، فحسب ، بل للحياة ذاتها أن نتحرك .. والحركة بركة .. والبركة في الرياضة والتربية الرياضية .

هل دار الحضانة مدرسة ؟

ذهبت يومًا لأطمئن على ابنى الصغير ، وكان يبلغ من العمر الرابعة .. سألت مدرسته بالحضانة عن حاله ، فردت : إنه بخير ، وتعلم الكثير .. فالتفتُّ وسألتها بلهفة : ماذا تعلم ؟ أرجو ألا تكونوا قد أعطيتموه القلم .. قالت : لا .. بل تعلم أن يتكلم مع زملائه ، ويعبر عن نفسه ، ويذهب إلى الحمّام ، ويلعب مع المجموعة ويميز الصور . وأطمأننت عليه ، لكن المدرسة دهشت وقالت لى : الآباء من زملائك يقولون إنهم يدفعون الكثير وإن أولادهم لا يتعلمون . ضحكت وقلت لها : من قال إنى أحضرته ليتلقى دروسا ، ويتعلم بالمعنى الحرفى للكلمة ؟ .. إن يده حتى الآن لا تستطيع أن تمسك القلم إلا « لشخبطة » ، وإذا كتب بها حروفا فستعوقها عن النمو ، وستصبح يدًا قصيرة ويجب ألا يتكلم قبل الأوان .

ولابد أن نتفق على معنى دار الحضانة .. بداية نقول إنّ دار الحضانة ليست مخزنًا تضع فيه الأمهات أولادهن ، ليكدسوا فيها إلى أن ينتهين من عملهن فيردون لأصحابهم . كما أنها ليست مدرسة بالمعنى المفهوم للمدرسة .. لأن مهمتها ليست حشو رءوس الصغار فى السن المبكر بالمعلومات ، وليست مسئوليتها أن تعلمهم الكتابة وأ ب أو ١ ، ٢ ، ٣ ، ولكن مهمتها الأولى أن تعوض الأولاد عن الأسرة ، التى أصبح فى غير إمكانها أن تظل مع الطفل يومه

كله ، وتعوض ابننا عن الحب الذى يفقده بضع ساعات فى اليوم ، مقابل ماذا ؟ مقابل حب من لون آخر لابد أن يدرب عليه ، ويحسه ، ويستمتع به ، ولابد أن يجد الطفل مكانًا غير المنزل ، وأفرادًا غير الأسرة يدخلون على نفسه السعادة ؛ لأن الأسرة والبيت ليسا كل شيء . هناك مجتمع آخر لابد أن يتعرف عليه ويخالطه . فيه لون آخر من ألوان الحياة . ومواجهة المجتمع . هذه تمرن الطفل على الكثير : ومنه مواجهة المجتمع والتغلب على الفردية وطرد الخجل ، والاعتماد على النفس والثقة فيها والفهم المبدئى لمسألة الحرية ، ومنها يحس أن كل ما يطلب ليس شرطا أن يستجاب. قد يحاول البيت تلبية أغلب طلباته ، لكن هنا : لا ؛ فحريته تقف عند حد حرية زميله ، ثم فى الحضانة يعرف أن هذا له وهذا ليس له ، يستطيع أن يأخذ ماله ، ولا يأخذ ما ليس له . وهذا تدريب على فهم الحق والواجب .

ومما لا شك فيه أن دار الحضانة تثير ذهن الطفل وتحفزه للتفكير. البيت محدود ، بجدرانه ، بأثاثه ، بالأبوين . أما دار الحضانة فرحبة ، رحبة بفنائها ، بأثاثها البسيط ، وفيها فرصة لاكتشاف عوالم أخرى فسيحة واسعة ، رحبة متغيرة متعددة . وفى دار الحضانة أيضا أمر هام هو علاقة الطفل بالزمن .. فالحضانة تدرب الطفل على الإحساس بالزمن .. صحيح أنه ليس هناك جدول حصص بالساعة ، لكن الطفل يشعر . يحس بأن هناك حصصا ، أن لكل شيء وقته . فهناك وقت للموسيقى ، ووقت للحديقة ، ووقت للعب ، أما المنزل فليس فيه ذلك ، ليس للزمن حدود . قد يكون الحد الوحيد له الليل والنهار ، وقضاء الوقت ليس له أى نظام .

ثم إن مشاركة الأطفال فى دار الحضانة تزيد فى الحصيلة الأخوية

للأطفال ، وتجعلهم يتبادلون الكلمات التى يستطيعون استخدامها والتقاطها أثناء احتكاك بعضهم ببعض .. عبارات وجمل تجعلهم أقدر على الكلام مما لو استمروا بالمنزل مع الجيرة أو مع مربية ، وهؤلاء يكلمونهم بلغة أكبر من لغتهم . دار الحضانة لابد أن تكون مكانا للعب ، للمرح للفرح ، مكانا للحرية والانطلاق ، وللنشاط .. مكاناً للنمو ، للبناء ، للتكوين .. مكاناً تقل فيه النواهى والأوامر (اعمل ولا تعمل) وهذا هو السبيل لابد أن يبقى عندنا مكان نطمئن فيه على أطفالنا فى أثناء وجود الأمهات والآباء فى العمل . والحقيقة أننى استرسلت فى الحديث عن أهداف دور الحضانة ، وليست لدى فرصة للكلام عن الوسائل التى بها نحقق هذه الأهداف ، الطريقة التى بها نجعل دار الحضانة تؤدى واجبها ، البرنامج الذى يمكن أن نضعه ليتخرج الطفل منها إلى المدرسة الابتدائية وعنده أسلحة يخوض بها معركة التعليم الحقيقية . إن مسألة دور الحضانة أصبحت مهمة وخطيرة ..

الطفل .. ورب الأسرة

سألنى ذات مرة صحفى أجنبى : من رب الأسرة عندكم ؟ ضحكت وقلت : الرجل يقول إنه رب الأسرة .. وأكدت على كلمة «يقول» ؛ وضحك الصحفى وقال لى : والواقع ؟! أجبت : الواقع أن بعض الرجال فى مصر مازالوا يستأثرون بكل السلطة ، ويتحكمون بشكل يذكرنا بالأسرة فى المجتمع القديم ، ويشكل يجعل من رب الأسرة شخصية سلبية ، غير مشاركة فى كيان الأسرة . ولم أكن فى حاجة لأن أسأل هذا الصحفى عن رب الأسرة فى المجتمع الأوربى والأمريكى .. لكنى تركته يقدم فى الصورة بعباراته .. فقال : إن الرجل فى البيت ضيف .. يلقى على مائدة المطبخ بمرتَّبه ، ويدخله ، بعد أن يحتجز لنفسه مصروف جيبه ، وبعد ذلك ليس له من شىء فى إدارة البيت أو نفقاته .. والمرأة تتحمل كلَّ العبء ابتداء من شراء جواربه إلى تغيير أثاث المنزل ، وربما البيت نفسه ، لهذا ترى مثلا : الإعلانات عن ملابس الرجال فى المجلات النسائية ، لا لأن الرجال يقرءونها ، وإنما لأن من يشترى هو النساء .. فهى التى توجه إليها الإعلانات لهذا السبب .. ويمكن طرح السؤال التالى : ما أهمية هذا ؟ هل هناك رب أسرة وربة أسرة ؟ إنهما الاثنان معا .. هذه الإجابة طريفة ، ومن الممكن أن ترضى الطرفين ، وتريح ، لكنها ليست الواقع .. وهنا مثل يابانى ممكن أن يكشف لنا أهمية هذه المسألة .. المثل يقول : « البيت الذى

تقوم فيه الدجاجة بعمل الديك يفسد ولا ينجح » .. وطبعا هذا ليس معناه أن الرّجل هو رب الأسرة اليابانية ، وأن المرأة لاصلة لها .. لا .. لكل واحد أعباؤه . . لكنّ هناك أمورًا لابد أن تكون من اختصاص واحد منهم . . وأمورًا من مسئوليات الآخر ، ولابدَّ من أن تكون هناك مسئوليات مشتركة لاينفرد بها واحد منهم .. هناك أمور شديدة الشبه بإنجاب الأطفال ذاتهم ، لايمكن الانفراد بها ، وانفراد طرف بها يدمر الأسرة .. وتحمل واحد من الطرفين كل الأعباء ظلم ، وجهد فوق الطاقة ، حتى ولو أخذ حقوقا كافية مقابل هذه المسئوليات .. لأنه لابدَّ أن يبقى فيه للطرف الآخر رأى من أجل أن يشب الأطفال وهم يشعرون أن هذا هو المعنى الحقيقى للأسرة .. ليس معنى ذلك أن يلقى كل طرف حمله على الآخر أو يحطه يتلاشى .

ومن قريب أجرى استفتاء بين مجموعة من الأطفال .. عن رب الأسرة عندهم فكانت الإجابات تقليدية . فمن يرى أنه الأب يكتب الأب ، ومن يشعر أنه الأم . يكتب الأم .. فكانت هناك إجابة مميزة طريفة بين الإجابات تستحق الإشارة إليها .. فبعض الأطفال قال : إنه لا يعرف .. لأن والديه مازالا يتشاجران من أجل هذا الموضوع .. وهذه هى الخطورة فى الموضوع .. من رب الأسرة : ؟! .. من الممكن أن يقطع الوالدان رحلة الحياة دون أن يصلا إلى قرار فى هذا الموضوع .. وتتمزق الأسرة .. فى حين أن رب الأسرة الحقيقى حين يكون الأب ، يكون أبا للجميع : للزوجة والأبناء .. وإذا أصبحت الأم ربة الأسرة ، فيجب أن تكون أما للجميع ، للزوج والأولاد .. أما الصراع فمدمر جدًّا للأسرة ، وللزوجية ، وللأطفال .. ونحن لانحتاج لأسر بها دكتاتور يحكم كل ماحوله .. ولسنا محتاجين إلى ربة أسرة متحكمة مسيطرة إلى

درجة الإزعاج .. لكننا محتاجون لساقين تحملاننا لكى نسير ، محتاجون لعينين نرى بهما معًا الأمور من زوايا مختلفة حتى تكتمل الصورة .. نحتاج إلى ذراعين تحملان أعباء الحياة ، على أن تكون كل ذراع منهما اليمنى لتحمل أكثر ، فإن اليد الواحدة لا تصفق ..

الطفل والرسم

سألتنى إحدى الأمهات : كيف أستطيع استثارة ابنى بالرسم ، وبالفن بشكل عام؟ والحقيقة أن كل الأطفال يجب أن يرسموا .. لابد أن يرسموا .. لكن الواقع أن الكثيرين منهم يهجرون الرسم ، ويهربون منه فى سن مبكرة جدًّا ، نتيجة لعدم تشجيعنا لهم .. وهناك أرقام متزايدة من الأطفال نجدهم يقولون : لانستطيع أن نرسم .. أو لا نريد أن نرسم .. وينصرفون عن الرسم ، إذا لم يكن آباؤهم حريصين على أن يظلوا يمارسون هذا الفن الجميل ؛ ففيه خلق .. وجمال .. وتربية .. وتسلية .. ومتعة .. خصوصا أن أطفالنا هؤلاء أحفاد لأناس قدموا للعالم أروع الفنون التشكيلية من آلاف السنين : أبو الهول ، والتماثيل التى تشهد بعبقريتهم ، وورثتهم بالتلقائية يشدون العالم ؛ فما من معرض رسوم أطفال إلا وأطفالنا يكسبون جوائزه . . وأطفال قرية الحرانية فى الجيزة تجربتهم مع السجاد ورسومهم عليه تلفت نظر كل فنانى العالم .. نحن محتاجون بداية – لكى يرسم أطفالنا – أن تتوفر لديهم المواد الخام للرسم .. الورق والألوان .. والفرش ، والطين – إذا كانوا سيمارسون فنونًا تشكيلية – أو القش ، أو القماش ، وأشياء من خامات البيئة . ونحن لانطالب باستيراد هذه الأشياء ، لا .. إننا نطالب بتوفيرها من البيئة من عندنا من أرضنا . وبها سيسحرنا أطفالنا بفنهم .

وبالطبع فإن توفير هذه المواد ليس معناه أن المشكلة قد انحلت ؛ فهناك أطفال كثيرون أمامهم هذه المواد ، لكنهم لا يرسمون ، ولا يقدمون فنونا ، لأنه ليس هناك مايثير اهتمامهم بالفن . الفنون فى البيوت ليست فى متناول أيدينا . وإنما موضوعة كرمز للثقافة . وتشجيع الآباء والأمهات لأولادهم ، يعتبر أهم عامل فى إشعار الطفل بضرورة الفن وجماله . وأحيانًا نجد آباء مقتنعين بأهمية الفن ، لكن ليست لديهم وسيلة لتشجيع أولادهم ، أوليست لديهم القدرة على إقناع أطفالهم ، لسبب أو لآخر . لكن مهم جدًّا أن يأخذ الأب قطعة صلصال ويحاول أن يشكلها ، ومهما فشل فإن فى ذلك إثارة للطفل . والبعض يلجأ إلى كتب التلوين ويريح نفسه ، (وكفى الله المؤمنين القتال) . مجرد علبة أقلام ، وكتاب وتلوين ، لون هذه مثل تلك وانتهينا . وبهذه الطريقة نقبض بيد من حديد على أصابع أطفالنا الفنانين ، ونعوق نموها ، ونعوق قدرتهم على الخلق ، ونحدد خيالاتهم ، ليس هذا فقط بل من الممكن أن يفهموا أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لإنتاج رسم جميل . الكبير يرسم .. والصغير يلون .. نحب أن نقول : إن من الممكن أن يصلح لوح اردواز ، أو قطعة خشب سوداء ، كسبورة للطفل لكى يرسم ويعبر ويعبر ، وهذه مهمة جدًّا . ولا تظنوا أننا نود أن ننشئ كل أطفالنا رسامين وفنانين . لا .. لكن لابد أن يكون لدى كل طفل بذرة فن .. ثم نود أن يتمتع أطفالنا بالفن : إنتاجًا ، ومشاهدة . والمهم فى العملية ذاتها « الرسم » وليس النتيجة .. وممكن أن يقدم الآباء مشورتهم ، ونصيحتهم ، إذا طلبت منهم ، بشرط أن تكون المشورة أو النصيحة بطريقة تجعل الطفل مستجيبًا له بفكرته الخاصة . فلا يملى عليه وجهة نظر . والمشاركة بين الآباء والأطفال فى لعبة الفن هذه مثمرة جدًّا ، وتنتج علاقة حلوة ؛

واهتمام متبادل ، والواقع أن حب الآباء للفن واحترامهم له . ينعكس على الأطفال وعلى البيت .. لابد أن يعرف الطفل أن عالم الفن فسيح واسع .. ولابد أن يرى لوحات لكل المدارس الفنية .. لابد أن يرى الطفل رسم فنانين للحصان ولا شبه بين الرسم والحصان أبدًا ، حتى إذا ما رسم حصانه لا يحزن ولا يقلق . والكتب التى بها لوحات فنية مطلوبة لبيوتنا .. مثل مواد الرسم . وتبادل الحديث عنها شيء ظريف .. وحينما نجد أنفسنا أمام طفل ينصرف عن الرسم كمشاهد ومتفرج ، فيجب أن نطلب إليه أن يرسم رسمًا تجريديًّا ، أو يتعلم مزج الألوان ، ويتعلم رسم المعانى مثل : الغضب والفرح ؛ لأن هذا اللون من الرسم مثير ، ومبعث اهتمام ، ويوقظ جذوة الفن فى نفوس الأطفال .

الطفل والكلمة المهذبة

حينما كنا صغارًا سمعنا حكاية « على بابا والأربعين حرامى » واستوقفتنا عبارة « افتح ياسمسم » وتمنينا دائما أن تكون فى حياتنا كلمة بهذا الشكل تفتح لنا الكنوز . وبعدها قابلنا حواة كثيرين يلعبون ما نسميه باللعبة السحرية ، ويرددون كلمات (هوكس بوكس ، هينجو شيلد دى نوستراتيجى) ، وكلمات طويلة صعبة النطق كى تبدو وراء اللعبة الغريبة التى يلعبها الحاوى بكل من خفة اليد والبراعة . وتمضى بنا الأيام ، ونسأل أنفسنا : هل هناك ما يسمى بالكلمات السحرية فى واقع الحياة ؟ . . فى رأيى نعم . إن « الأدب » هو الكلمات السحرية . والأدب المراد هو فن الذوق والخلق . وكلمات الأدب فى رأيى كلمات سحرية تفتح كنوزًا كبيرة ، كما كانت كلمة « افتح ياسمسم » تفتحها . لذا فنحن محتاجون أن نعلمها للأطفال ، ونرددها نحن أيضا بطريقة دائمة وظريفة

وقاموس الكلمات السحرية هذه قاموس واسع يبدأ بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) وينتهى بـ(الحمد لله) وشكرا ، سلام عليكم ، حرمًا ، جميعا ، أهلا ، ومرحبا .. لكن : معذرة . لابد من وقفة عند هذه الكلمات ولنسأل : هل نقولها ونحن نعنيها حقيقة أم لا ؟ .. هل نعبر بصدق عن شىء بداخلنا أم أنها تبقى مجرد تدريب للشفاه واللسان ؟ .. هل نقول : شكرًا ، وملامح وجوهنا فيها الشكر وعليها الابتسامة أم لا ؟ .. هل نقول : آسفين ، وهناك أى لون من ألوان

الأسف يطل من عينينا ؟ أو أننا نقولها مجرد كلمة ؟! .. ومن المهم جدًّا الشعور الخاص وراء الكلمة التى تقال ، وخاصة أننا عانينا الكثير من الفرامانات السلطانية والأوامر الخديوية ، وعندما نقدر بشكل عام من فعل « الأمر » الذى كان دائمًا على ألسنة المماليك والعثمانيين ، والاستعماريين والإقطاعيين والرأسماليين فى بلادنا . وبالتالى فلابد من أن نشبع طلباتنا حتى من الناس الذين يساعدوننا بكلمات : (من فضلك ، وعن إذنك) لكن المهم أن هذه الكلمات لابد أن نشعر بها ونحسها ؛ حتى يشعر من تُقال له بأنها صادقة ، لأن هذه الكلمات تكون أحيانًا كالحجارة التى نقذف بها من أمامنا .. وتصبح غير ذات معنى مطلقا ..

وهذه الكلمات قد تؤدى عكس المطلوب منها .. كما أن زيادة هذه الكلمات عن حدها ، مضيعة كبيرة للوقت ، فالبعض مثلا حينما يتحدث فى التليفون يضيع ٤ أو٥ دقائق قبل أن يدخل فى موضوعه .. إنها مجاملات وكلمات ليس لها معنى ولا جدوى . وقد كان لنا صديق مهمته أن يورد نقودا للبنك من الشركة التى يعمل بها فى أستراليا ، كان يقول للصراف : صباح الخير . فلا يرد عليه ولمدة ستة أشهر .. وذات يوم وهو خارج العمل قابله فسأله : لماذا لاترد الصباح ؟ فقال له : إن لديه كل يوم ٢٠٠٠ عميل ، فإذا رددت الصباح على كل واحد سأضيع من وقت العمل فى اليوم ساعتين ، وفرتهم على نفسى وعلى البنك . ونحن لا نستطيع أن نكون مثله .. لابد أن نرد وفى نفس الوقت لا نضيع الوقت . إنها ليست معادلة صعبة . إنما هى معادلة سهلة وبسيطة تواجهنى كل يوم فى الحياة ، وعلى قدر نجاحنا يكون نجاحنا فى الحياة .

الطفل والزمن

الوقت والزمن مسألة تجريدية ، لا يشعر بهما الأطفال جَيدا ، ولا يقيسونها بدقة ، والربط بين الطفل والساعة أمر صعب كما يعلم الآباء والمدرسون .. عالم الطفل يختلف عن عالم الكبار فى هذا المجال اختلافا واسعًا . ويقول أستاذ فى علم النفس « إن الطفل لايمكنه أن يقدر فعلا عامل الزمن إلا بعد سن الحادية عشرة » فتأكيدنا على الوقت ، وإصرارنا عليه ، ومحاولتنا أن نجعل أبناءنا يستغلونه ، كل هذا له تأثيره السيىء على الأطفال الصغار ، وأحيانا تكون هذه المسألة السبب ، فى أن أبناءنا لا يحبون الحساب والرياضيات ؛ لأنها ترتبط فى رَأسهم بالوقت والزمن . والخلافات والصراع بين الأطفال والكبار حول مسألة الوقت والزمن ، ناجم عن أن الصغار – كما قلنا – لا يعرفون المجردات والكبار يصرون على أن يتعاملوا معهم على أساسها ، فى حين أن الأطفال عندهم أساس آخرَ ، هو رغبتهم فى تفريغ شحنة النشاط ، وممارسة أشياء ترضيهم ويتجنبوا فيها ذاتهم . مثلا حينما يسألنا طفل دون السادسة : متى يعود بابا ؟ نقول له : يجب ألا يغيب ، أو بعد فترة أو سيتأخر . أو حالا . كل هذه مسائل محتاجة إلى قياس زمنى ، يعرفه هو .. ولكن يجب أن نقول : سيعود بعد أن تشرب اللبن . أو بعد أن تشاهد حدوته قبل النوم . أو أشياء من هذا القبيل . لابد من ربط الإجابة بشىء محسوس ومعروف ، محدد ، غير مجرد . الشىء الثانى بالنسبة للزمن هذا أن

الطفل يدرك الحاضر . أما بالنسبة للمستقبل فهو يستطيع أن يحس : عيد ميلاده مثلاً ، لكن مسألة الأسبوع والشهر والسنة ليس لها أى معنى عنده وهو صغير ، فالمساحات الزمنية ليست مفهومة وليس من السهل إدراكها ، وبطول الوقت عنده يقدر ما يمارس فيه من شيء غير راض عنه ويقصر بقدر ما هو راض عما يفعله . إنما مسألة نسبية ، ليس لها علاقة بالزمن الحقيق .. وهذا طبعا موجود لدى الكبار بشكل أو آخر . لكن بالنسبة للأطفال فهو كل شيء .. الزمن يتسرب ويجرى حينما يكون سعيدا ، ويقف عندما يشعر بأنه غير مرتاح . وأود أن أنبه إلى شيء هام جدًّا : هو أن الطفل حينما يتعلم الساعة ، فليس معنى ذلك أنه تعلم أن يعرف الوقت . لا .. إنه فقط تعلم مكان عقارب الساعة بالنسبة للأرقام . وهذا ليس له علاقة حقيقية بالإحساس بالزمن ؛ إنهما شيئان مختلفان تمامًا ؛ لأن الطفل لم يستطع بعد أن يستوعب فكرة الزمن – الوقت ككل . وفى سن الحادية عشرة سنة يبدأ فى إدراك الماضى والحاضر والمستقبل ، ويستوعب معنى الزمن والوقت . فمثلا فى سن الثالثة يستطيع الطفل أن يعرف عمره . ويستطيع وهو فى الرابعة من عمره أن يقول فى أى يوم نحن : السبت أو الأحد . وفى سن السابعة والثامنة يعرف هيكلا كلاميًّا للفصول والشهور .. وبعدها يستطيع معرفة الساعة واليوم ، والأسبوع والشهر ، والفصل ، وعلاقته بهذه الأرقام ليس معناها أنه فهم فكرة الزمن .. إنه فقط يستطيع فهمها ويدرك معنى (كم الساعة) حينما يصبح فى سن الحادية عشرة ، فمهم جدًّا أن نعرف أن الساعات لاتدق من أجل الأطفال ، وحكاية (دقات قلب المرء قائلة له – إن الحياة دقائق وثوان) ليست من أجل الأطفال فحسب . فنوم الطفل لابد أن يكون مساحة زمنية ليس لها حدود إلا النور والظلام – ولا داعى لأن تكون ساعة حائط أو ساعة جامعة تدق بانتظام حتى تنبه أبناءنا للزمن لأنهم لن يدركوه ..

الطفل والأم العاملة

فى السنوات الأخيرة خرجت المرأة للعمل .. وطرحت قضية «هل ترك المرأة لأطفالها من أجل العمل له أثر سيئ عليهم»؟ البعض قطع أن التأثير فعلا سيئ ، وربط بين عمل المرأة وانحرافات الأطفال . والكثير منهن استقر رأيه على ترك العمل . لدرجة أن أرقامًا كبيرة قررت فعلا التفرغ للبيت والأسرة وهذا فى الواقع يمنع عن المجتمع عاملات منتجات ، وخبرة كثيرة فى مجال العلم اكتسبتها المرأة .

وثبت بالإحصاءات أن مسألة عمل الأم ليست هى سبب انحراف الأطفال . فقد تبين أن عدد المنحرفين من الأطفال ، لا تزيد نسبتهم بين من تعمل أمهاتهم . بل على العكس إذا كانت الأم بالمنزل متفرغة ، ولم تكن مربية جيدة ، فاحتمال انحراف ابنها أكبر . وتصور البعض أن عمل الأم هو المؤثر الأول والأخير ، على نمو الطفل العقلى والنفسى والاجتماعى والجسمانى ، وهو تصور غير سليم ؛ فهناك عوامل أخرى تؤثر على الطفل ، حتى فى وجودها ، أما فى حالة غيابها فى العمل ، فالأمر يتوقف على عمر الطفل ، ومدى ما يحصل عليه من رعاية ، ومدى مهارة الشخص الذى يعيش معه الطفل ، سواء كانت الجدة أو المربية ، ودور الأب نفسه وعلاقته بالطفل ، ثم علاقة الأبوين بعضهما ببعض ، وتكوين الأسرة فى حد ذاتها . وتساءل الكثيرون : هل من الممكن أن

يحل شخص محل الأم ، وينجح فى أداء دورها ؟! .. والإجابة : نعم من الممكن جدًّا ، بشرط أن يكون هذا الشخص متحليًا بصفة الأمومة . والطفل حتى سن الرابعة أو الخامسة يحب الشخص الذى يحل مكان أمه أن يستخدم معه نفس الأسلوب ، ويعامله بنفس الطريقة .

والطفل يعانى حين تكون الأم أو المربية متخلفة فى استجابتها لمطالبه ، وفى معاملتها له . لكن بعد ٥ سنوات يستطيع أن يوائم ما بين نفسه وبين هذه الاختلافات ، ويحس بهذه الفروق ولا تضايقه . والبعض يرى أن المرأة العاملة من الممكن أن تنجح إذا وضعت فى أولوياتها بيتها وأسرتها ، ولو أدركت أنها زوجة وأم أولا .. ثم عاملة ثانيا . فإذا كانت تعمل خارج البيت – لأنها ترفض عمل البيت وأعمال الأمومة – فقد يكون من يحل محلها أفضل منها ومتفوقًا عليها . ومن المهم جدًّا أن تعرف : هل عائد عملها المادى يرجع على الطفل والبيت ، أو يستهلك كله فى الملابس ، وأعباء الخروج للعمل ذاته . وعلى كل ، لابد أن يبقى الطفل مقتنعا بعمل أمه .

ومن أحلى القصص التى تدور فى ألمانيا على الشاشة للأطفال ، قصة طفل يريد أن تظل أمه معه ، فظلت ، وخرجوا ليروا ماذا يحدث لو أن كل الأمهات ظللن بالبيت ولم يذهبن للعمل . وإذا بالحياة متوقفة ؛ لأن الاعتماد على المرأة هناك كبير فى أشياء كثيرة ، وبالتالى اكتشف الطفل أن الحياة لاتستقيم ، لو ظلت كل أم مع ابنها ، لأن أمًّا واحدة تستطيع أن تعمل فى دار الحضانة مع عشرة أطفال أو أكثر ، من أجل أن تقوم عشر أمهات أو أكثر بخدمات أخرى للأطفال أيضًا . فمثلا يصنعن الحلوى ، أو يصنعن الملابس وأشياء من هذا القبيل . وهذا درس للأطفال من الأولاد والبنات ، الجميع يجب أن يعملوا ..

لابد أن يبنوا المجتمع معًا .. ولابد أن يؤمنوا - النساء قبل الرجال - بأن العمل حق .. العمل واجب .. العمل شرف .. العمل حياة .. ولابد أن يؤمن الرجال بأن عمل النساء حق وواجب وشرف وحياة .

الطفل والضمير

سألني صديق من الآباء : هل ممكن خلق وتنمية الضمير لدى الأطفال منذ صغرهم ؟ سرحت ، وتذكرت حكاية كتبتها فى شهر رمضان ، عن طفل كان محتاجا باستمرار إلى رقابة وتوجيه ولفت نظر فى كل أمور حياته ، حتى أن والده ناداه وقال له : الصيام لا يمكن مراقبته ، لابد أن تكون الرقابة من داخلك ومن ثم فكلما حاول الطفل أن يفطر ، تذكر كلمة والده وخاف الله . وكان هذا سبيلا لخلق ضمير حى لديه . وعلم النفس يقول : إن الطفل حينما يبلغ السادسة من عمره ، يمكن وضع الأساس لهيكل الضمير عنده وفى الغالب يكون الآباء قد وضعوا هذا الأساس معه ، وتكون مفاهيم الآباء حول الصواب والخطأ ، الخير والشر واضحة للطفل يحسها ويشعر بها ، ويمتصها ، وبالذات من خلال الممارسة وتقليد الأبوين ، ومن خلال التعلم ، ويتبلور كل هذا فيما نسميه (الضمير) مثل : الأم العادية لا تتصور أبدًا أن ابنها سيعرف مسألة الأمانة بالنسبة للنقود فى السن الصغيرة ، وليس أمامها اختيار ؛ فتكتفى بأن تقول له : إن السرقة حرام ، وممنوعة ، منعًا باتًا ، وهذه مشكلة ؛ إذ يتصور البعض أنه مادام قد قال هذا الكلام ، فإن الطفل سيستجيب ومن الممكن للأطفال أن يأخذوا فى سن مبكرة أشياء لاتخصهم ، ومن الممكن أيضا أن يتصرفوا بشكل لا يتصوره الكبار .

وذات مرة قالت إحدى مدرسات الحضانة إن لديها طفلا عمره أربع سنوات يبيع الساندوتش الخاص به ويشترى الحلوى بثمنه . وأمامنا مشكلتان . وليست مشكلة واحدة : الذى يبيع ، والذى يشترى . ونحتاج إلى مراجعة الاثنين ، وتنبيهما إلى الخطأ والمخالفة التى يرتكبانها .

والضمير ليس وراثة ، وإنما يوجد ، يخلق ، ويأتى نتيجة جهود ، وجهود مضنية تبذل .. ليس نتيجة أوامر ونواه .. والحقيقة أننا محتاجون لأن يعرف الآباء أنهم لا يراجعون ضميرهم ، ويجعلون أبوّتهم فى كل شىء فقط ، لأنهم سواء رضوا أو لم يرضوا فضميرهم يوجه أطفالهم أيضا ، وفى نفس الوقت وبالتالى .. فإن الأطفال توجد عندهم ترسبات ، نتيجة ملاحظات دقيقة متوالية خلال حياتهم اليومية وهذه هى التى تكون ضميرهم .. وليست المواقف الكبيرة ، والنصائح العظيمة ، مثلا الأب الذى يحاول أن يقطع لابنه نصف تذكرة فى سينما أو أتوبيس أو فى قطار ، مع أنه تعدى السن القانونية ، فلا تتصور مدى تأثيرها ! .. فهذا تدريب رهيب على السرقة ، ولدينا أيضا (خد قرشا ولا تقل لماما) وهذه الأشياء تعطى الطفل فكرة عن أن الضمير شىء مرن ، مطاط ، واسع ، وأنه شىء مؤقت يأتى بعض الوقت ويذهب .

وينصح أساتذة علم النفس الآباء ، أن يكونوا حازمين فى مواجهة ما يمكن أن يقود الطفل إلى ارتكاب مخالفة قانونية مستقبلا ، ومن الممكن أن يعبر الطفل عن غضبه على النظام المفروض ، لكن يجب ألا يكسره .. يحتج : نعم . يخالف : لا . والحقيقة أن الأطفال محتاجون للضمير ، كما أنهم محتاجون للطعام والشراب والمأوى . وقبل أن يعرف الطفل المعنويات — كالضمير والعدل ،

وهذه القيم – لابد من تدريبه عليها ، وتدريبه على أن يعطى ، يعطى من لعبه ومن حلواه ، لأخيه وصديقه ، ويعطيه « لفة » على العجلة ، وزقة على الأرجوحة . الممارسة العملية لهذه المسائل تساعد على خلق ضمير طيب .

الطفل والتفكير العلمى

فى السنوات الأخيرة ، لم تتردد عبارة مثل عبارة التفكير العلمى . كلما وقفنا على اكتشاف أو اختراع .. وكلما تكلم أحد وأراد أن يؤكد وجهة نظره ، أو رأيه يقول : هذا (الكلام العلمى) ويكون الكلام محل جدل وتحليل الصواب والخطأ ، لكن يسانده بوضع علمى لكى يقنعك أو يفرضه عليك .. والحقيقة أن بلادنا عرفت العلم والتفكير العلمى قبل أن تعيد أوربا تقديره لنا بمئات السنين .. عرفناه ، لا أقول قبلهم أيضا ، وإنما عرفناه بشكل علمى ، وببساطة شديدة سأنقل لكم فقرة من كتابات ابن خلدون .. من مقدمته يقول فيها : « من أحسن التعليم البدء بالقواعد الحسابية لأنها معرفة موضحة وبراهين منظمة ، ينشأ عنها فى الغالب عقل مضىء – أتسمعون ؟! عقل مضىء .. درب على الصواب ، ويقال – هذا أيضا كلام ابن خلدون – « من أخذ نفسه بتعلم الحساب أول مرة يغلب عليه الصدق ، لما فى الحساب من صحة المعانى ومناقشة النفس ، فيصير ذلك خلقا ويتعدد الصدق ويلازمه مذهبًا » هل عرف التفكير العلمى بصورة أوضح من هذه ؟ الحساب يقول ١+١=٢ . وهذا ببساطة ما يقولون لنا عنه : إنه اكتشاف من اكتشافات القرن العشرين .. سبقهم إليه ابن خلدون بسنوات .. تعالوا أيضا نرى ماذا يقول عن الهندسة يقول : « واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها ، إضاءة فى عقله واستقامة فى فكره ،

لأن براهينها كلها ثبيتة الانتظام ، جلية الترتيب ، لا يكاد الخطأ يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع[1] – وأرجو ألا تضايقكم كثيرا كلمة المهيع ؛ فهى بمعنى الطريق – لنكمل إذن ما يقوله ابن خلدون : وقد زعموا أنه كان مكتوب على باب أفلاطون : من لم يكن مهندسا فلا يدخل منزلنا .. وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون : ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب ، الذى يغسل منه الأقذار وينقيه من الأوضار والأدران .. دائما ذلك عما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه » .

هذا كلام ابن خلدون . لكننا نشعر بالسعادة حينما نقول تكنولوجيا ، ونسعد أيضا حينما نجد أنها كلمة تصعب ترجمتها . والحقيقة أن كلام ابن خلدون البسيط أروع كلام قيل عن العلم والفكر العلمى . ببساطة إن الإنسان – كل إنسان – يحتاج إلى الحساب والهندسة . فالفلاح يحتاج إليه من أجل مساحة أرضه ، وكمية السماد ، والتراب الذى يردم به مستنقعًا وهكذا . والبناء من أجل أن يعرف ما يحتاج إليه الحائط من لبنات . والنجار والحداد وبائع الزجاج : كلهم يحتاجون إلى الحساب والهندسة ، لأن جهل العامل يجعله عرضة للتجريب والاختبار ، وتصبح المصادفة وحدها هى التى تقوده فى عمله ، وهذا يبدد الوقت والجهد والمواد الخام .. ثم إن الهندسة والواجبات بشكل عام ، هى وسيلة الاختراع ووسيلة التفنن ، وتفيد فى الجغرافيا والرسم ، وتوسع نطاق التصور ، وتقوى ثقة الإنسان فى الحقائق الثابتة . وبالتالى يتخلص من الخرافات والبدع ، والتفكير المتخلف ، ويبقى لنا منهج علمى حقيقى نسير عليه . والمنهج العلمى يأمرنا بأن نرجع للأصول .. ويقول : إن استيراد اللبنات الجاهزة

لايثمر ، من أجل هذا نقول : نعود لابن خلدون .. ونسمع كلامه « القواعد الحسابية .. ينشأ عنها فى الغالب عقل مضىء » ويقول أيضًا : الهندسة تفيد صاحبها استقامة فى فكره .. وهى بالنسبة للفكر بمثابة الصابون للثوب .. » تربويًّا لكى نجرب الفكر العلمى ، لابد أن ندرب أنفسنا على الحساب والهندسة والرياضيات ، ولابد أن نقرأ أستاذنا العظيم : ابن خلدون .

الطفل والتغذية

من المسائل التى تحتاج منا إلى وقفة مسألة : الطعام والتغذية .. والآباء والأمهات دائما يشكون من أولادهم فى هذه المسألة .. إما أن الأولاد لا يأكلون بالقدر الكافى أو أنهم يأكلون أكثر من أنواع معينة غير مطلوبة : مثل الحلوى . والآباء والأمهات وهم يلاحظون أبناءهم فى جريهم ولهوهم ونشاطهم ، مثل « الدينامو » يتصورون أنهم لابد أن يأكلوا كمية أكبر من الطعام ، لا أن يخطفوا طعامهم خطفا ، وبكمية ربما لاتتجاوز ما تأكله القطة .. أما بالنسبة للكمية ، فإن الأطباء يطمئنون الآباء إلى شىء غاية فى الأهمية .. ألا تقلقوا من ناحية كمية الأكل ولا تنوعه فى هذه الفترة ، بعد أن يجتاز الطفل السنة الأولى من عمره ، والتى يحتاج فيها إلى كمية كبيرة من الغذاء ، تقل شهيته ولا تعود إلا مع سن المدرسة .. وغالبا يكون ما يقبلون عليه من طعام ويحبونه متضمنا كل العناصر المطلوبة للنمو — نقول غالبا .

والأوامر والنواهى فى مجال التغذية ، يجب ولا يجب ، ليست واردة فى العمر ، من سنة فما فوق .. وفى السنة الأولى يتضاعف وزن الطفل ثلاث مرات ، والمشكلة الوحيدة التى يمكن أن تواجهنا فى هذه الفترة هى مشكلة لا أحب هذا .

لابد أن نقنع الأطفال بأن الناس كلهم يأكلون من هذا النوع من الطعام ،

ولابد أن ندربهم على جميع أنواعه وألوانه ، ولابد أن يحسوا بالاستمتاع به .. ولابد أن تكون الجلسة أثناء الأكل لذيذة وممتعة فيها دفء الحب ، واجتماع الشمل .. ومع أن الحوار والدردشة خلال الأكل مطلوبين ، فلابد أن يعرف الأطفال أن هذه هي فترة الاستمتاع بالطعام .

وقد نواجه فى السنة الثانية من العمر بقلة أنواع الطعام التى نستطيع أن نقدمها للطفل ، لكن جوع الطفل يجعله يقبل على الطعام ، ويجعله يقبل على أن يجرب كل أنواع الطعام التى تقدمها له أمه .. وتبدأ المعركة بين الاثنين حينما يفقد اهتمامه بألوان معينة ، وعلى الأم أن تحاول تقديم الطعام بشكل جذاب ، وطريف .. وتستخدم كل الحيل لكى تنسق الطعام .. فالجبن مثلا لا يجب أن يكون كتلة فى طبق أو علبة .. بل يكون شرائح ، حولها ورقتان من ورق الخس ، وفى وسطها حبتان من الزيتون .. فأناقة منظر الطبق مطلوبة مهما قلت كمية الأكل .. هذه المسألة ليست شكلية ، بل أساسية جدًّا . لأنها فى ذاتها تفتح الشهية . .

لابد من تفادى خلطات الطعام التى لاتعنى شيئًا .. فأحيانًا نجد أن بالطبق أطعمة ليست لها صلة ببعضها مخلوطة ومهروسة بشكل منفر .. وفيها أغذية مطلوب التركيز عليها كاللبن .. والبيض .. والعصير .. واللبن ليس معناه أن نشربه فقط ، ونشربه بالضرب : لا .. اللبن معناه الجبن والزبد والجيلاتى : أى اللبن ومنتجاته .. ونفس الشىء بالنسبة للبيض والعصير .. ألوان وأشكال .. البيض مسلوق ، ومقلى .. إلخ .. والعصير قصب ، وطماطم وجزر .. الخ ونركز على شيئين : البروتين والفيتامينات الموجودة بالخضروات .. ولاننسى أن الوجبات الثلاث بالنسبة للطفل ضرورية .. أما الوجبات السريعة .. التى بين

الوجبات الأصلية فهمة جداً بالنسبة للأولاد الكبار وينفع فيها « السندوتش » .
ولابد أن نراعى ألا تحل محل الوجبة الأصلية .. تأتى بعد ذلك مشكلة
الحلويات .. التى تقلل من شهية الطفل ، والواقع أنه لابد من أن تحل محلها
حلويات ذات قيمة غذائية ، وقيم غذائية ثانية ، إننا محتاجون لترشيد فى مسألة
الأكل فى بلدنا ، وبالذات فى نوع النشويات .. ومحتاجون إلى معهد تغذية ينشر
لنا كتيبات بالاتفاق مع بعض أستاذات التدبير والطهى .. حتى يقدموا لنا أطباقاً
شهية من منتجات بلدنا .. فيها كل العناصر المطلوبة للجسم وفيها الطعم المقبول
المستساغ ، وبهذه الطريقة وحدها نعرف ونتعلم كيف نأكل ..

الطفل والصحة

لدينا مكتبة هائلة من الحكم والنصائح التربوية متصلة بموضوع الصحة ..
فنقول : « صحتك بالدنيا » ونقول : « الصحة تاج على رءوس الأصحاء
لايراه إلا المرضى » ونقول : « الوقاية خير من العلاج » .. ونقول الكثير ، ونرفع
مثل هذه الشعارات ، وفى لحظة التطبيق نجد أن المسألة واسعة بين الشعار المرفوع
وما يحدث منا .. هل حقيقى أننا نطبق مسألة « صحتك بالدنيا » الواقع أنها
أصبحت جملة يواسى بها بعضنا بعضا فى الأزمات . أصبحت مرادفة لـ ..
« لا تحزن » أما الصحة نفسها والرياضة والنزهة فليس لها مكان فى برنامج
حياتنا .. ونحن لانراعى موضوع النظافة ولا نعطيه حقه ، نحن الذين نعتنق دينا
يحض على الوضوء خمس مرات يومياً قبل الصلاة ونتذكر الصحة حينما نمرض
فقط ، ومستشفياتنا فى الواقع حالها ليس كما يجب .. أما من ناحية الوقاية

والعلاج ، فأصبحنا نعمل كالأمريكان ، يحبون « اللبان » لكنه يجلب لهم الصداع .. فماذا يفعلون ؟! أضافوا « للبان » مسكنات مثل الأسبرين ليعالج الصداع بدلا من أن يمتنعوا عن « اللبان » !! .. بهذه الطريقة تدهورت صحتنا .. وهذه مسئوليتنا .. وليست مسئولية أى جهاز أو مؤسسة ..

نحن بلد يتمتع بالجو المعتدل .. والماء العذب .. وإمكانيات النهوض بالصحة كبيرة فلماذا نتهاون فى أثمن هبة وهبها الله لنا .. إن الحياة تكون كئيبة خلال المرض .. والمرض أى مرض له خطورته ومضاعفاته وانتكاساته ، وتفاديه سهل ، والوقاية منه ليست مشكلة .. وتداركه فى حالة إصابتنا به — فى البداية — أمر ميسور ، وفضلا عن التوعك فهو يعوق إنتاجنا ويقلل من قدراتنا وهناك تصور أن المرض يأتى من الخارج كأن بيوتنا معقمة ، ولا تستطيع الجراثيم أن تصل إليها ، والواقع أن المنزل منبع للصحة — إذا جعلناه نظيفا ، صحيًّا ، هادئًا — ويمكن أن يصبح على العكس إذا تهاونا فى أشياء بسيطة ، مثل صفيحة القمامة والذباب الذى يتراكم عليها .. والمبيدات الآن كثيرة ، والحصول عليها سهل .. ولابد من مكافحة كل الحشرات الضارة : الذباب والناموس والصراصير .. أى شىء يمكن أن ينقل المرض لابد من التخلص منه .. وبعد ذلك تكون الوقاية من الأمراض مسألة سلبية ..

إننا لكى نستطيع أن نقاوم أى مرض وافد فلابد أن يكون ذلك بالتغذية السليمة ، والرياضة الصحية ، والنوم لساعات كافية ، وتفادى المنبهات .. وإذا كان البيت منبع الصحة ، فنحن لانريد أن يكون الشارع مصدرًا للمرض . والشارع يحتاج منا إلى نظرة أفضل وأحسن ، فنحن لا نحترمه بالقدر الكافى .. ولا ننظفه بالقدر الكافى .. ويحتاج منا إلى عناية ورعاية مستمرة

وفعالة .. ويتبقى موقفنا فى حالة إصابتنا بالمرض .. وهذا محتمل باستمرار ، لأنه مهما بذلنا من مجهود لتفادى المرض فهناك احتمال لاصابتنا به .. ولابد أن يكون الإنسان مريضًا حصينًا ، يعاون طبيبه على علاجه . ويتعاطى دواءه بانتظام ، ويلتزم بالمتطلبات .. حتى يتم الشفاء ، وتبقى ثقافتنا الصحية .. وليت هناك مقررات بالمدارس فى مسألة الصحة تبدأ بأبسط الأمور ، مثل العناية بالحواس الخمس ، فتتدرج وتتدرج حتى تصل إلى تشريح جسم الإنسان فى النهاية .. لابد أن نعرف أن الصحة أثمن شىء يملكه الإنسان .. ولابد أن يحافظ عليه بكل ما يستطيع .

الطفل والشجار

١

أى أسرة لديها طفلان أو ثلاثة نجدهم دائما فى مناوشات وخلافات ، ويتألم الأب وتتألم الأم .. لأن الأبناء ليسوا أصدقاء وليست علاقاتهم طيبة ، والسؤال : هل ظاهرة اختلاف الأخوات أو الأطفال مع بعضهم ظاهرة طبيعية ؟ بمعنى أى الأوضاع يعتبر الوضع الطبيعى .. أن يتداولوا مع بعضهم البعض ، وألا يختلفوا أو يتشاجروا ؟ .. والإجابة عن هذا السؤال تكشفها تجربة صغيرة .. تعالوا نجمع ٣ أو ٤ أطفال معًا فى حجرة واسعة مجهزة بكل ألوان اللعب والتسلية ، ونغلقها لفترة .. ترى ماذا تكون النتيجة ؟! .. بكل تأكيد سيتشاجرون سواء كانوا إخوة أو غير إخوة .. إذن المسألة ظاهرة طبيعية عادية ويجب ألا يقلق الآباء والأمهات ، ويجب أن تعالج برفق ووعى ، لأنها لن تكون فى فترة الطفولة فقط ، إنما تمتد للصبا والشباب ، وأحيانا تتعمق الخلافات بين الإخوة لدرجة جادة لا نرضاها ، لكن الكثير من هذه الخلافات — فى واقع الأمر — تكون نوعا من التنفيس ، وتحل — دون أن ندرى — الكثير من المشاكل .. وأحيانا يكون الشجار نوعا من المنافسة .. إذن هل المنافسة بين الإخوة ضارة ، المنافسة الشريفة باستمرار فائدتها أكثر من ضررها .. وبين الإخوة ينمو الحب ويتطور ، ويكبر معهم ، ويظهر وينضج

حينما يتجاوز سن الطفولة ، والمراهقة ، وكثيرا ما نسمع هذه العبارة .. إنه أخى على كل حال ..

إذن المنافسة بين الأخوة والخلاف لا يستمر بل ينتهى ويتطور إلى علاقة حب تنضج تحت نار هادئة .. والأيام تزيد من الروابط والود .. ولكن المطلوب منا ألا نركز على المنافسة بين الإخوة بشكل ملح ودائم .. لاداعى لأن نقول فى كل دقيقة : انظر كيف أن أخاك مجتهد ، اعمل كأختك المهذبة ، مثل هذه الأشياء والنصائح التى من هذا اللون ليست هى المطلوبة .. فالتركيز هنا لا يكون فى الواقع على الاجتهاد أو الأدب الذى يتحلى به الأخ أو الأخت ، إنما يكون التركيز على التفوق .. وهذا يبعث عدم الرضا فى نفس الشخص الذى توجه إليه النصيحة وعدم الارتياح تجاه أخيه ، ويجعله ينسى موضوع النصيحة ، ويمكن أن يتخيل أننا لسنا منحازين إلى الأخ أو الأخت ، فيزيد ضيقه .. وأحيانا يتخيل أن كلامنا لون من المعايرة له لتخلفه فى الدراسة أو التصرف غير الصحيح منه ، لأن المقارنة ممكن أن تزكى نار المنافسة فى كل مجال ، ليس فى الشيء موضوع المقارنة ، لأن كل همنا ، ليس خلق اثنين متصارعين ، وإنما خلق أخَّين .. بكل ما تعنيه الكلمة ..

٢

بعض الآباء فى بيوتنا يقومون بدور (الحكم) بين أولادهم كآباء ويتحول البيت إلى (حلبة ملاكمة) والواقع أنه لابد أن يبقى هناك بعض الصراع والخلاف بين الأبناء .. ولابد أن يدرب الآباء أنفسهم على أن يكونوا أحياناً

متفرجين ، وألا يتدخلوا كحكام .. هذا شىء ، أماالشىء الآخر : فإنه من غير المعقول أن يظل الآباء باستمرار فى موقف المتفرج. لا بد فى لحظة أن يتدخلوا حتى يوقفوا المعارك التى تنشب بين أولادهم ، ومن الطبيعى ألا يستطيعوا دائما الغوص إلى أعماق كل مشكلة وكل خلاف وأن يحلوا تلك الخلافات بميزان العدالة الدقيق .. إنما المسألة تحتاج من الآباء إلى شىء كبير من التعقل فى مواجهة الأمر ، وتحتاج أيضا إلى أن يدركوا بعض الأمور فى مجال الخلافات بين الأبناء .

بداية : يجب ألا يكونوا مراقبين لكل صغيرة وكبيرة تصدر عن الأبناء .. ويكفى أن يكونوا ملاحظين بشكل غير مباشر ، دون التعليق أو التدخل فى اللعب . إلا إذا وجدوا الأبناء قد خرجوا عن القواعد ، وحينئذ ممكن للآباء أن يقترحوا شيئًا بناءً بديلا للشىء المختلف عليه أو أكثر إثارة منه .. وإذا لاحظ الآباء أن طفلا يضايق أخيه باستمرار أو يتسبب فى غيظه فمثلا يجب أن نأخذ فى الحال صف المعتدى عليه ، لأنه يجوز أن يكون هو البادئ .. وإذا ما وجدنا أخًا أكبر دائم الأوامر للأصغر : انصت ، اسمع ، لابد أن نتذكر أن الأسهل كسب الصغير بالحنان ، فى حين أن هذا الصغير من الممكن أن يكون هو المعتدى .. وعلى الرغم من أن هناك دائما سببا وراء أى عدوان .. مثل الحسد ، عدم الاطمئنان ، الضيق النفسى ، فلا داعى لأن نبحث فى أثناء الصراع عن حقيقة السبب . أولا لكى نحل المشكلة نقضى على الخلاف ، ثم نبعد الأبناء عن بعضهم دون أن نُشْعِر أيًا منهم بأنه مخطئ ومتهم ، بعدها نستطيع أن نعمل تحقيقاتنا ، ونعمل كوكيل نيابة ، ولابد أن نتذكر أنه ليس أسهل على الطفل من أن يلصق بصديقه أو أخيه أشنع التهم ، ويتفوه بأبذأ الألفاظ ، لأى

سبب ، ولأى مناسبة ، المهم ألا تظل هذه الألفاظ عالقة بأحد ؛ لأنها من الممكن أن تلصق به ، ويصبح من الصعب التخلص منها ، وممكن لو تكررت أن يحاول صاحبها تأكيدها حينما يقال له مثلا : أنت كاذب .. يكذب مادام باستمرار يتهم بالكذب سواء صدق أو كذب .. فلماذا يصدق ؟! ..

ومهم جدًّا أن ننبه الكبار من الأبناء ألا يؤذوا الصغار ، وأن ننبه الأبناء ألا يضايقوا البنات ، وفى نفس الوقت لابد أن ننبه إلى عدم إثارة الصغار للكبار ، وألا نجعل البنات يغضبن الأولاد .. حتى يسود الاحترام بين الجميع .. ولابد ألا يتوقع الآباء أن يظل الأبناء حريصين على اللعب مع بعضهم على طول الخط ، وعلى قدر المساحة المتاحة لهم فى البيت ، بل لابد أن يبتعدوا عن بعضهم البعض قليلا ، ولابد أن نجعل الأولاد سعداء بأنهم أولاد ، والبنات فخورات بأنهن بنات .. وكل له ميزاته .. وفى نفس الوقت لابد أن يكون عندنا مقترحات لهم لتستنفد طاقاتهم الزائدة .. ومهم جدًّا أن يشعر الأولاد بأنهم محبوبون بنفس القدر ، لكن بشكل مختلف – بهذه الطريقة يسود التفاهم جو الأسرة ، ولايكون الأبناء مصدر مشاكل مستمرة فى البيت .

الطفل ومراحل التعليم

١

بدأت الدولة والمجتمع يشاركان الأسرة فى تربية أبنائها ، وتنازلت الأسرة عن دورها العتيق فى تحمل مسئولية الأطفال وحدها ، وعهدت بهم لدور الحضانة والرياض ، فى سن مبكرة جدًّا ، بسبب خروج الأم إلى العمل ، أو لأنها غير قادرة على تحمل هذا العبء الثقيل . ونحن نجد أنفسنا مع الأطفال الصغار ، أمام « علم » واسع اسمه « سن ما قبل المدرسة » . فإن دور الحضانة والرياض ليست مدارس للتربية والتعليم .. لكننا يجب ألا نحولها إلى « مخازن » نضع فيها أطفالنا إلى أن ننتهى من عملنا ، ثم نحملهم منها إلى البيت .

إن دور الحضانة يجب أن تكون عوضا عن الأسرة وبديلا لها ، وأن يشيع فيها نفس جو الحب والحنان الذى يوجد فى البيت ، فلا يشعر فيها الطفل بالغربة ولا يشعر بالوحدة . ولابد أن نجعله لايضيق بها ولا يكرهها ، بل يقبل عليها فى رضا وفرح ، فى بهجة وحبور ؟ لأنه يمارس جديدًا وبعيدًا عن أوامر ونواهى الوالدين ، اللذين قد يقعان فى أحد المحظورين : التدليل المفرط الذى يثمر طفلا فاسدًا ، أو معاملة الطفل على أنه رجل صغير .

ونحن لم نلتحق فى طفولتنا بدار الحضانة ، بل نعمنا بدفء البيت ، وتفادينا هذه التجربة المبكرة ، التى يخوضها صغارنا ، وقد يعانونها ، وقد

يستمتعون بها ، ولكنها سوف تؤثر فيهم تأثيرًا بالغا ، ولابد أن تترك بصماتها على حياتهم بأكملها ، شئنا أم أبينا ، هى باعتراف الجميع أهم وأخطر سنى العمر وأكبرها أثرًا على عكس ما كان يظن ، برغم أنهم رددوا دائما : « أن التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر » ثباتًا وبقاء . وتقول إحدى المربيات عن دورها مع طفل الحضانة والرياض : نحن لانعطيه ورقا ولا قلمًا . نحن نعلمه الذهاب إلى الحمام ، والتعامل مع الأطفال . وتعليق ملابسه على المشجب ، وبناء بيت بالمكعبات ، . . و . . نعلمه الكثير حقًا .

أمهات كثيرات يقلن : نحن ندفع الكثير ، ماذا تعلم أبناؤنا ؟ لماذا لاتعلمونهم القراءة والكتابة ؟ هن يتعجلن ، ويتصورن بنيهم قادرين على التعلم .

لقد نشأت هذه الدور لأول مرة فى ألمانيا ، وكان ذلك لخروج الأم للعمل . وقرأت قصة لصغير يريد أمه بجانبه فتقبل ذلك ، وإذا بكل الأطفال يستبقون أمهاتهم فى البيوت ، ويخرج الصغير لشراء حلوى فلا يجد البائعة ، لأنها بقيت مع ابنها فى البيت ، وهكذا كلما رغب فى شىء وجد المسئولة عنه فى بيتها ، وضاق بالأمر وطالب كل الأمهات بالخروج للعمل والحقيقة الواضحة الآن أن أغلب الأطفال يجدون الكثير من المتع فى دار الحضانة . إن الطفل يلعب بالدمى ، والأجراس والحلقات ، بدأ يلون بأصابعه بعض اللواحات غير المحددة بالخطوط ، كما بدأ يستمتع بالقص واللصق لأوراق ملونة وراح ينظم الخرز الكبير . وهو يعود إلى بيته كل يوم ، وفى جعبته ألف خبر وخبر ، ألف خبرة وخبرة ، ألف حكاية وحكاية .. بعضها سمعه ، وبعضها يؤلفه عن بطولات له فى عالمه الصغير . وكثير من الأمهات تزعجهن هذه الأقاصيص المختلفة ، ويجب

ألا يضيقن بها ، بل يسمعنها ويستمتعن بها . وهو يحكى الكثير عن الزحافات والأراجيح ، فضلا عن النشاط الحر التلقائى ، الذى يبذل خلاله جهدًا مضنيًا ، يتفق مع رغبته الجادة فى الحركة والجرى والقفز . وقد بدأ يتدرب أخيرا على ممارسة وحب نشاط منظم ، وموسيقى ، ويقلد الطيور ، والحيوانات ويقلد زملاءه وزميلاته ، بل إنه تمادى فأصبح يؤدى بعض ما تقوم به المربية من حركات وتصرفات .

ويجب رده فى حزم إلى جادة الصواب ، إذا أحسسنا منه باتجاه حاد نحو العبث والتمرد ، دون إسراف فى تأنيبه لأنه فى حاجة إلى الإرشاد والتربية .

والأطفال معقولون إذا ما فهمناهم ، وهيأنا لهم الفرصة لكى يمارسوا حياتهم ، بل شقاوتهم . وعلينا أن نبحث دائما عن دافعهم إلى هذا التصرف وذاك ، ولن نجد هذه الدوافع إلا بالصبر والمثابرة .

قرأت عن طفل مع أمه فى سيارة أو توبيس ، انهمكت الأم مع جارتها فى الحديث ، وأهملت الصغير ، وعندما وصلا إلى حيث ينزلان ، جرى الطفل ووطئ بأقدامه من فى طريقه ، كما دفع بعض الجالسين ووقع على البعض الآخر ، مما أثار استياء الجميع ، وكادت الأم تضربه فى قسوة ، لولا أنها حاولت معه إلى أن أدركت السر : عندما أهملته أمه ، تصور أنها يمكن أن تنساه فى السيارة ، لأنها لا تقف طويلا بالمحطات ، فاندفع بهذه الصورة السخيفة التى لا يستحق عليها عقابًا ، فليس هو الملوم فى موقفه وتصرفه .

وهذه الحكايات عن الصغار فى هذه السن ، تكشف لنا ميولهم واتجاهاتهم ؛ فالأطفال يرون الأمور من زوايا مختلفة كل الاختلاف عما نراه ، وهم يتعلقون بالأوهام ، ويحولونها إلى أكاذيب بيضاء .. ويجب ألا نقف عند

ظواهر الأمور بالنسبة لهم ، بل لابد أن نعرف مايدور بخلدهم . كما لابد ألا يمزقنا الخوف والقلق عليهم ونحتاج فى هذا إلى إعداد الأمهات والآباء لهذه المهمة ومما لاشك فيه أن اتصالهم بالدار والمربية سيكون معينًا لهم فى فهم أبنائهم ، واكتشاف شخصياتهم ، ومدى توافقها مع بقية الأطفال ، ومدى تقبلها للأوامر .

إن دار الحضانة مدرسة للأمهات ، والآباء ، بقدر ما هى مؤسسة تربوية للصغار . هى أول خطوة للاستقلال والاعتماد على النفس بالنسبة للطفل ، والتعود على النظام والتدرب على التعامل مع مجتمع غير مجتمع الأسرة ، إن دور الحضانة ، مصانع للإنسان الجديد ، ليتها تأخذ منا ماهى جديرة به من الاهتمام ، وليت المربيات يكن على مستوى عالٍ ، نطمئن به على حسن معاملة أطفالنا .

ونحن نحمد الله على انتشار دور الحضانة والرياض فى بلادنا ، ونحس أنها متطورة ومتقدمة ، وتحاول جاهدة أن تؤدى دورها متعاونة مع الأسرة .

٢

قلنا : إن المجتمع والدولة يشاركان الأسرة فى تربية الأبناء وتعليمهم . وتبدأ الدولة فى العمل على احتضان الطفولة فى دور خاصة ، ليست بالمدارس ، وهم يعبرون مرحلة الحضانة والرياض ، لكى تتلقفهم المدرسة الابتدائية . والمرحلة الخاصة بالحضانة والرياض إعداد للمدرسة وليست بمؤسسة تستهدف التعليم ، الذى هو إعداد للحياة ، وفى رأى البعض أنه حياة فى حد ذاته . وإذا كانت

المدرسة الابتدائية – من سن السادسة – تأخذ الأطفال إليها ، فإنها فى واقع الأمر تتلقفهم فى حنان ، وحب ، وود ، من أجل ألا يزهدوا فى هذه المؤسسة ويضيقوا بها ، وخاصة أنها ستصاحبهم طويلا . يستعيضون بها عن الأسرة الساعات الطوال على مدى صباحهم ، ثم هم يعيشون فيها مجتمعًا جديدًا خاليًا – إلى حد كبير – من تدليل الأسرة وحنانها ، بجانب أن لها نظامها وتقاليدها ، الأمر الذى يبدأ فى تعويد الأطفال على الانضباط .

ونحن إذا أردنا أن نتحدث عن المدرسة الابتدائية والتربية ، فلابد وأن نعالج دور المدرسة فى بناء الطفل ، وأن نتكلم عن علم نفس الطفل ، وأن نقف عند المعلمة والمعلم .. ثم نتطرق للحديث عن الفروق الفردية بين الأطفال ، وكيف نعرفها ونقيسها ، ثم نتكلم عن الحركة ونمو الأطفال ، وعن الحياة الاجتماعية فى المدرسة ، وعن الحب والضيق بين الأطفال ، وعن مثلهم العليا . ولابد أن نناقش قضية النمو العقلى ، وحاجة الطفل للمعرفة ، وعلاقة ذلك بميوله. إن المدرسة الابتدائية «مدرسة» فى حد ذاتها ، يجب أن نلتحق بها ، ونحن نتحدث عنها .وإذا كانت الحضانة والرياض هى الأساس فى البناء ، وهو لا يظهر جليا واضحًا بل يختفى تحت الأرض ، فإن المدرسة الابتدائية هى أول أدوار البناء ، الذى يعلو طابقًا ثم آخر حتى الجامعة وكلنا يدرك أهمية هذا الدور ؛ فمن غيره لاتبنى طوابق جديدة ، وهو يضم غرفًا عدة : قاعة للغة العربية ، وغرفة للحساب ، وحجرة للمواد الاجتماعية ورابعة .. وخامسة ..

على أن القضية ليست ذلك الكم ، الذى يحشد فى الغرف من أثاث ، بل لابد من أن يتم تنسيقه ، لا تكديسه بشكل يرتبك معه العقل فلا يستوعبه ولايمتصه . ولابد من الفراغات والتهوية ؛ إنها لا تقل أهمية عن المواد الدراسية

ذاتها ، فنحن نريد طفلا سليمًا : عقليًا ونفسيًا ، وعلميًا ، وصحيًا . إنها الأعمدة التى تحمل صاحبها ، والقوائم التى يسير عليها قويًا معافى مهما كانت الفروق بين الأطفال ، إذ إن الحركة البدنية ضرورة ولابد من تهيئة الظروف لها .
وفى مجال الحياة الاجتماعية ينمو طفل المدرسة الابتدائية فكريًا نتيجة لما حوله من علاقات ، كما أن حياته الفكرية تطبع تصرفاته الاجتماعية ، والأطفال ينتظمون فى جماعات وينفرط عقدهم تلقائيًا ، وفى السنوات النهائية للدراسة ، يصبح اجتماعهم وتآلفهم أكثر تماسكًا وهم يتجهون فى مثلهم العليا ، إلى آبائهم وأمهاتهم ومعلميهم ومعلماتهم وليس إلى زملائهم . وعندما يكونون صداقات يبدأ عهد استقلالهم الحقيقى ، ولكنهم لايكشفون مطلقا عن دخائل نفوسهم كما يفعل الصغار ، وكما يفعل الذين يجتازون مرحلة المراهقة ، وتبدأ حاجتهم إلينا تقل ، وحاجتهم للأصدقاء تزيد .

النمو العقلى فى المدرسة الابتدائية ، يأتى ثمرة سعى دءوب من جانب الطفل ، ليدرك العالم المحيط به ، وليفهمه لكى يعيش آمنا ، فى عالمه . والطفل ينزع تلقائيًا إلى الفهم ، وبرغم أنهم يحسون بثقل المناهج التقليدية المقررة ، فإنهم لا يكفون عن الأسئلة فى رحلاتهم ، وخارج حجرات الدراسة ، وإذا كان الطفل ذكيًا ، وضحت لهفته الشديدة وشوقه للمعرفة ، ولابد أن تتمشى المناهج ، مع الميول الطبيعية للأطفال ، خاصة ميدان المعرفة لايتم تقسيمه وتصنيفه بشكل يدركه الصغير . والحق أن الميول خارج المدرسة مؤشر رائع ، لما يجب أن يكون بداخلها ، ولا يفوتنا أن نتحدث عن نزعة الطفل إلى « صنع الأشياء » وخلقها وابتكارها ، وهم يجدون لذة واضحة فى ذلك ، المهم أن نترك لهم ما يصنعونه ولا نفرضه عليهم . وكل هذه الأمور ، تسهم بشكل أو آخر

فى تنمية العقل ، ولكن لا شىء يستولى على أفئدة الصغار مثل القصص وسحرها . وإذا ما تدرب طفل على القراءة أحبها ، فلا حاجز سيقوم بينه وبين الكلمة المكتوبة التى سيلتهمها ، وستكون غذاء رائعًا لعقله وفكره ، وستكون عاملا فى بناء قدراته الذهنية . والسؤال الذى طرحته على نفسى : ماذا نريد لأبنائنا فى هذه المرحلة من العمر وفى هذه الفترة الدراسية ؟ نريد لهم النمو العقلى والاجتماعى . نريد لهم خبرات أكثر ودراية أكبر بالحياة . نريدهم أسوياء فى كل شىء ، ونود لهم « بداية » مدرسية سليمة تحببهم فى هذه المؤسسات التى هم محتاجون لأن يصحبوها أجمل سنىّ العمر . بداية تدفع بهم إلى هواية العلم ، وتقديسه .

إن المدرسة الابتدائية باب ندخل منه إلى التربية الحقة ، والتعليم السليم .. وصحبتنا لها ، تجعلنا نراها مدخلا للبناء الشامخ ، الذى لا يبنى فى الهواء . وعلينا أن نرعى هذه المدرسة ، بحبات عيوننا وقلوبنا ، لأنها تضم فلذات أكبادنا لسنوات تمتد ، يحصلون فيها بدايات المعرفة ، ويضعون أقدامهم فيها على سلم العلم . والمدرسة وحدها بالطبع لن تكفى الأبناء فى هذه السن ؛ إذ لابد أن تساندها الأسرة بكل ما تستطيع ، لكى ترسب القيم فى نفوس الأبناء ، ولكى تفتح أذهانهم وعقولهم ، ولكى تدربهم على التفكير والدرس والتحصيل بل العلم .

٣

تشكل الأمية عقبة كبيرة فى طريق تنمية الأسرة فى بلادنا . لكن مجرد القراءة والكتابة ، وإنهاء المرحلة الابتدائية ، لا يكفى فى عصرنا هذا لخلق بيئة

وجو طيب للتربية داخل البيت ، الأمية خطر على الأسرة ، ومن ناحية أخرى تحتاج الأسرة إلى مانسميه : « التعليم المستمر » . وتحتاج كذلك إلى « الثقافة » وهذا هو السبيل الحق لتنمية الأسرة : عقليا وفكريًّا ، ونفسيًّا ووجدانيًّا ، اجتماعيًّا وتربويًّا . وثمة فارق كبير بين الأسرة التى يقودها أب أمى ، أو أم لا تعرف القراءة والكتابة ، وأسرة أخرى المعلم واحد من مكوناتها (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ؟ ! . لذلك لابد لنا من أن نخطو للأمام خطوة فى الاتجاه . وديننا حث على العلم ، والتعليم فى المدرسة – فضلا عن أنه غير كاف – لا يعطينا سوى بعض مفاتيح لكنوز المعرفة الإنسانية : إنه يقول لنا ؛ إن هناك كنزا اسمه : الأدب أو الفن أو العلوم الاجتماعية أو .. أو .. وعلينا بما أعطانا من مفاتيح ، أن نحصل على هذه الكنوز . التعليم فى تطور وتقدم . مثلا : كان العلم يقول ، إن الذرة لا تنقسم ولا تنشطر ، وتوصل الإنسان إلى القنبلة الذرية : لذلك فالذى توقف فى تعلمه لمادة العلوم عن (أن الذرة لا تنقسم) إذا ما بقى على معلوماته هذه ، فهو متخلف وجاهل . لذلك لابد أن يواكب الإنسان العلوم والتقدم الإنسانى ، والسبيل إلى ذلك ما نسميه (التعليم المستمر) أى أن يظل المرء مستمرا فى تعليمه ، كما جاء فى الحكمة العربية « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » .. والمهد هو سرير الطفل الصغير ، واللحد هو القبر . أى أنه يجدر بالإنسان أن يتعلم منذ نعومة أظفاره إلى أن يودع الحياة ، بهذا وحده يكون قد أفاد من المدرسة ، بأن وضعت أقدامه على طريق العلم والتعلم . وسؤال : ما الفرق بين التعليم المستمر ، والثقافة ؟ التعليم المستمر ، هو أن تظل تدرس وتقرأ ما فى تخصصك . بمعنى : إذا كنت أنا من خريجى قسم اللغة الإنجليزية بالجامعة ، وظللت أقرأ فى مجال اللغة الإنجليزية ، فأنا أستمر فى

تعليمى .. أما إذا قرأت فى العلوم والرياضيات ، فى الفلسفات والآداب ، فى السياسة والاقتصاد ، فهذه محاولة لتثقيف الذات وتوسيع الأفق والمدارك. والتعليم والثقافة – معًا – يعنيان أن يستوعب الإنسان الكثير فى مجال من المعرفة والفهم ، ويهضم هذا الذى استوعبه ويحوله إلى سلوك . أى مثل ما نأكل : النشويات .. البروتينات .. الفيتامينات . فكل هذا يتحول إلى غذاء ، ودماء ، تسرى فى كل الجسم تمده بالدفء ، والحركة ، والطاقة ، وتبنى الجسم إذا ما كان ناشئًاناميًا . أقول : إن العلم اوالثقافة كالغذاء تمامًا .. نقص مادة منه كالفيتامينات تسبب أمراضا بذاتها .. ثم إننا نستوعب ونهضم بعقولنا ، هذه المعلومات وتلك الأحاسيس ، التى ترد إلينا عن طريق ممارسة الحياة ، أو الاستماع للإذاعة ، أو مشاهدة التليفزيون أو السينما أو المسرح ، وبعد ذلك تصبح هذه الأشياء جزءًا لا يتجزأ من تكويننا وكياننا ، وتصبح سلوكًا سليما وتصرفا سويًا .. بجانب ما تضيفه إلى حياتنا من بهجة ومتعة ، فالأسرة تعيش مسراتها وسعاداتها الاجتماعية بالتعاون والتآزر .. أن يفرح الجميع لفرح واحد منهم .. أن يألم إذا اشتكى عضو ويتداعى بقية الجسم والأفراد للعضو بالسهر والحمى ، ويعيش أفراد الأسرة فى حياة مشتركة : طعامهم وشرابهم ونومهم. لكنهم سوف يصبحون فى جزر معزولة منفصلة بعضها عن بعض إذا لم يعنوا بالتعليم المستمر والثقافة . وهم يتبادلون الفكرة ويتحاورون ، ويزدادون قربًا ، إذا هم استفادوا من علمهم وسعة إدراكهم ، وإذا هم اشتركوا فى الاستماع للموسيقى ، أو مشاهدة فيلم أو مسرح أو مطالعة كتاب جديد ظهر فى الأسواق إنهم بذلك يثرون أفكارهم وعقولهم ويصقلون وجدانهم ومشاعرهم ، ويحيون حياة أكثر خصوبة وثراء.. الأمية خطر، ونقص فرع من فروع الثقافة خطأ.

كنقص الفيتامينات من الطعام .. أما إذا اكتملت مع الأسرة وسائل إطعام المعدة ، والعقل : معًا فإننا سنجد أنفسنا أمام أسرة نامية ، بل متقدمة ومتحضرة . فالعلم والثقافة وحدهما علامة التقدم فى عصرنا ، وهما ليسا مجرد أجهزة حديثة وديكورات مكتبة ، بل يجب أن نفيد من الأجهزة أقصى فائدة ، وأن نقرأ ما فى المكتبة ، لا أن نكتفى بمجرد وجودها كظاهرة وكإعلان عن ثقافتنا .

٤

التربية ، تبدأ بالبيت .. مهمة الأسرة الأولى أن تعلم أبناءها كيف يفكرون وأن تدربهم على مواجهة المشكلات وإمعان العقل بحثا عن أسلوب حلها .. وبعض الآباء يحاول أن يغرس فى أبنائه ضروبا من السلوك ، وألوانًا من الأخلاقيات ، لا تقل فى رثاثتها وقدمها عن أثاث الأسرة العتيق ، والبعض الآخر يفرض جوانب من المعرفة والمعلومات ، يحشو بها دماغ الأبناء ، الأمر الذى يغلق نوافذ الفكر لديهم . إن للطفل – فطريًا – عقلا متوثبا ، منقبًا ، محبًا للاستطلاع . وهم يحاولون أن يردوا الأشياء إلى أصولها وأسبابها ، ويحللون نتائجها مستنبطين الكثير من الحقائق . وإذا ما أحسن الأبناء التفكير ، فعلينا بعد ذلك أن ندرب أيديهم وأصابعهم ، ونعلمهم كيف يتصرفون ، بل وكيف يبتكرون ، بطريقتهم هم ، لا بطريقتنا نحن . وقد تبين أنه ما من شىء يعمل ، إلا ولعمله وسيلة أخرى صالحة . مثلا : الكلب يحك جلده برجليه الخلفيتين ، وحيوان آخر يتمسح فى الحائط ، وكل منهما يتقن حك جلده .. لذلك

فلندعهم – أى الأبناء – لكى يمارسوا التصرف والابتكار بأسلوبهم الخاص ، وهذا أمر ضرورى ، لكى نساعدهم على غرس أمور ثلاثة هم فى مسيس الحاجة إليها : البصيرة . الخيال . الشجاعة .

بالبصيره : يرون الأمور على حقيقتها ، فلا هى أكبر من حجمها ، ولا هى ضئيلة . ومنذ سن مبكرة نحاول تدرب الأطفال على جلاء بصيرتهم ، ولعب إدخال المكعبات فى أماكن محددة وترتيب الكور حسب حجومها ، وأشياء من هذا القبيل هى البداية الخاصة بالتدريب على الإدراك وشحذ البصيرة ، إلى أن تصبح شيئا طبيعيا فى تصرفاته حتى بالنسبة للأمور المعنوية .

والخيال : ضرورة . ونضيق بمن قال : لاتبنوا القصور فى الهواء .. أين نبنيها إذن ؟! . إنها لاتبنى إلا فى الهواء ، بشرط أن نجعل لها أساسًا فى أعماق الأرض .. وكان الخيال دائمًا هو أول خطوة على طريق الاختراع ، بساط الريح ، خيال تحقق لكى يصبح الطائرة ، وهكذا . والخيال الواسع يفتق الذهن ، وييسر لنا أن نضع فيه – فيما بعد – ما نشاء من علم ومعرفة .

والشجاعة : سبيلنا لتحقيق كل ما نريد ، فهى التى تدفع بالأبناء إلى أن يحققوا أحلامهم ، ويقتحموا المخاطر ، من أجل جعل حياتهم أفضل ، وأجمل ، وأكثر ثراء : ماديًا ومعنويًا . والخوف عدو البشر ، وهو يحرمهم من الكثير ، فما بالكم بالجبن ، الذى يزرعه البعض فى نفوس الأبناء . إنه مرفوض ، ونأبى أن يتصف به الأبناء خاصة وهم أحفاد أشجع الناس .

وإذا كانت بيوتنا تحكمها تقاليد قديمة ، لا تسمح لنا بأن نمنح الصغار حريتهم ليتبصروا ، ويتخيلوا ، ويتشجعوا . فنحن نرتكب جرمًا حقيقيًّا فى حقهم . إننا كما قال سيدنا عمر بن الخطاب : « نربيهم لزمان غير زماننا » ..

والزمن القادم يحمل فى مجال الاختراع والابتكار ، ما يفوق خيالنا وتصورنا . وما من سبيل لكى يلحقوا بهذا العصر إلا بأن نربيهم بطريقة عصرية ، لا تعتمد على الأساليب القديمة ، التى كانت تستهدف خلق أنماط مقلوبة من الناس . فى حين لابد لنا الآن أن ننبه الطفل إلى الكثير مما لم يصنع بعد ! أو الذى أسىء صنعه ! لكى يعيد النظر . والبعض يكتفى بما هو قائم . الأمر الذى يحجب الغد عن الأبناء .. ونحن نريدهم أن ينهضوا فيه بالكثير . مستخدمين مواهبهم الطبيعية لتغيير مجتمعهم ، وأمتهم ، وبلادهم . هذه زاوية من زوايا الفهم الصحيح والعصرى للتربية ، بعد أن انقضى عصر (اغسل يديك قبل الأكل وبعده) ، ونصائح أغلفة الكراسات . يجب ألا تستغرقنا هذه الأمور ، لأن أشياء جليلة يحتاجها الأطفال فى انتظارهم . وليس معنى هذا ألا يغسل يديه قبل الأكل وبعده ، ولكن فلندربه على ذلك ، خلال وقت قصير مكثف ، يعرف فيه الكثير عن الجراثيم والنظافة ، عن المرض والصحة ، لكى ينطلق منذ نعومة أظفاره ، فى التفكير فى علاج أمراض لم تصل الإنسانية بعد إلى علاج لها .. وهكذا نرى أن البداية تكون دائما على يد الأسرة ، التى قد تتصور أنها تذلل لأطفالها كل شىء ، وتحقق لهم كل ما يرغبون فيه ، فإذا بهم أمام أطفال وشباب عاجزين عن التفكير والخلق والابتكار !

٥

« التربية » تبدأ فى البيت ، والبعض يصل حبه لأبنائه لدرجة التدليل ، ويحاول أن يذلل لهم كل شىء ، وذلك حب سطحى ساذج ، فإن الأب يحرم

أبناءه ذلك « النظام » الذى هو أجدى عليهم فى التربية . ومثل هذا الأب ، يذكرنا بأحد ذوى القلوب الرقيقة ، كان مولعا بتربية الفراشات ، وقد بلغ تأثره لمنظر الفراشة ، وهى تجاهد للخروج من الشرنقة أن أخذته الشفقة الكاذبة بها ، فشق الشرنقة بظفر أبهامه ، حتى يستطيع ساكنها الضعيف أن يخرج بلا مشقة ، فكانت العاقبة أن ظلت هذه الفراشة عاجزة عن الطيران . إن المعاناة ضرورة ، فالفراشة خلال معاناتها الخروج من الشرنقة تقوى ، لتصبح قادرة على الانطلاق ، وعندما حرمت المعاناة عاشت عاجزة بقية العمر . فالطفل كلما واجه مشكلة من هذا اللون فقهرها وانتصر عليها ، ازدادت بذلك أجنحته قوة ، وكلما أتيح له أن يفكر ، ويقرر رأيًا ، يمضى فى تنفيذه فى جرأة وتصميم ، وكلما أتيح له ذلك تجددت شجاعته وثقته بنفسه .. ولنا هنا وقفة عند « الشجاعة » .. فهناك شجاعة فطرية ، حين تثور الغرائز لملاقاة خطر مفاجئ ، وهناك شجاعة يتربى عليها الطفل ويدرب ، وهى مواجهة الفشل ، والإخفاق ، والصعاب ، ويقصد بها أن ينهض الذى يسقط وينفض عنه غبار السقوط ، ويعاود المضى قدما . وهذا اللون من الشجاعة هو الذى نحتاجه ، ونود لو نغرسه فى نفوس أبنائنا ، بجانب البصيرة النافذه ، والخيال المجنح .

وعصرنا يضع بين أيدى الأبناء « الأشياء الجاهزة » .. « المبتكرات الرائعة » .. « المخترعات الفذة » . وقلما نتذكر أن نقول شيئا لهم ، عما بذل من أجل إنتاجها والجهود المضنية التى أدت إلى حصولنا عليها ، بعد عشرات من التجارب التى لم تنجح . وقد حدث أن أجرى « اديسون » عشرين تجربة ، قبل أن يصل إلى نتيجة سليمة فى التجربة الحادية والعشرين ، فقيل له : إنك إذن أجريت عشرين تجربة فاشلة ؟ أجاب : لا .. بل إن عشرين تجربة فاشلة لن

تعيد الدنيا تجربتها من جديد . فالشيء المؤكد ، أننا لن نستطيع أن نصل إلى نتيجة حاسمة ، متفقة من أول وهلة ، وأول تجربة ، وأول محاولة .. بل إن الإخفاق – والإخفاق المتكرر – هو بوصلة النجاح ، والمرة الوحيدة التي ينجح فيها المرء ، ولا يخفق هي المحاولة الأخيرة ، التي تكلل المساعي بالفوز والنجاح ؛ فالفشل هو سلم النجاح ، والمرء يخفق ماضيا في طريقه إلى التوفيق .. وكثيرا ما تكون هذه الخطوة الموفقة بداية ، لا أكثر ولا أقل ، بداية لكفاح أشد وأقسى ، وعلى هذا يجب أن يدرك الأبناء – بعد العناء – أن النجاح له متاعبه . وإذا أدركوا هذا أصبحوا أكثر شجاعة وجرأة ، وأشد ثباتًا وعزمًا عندما يواجهون بالعقبات ، ويلتقون بالمشكلات .

وهناك حقيقة لابد وأن يعرفها الأبناء تلك هي الهبة التي منحها إياهم الله .. إنها رأسمالهم الذي يجب أن يستثمر : إنه الوقت . إنهم يملكونه ويملكون تبديده وإضاعته ، والتصرف فيه بالشكل الذي يرونه ، وقضية (الثلاث ثمانيات) تشغل البشر منذ وقت طويل . . ثماني ساعات للأكل والراحة والنوم .. ثماني ساعات ثانية للمدرسة والاستذكار أو العمل . ثماني ساعات ثالثة ، هي التي تبقى لنا لاستثمارها أو تبديدها ، وهي وحدها التي تصنعنا ! ، إن التاريخ يغير مجراه أناس عرفوا كيف يستفيدون من هذه الساعات الثمانية ، المتبقية لهم كوقت فراغ ، وأبناؤنا ، يجب أن يعرفوا أن هذه الساعات وحدها ، هي التي تقرر مصيرهم ومستقبلهم ، ولن يستطيعوا أن يكونوا من رجال الابتكار والتقدم ، مالم يتعلموا كيف يخصصون جانبًا من نشاطهم للاستعداد للمستقبل ، وكيف يستخدمون أوقات فراغهم في أمور عملية . بهذا يكون البيت قد ساهم مساهمة عملية في تربية الأبناء ، بشكل عصري خاصة والمدرسة

تركز حتى الآن كل جهودها على التعليم ، وعلى حشد الأذهان بالمعرفة ، الأمر الذى لايدع للأبناء فرصة للتدرب على التفكير الحر الطليق .. وعلى ذلك فسوف يظل البيت هو مهد التربية ، والمدرسة والمجتمع يشاركان بقدر متواضع ، فهى أجهزة غير مباشرة ، أما الأسرة ، فهى أكثر تأثيرًا فى الأبناء وأقدر على صياغة عقولهم . لذلك فإن خلق بيئة صالحة لنمو الأطفال فى البيت ، رسالة أساسية ، يجب أن تهيئ الأسرة نفسها لها ، ولابد أن تكون قادرة عليها ، وذلك بتثقيف نفسها ، والتسلح بالمعرفة والخبرة فى مجال التربية ليشب الأبناء ناجحين موفقين .

٦

« التعليم المستمر » ليس معناه أن يمضى الطالب إلى مراحل الدراسة العليا ، ليحصل على دكتوراه ، ولكننى أقصد ، أن يواصل الإنسان التعليم والدراسة بعد أن ينقطع تردده على معاهد العلم ، وتنتهى دراسته عند أية مرحلة مدرسية وكل منا مطالب بأن يجيب على سؤال :

– هل طبقنا هذا الشعار « طلب العلم من المهد إلى اللحد » ؟ هل نوالى تعليم أنفسنا وتثقيف ذاتنا ؟

لا أريد أن ندخل الفرحة على أنفسنا بإجابة سطحية ، فنقول : نعم ، وننفض أيدينا من الأمر ، كما لا أرغب فى تعذيب ذاتنا ، وممارسة القسوة عليها ، بمقارنات ساذجة نعقدها بيننا وبين زميلات ، وزملاء لنا . ربما بذلنا جهدا مضنيا ، ومعاناة شديدة ، من أجل الإجابة عن هذا السؤال . وأظنه سيظل

مطروحا ، وسيفا مسلطا على رقابنا ، كلما تطلعنا ، إلى رفوف المكتبات وهى تمتلئ وتفرغ ، ونراها تنادينا أن نقرأها . وما من سبيل للاستجابة لهذا النداء ، فما فى استطاعة بشر أن يلم بما تصدره مطابع الدنيا من موضوعات ، فما بالكم بقراءتها . والقراءة نعمة ، والمداومة عليها نعمة أكبر ، ويقينا هى تأتى بالتدريب . والممارسة من الطفولة والذين يشكون من ضيق الوقت فى واقع الأمر يتنصلون ، فمن الممكن من حين لآخر ، أن يتسع الوقت لدرجة لانعرف معها كيف نقطعه أو نستغله ونستثمره وليس أفضل ، ولا أرخص ولا أمتع من قضائه ، بين أشرف ما منحنا الله : الكتب . فإنه سبحانه وتعالى — حين أراد أن يهدى البشر ، أرسل إليهم كتبًا مقدسة .. على أن القراءة وحدها كيفما اتفق ، ليست هى التعليم الذاتى والمستمر .. فالقراءة ليست المصدر الوحيد للعلم .. فقد تكون المصدر الأساسى والرئيسى ، إلا أن العينين ، والرؤية ، سبيل هام للمعرفة وكذلك الأذنان والسماع وسيلة رائعة للدرس . وتأتى بعد ذلك اليدان ، والحس كأسلوب فذ للتعليم . وهناك الخبرة المكتسبة ، من المشاهدة والسماع والممارسة ، كأوضح طريق للتلقى التلقائى ، كما يفعل أبناء الفلاحين والحرفيين حين يرثون مهن آبائهم ، وإن توقف بهم العلم ، وسدت سبله بعد ذلك ، بسبب الأمية كل هذه السبل والوسائل والطرق والأساليب كانت وستظل عمد التعليم الذاتى والمستمر ..

والمجتمع — ممثلا فى أجهزة مسئولة عن الكتاب ، كوزارات التربية والإعلام والثقافة ودور النشر — مسئول عن تقديم غذاء العقل للأبناء ، من سن الحضانة إلى الكهولة ، فمنذ أن يقبع الصغير فى عربته ، يجب أن نحيطه بكتاب مصور ملون ، قد يكون من ورق مقوى لا يستطيع تمزيقه ، وقد يكون من

قماش يمكن غسله ، وذلك تدريبا لعين الصغير على « الاطلاع » على الكتاب .
وتكثر الكتب الملونة حول الصغير ، وتغزوها الكلمات ، بقدر ما تقل منها الصور خطوة خطوة حتى يستطيع الفتى أن يقرأ كتابا علميًا ليست به رسوم وصور ، ولكن قد تكون فيه أعقد الجداول وأصعب المعادلات ، ويجب أن تكون هذه الكتب قيمة ومنوعة وفى متناول اليد ، وأن تتحمل الدولة جانبًا من نفقاتها ، حتى يمكن أن يسهل على الجميع شراؤها واقتناؤها ووضعها فى مكتباتهم الخاصة .

ومما تجدر ملاحظته أن المدرسة بداية مازالت تهدف إلى حشو المعرفة فى الأدمغة وليست بقصد استثار حب الاستطلاع والاكتشاف ، وهى تقدم لأبنائنا كتبًا لا تحببهم فى الكتب ، وما إن يمتحنوا فيها حتى يهجروها بقسوة ، بل قد يتخلصون منها إلى الأبد . ولابد لنا من أن ندرب الصغار فى هذه الفترة من العمر ، على عقد معاهدة صداقة أبدية بينهم وبين الكتاب ، والكتاب لن يعطيك نفسه ، إلا إذا أعطيته نفسك. ومن أجل هذا يجب أن نمد مكتباتنا المدرسية ، بكل حديث ، ويجب أن نضع أمينًا ، يكون أمينًا على قراءات أبنائنا ، يتلقاهم بالبسمة العريضة ، ويكون دليل خير لما يريدون . ومن الضرورى أن تعود « حصة المكتبة » لتأخذ مكانها بين الحصص الهامة ، وليتنا نضع اختبارًا للثقافة العامة ، يجعل الأبناء يقبلون على الكتب ؛ ليعتادوا ذلك . والحق أن المناهج والمقررات الدراسية ، قد جعلتنا خلال سنوات طويلة نغلق على أبنائنا باب الاطلاع ؛ لأننا نضع لهم كتابا معينا يدرسونه وقد يستظهرونه بلافهم ولاوعى ، فى حين أن الدنيا كلها كفت عن استخدام (الكتاب المقرر) وأعطت الأبناء منهجًا ، يبحثون عن مادته فى مراجع عدة ، فيدربون على

البحث والاستقصاء ، للعثور على المادة المطلوبة بعد جهد ، لكى يتوسعوا فى المعرفة ، ولا يسجنون بين دفتى كتاب واحد ، ومؤلف واحد . ولأن المدرسة تربية ، وليست معرفة فحسب ، فإننا نراها المسئولة والمنوطة بتربية الأبناء على القراءة والاطلاع ، لتظل لديهم هذه العادة الرائعة : عادة تثقيف الذات والتعليم المستمر ، الذى هو من المهد إلى اللحد ، على أن المدرسة ليست المسئول الأوحد عن هذه المهمة الكبيرة . ويتبقى الفرد منا مع كل ما أسلفت — صاحب القضية الأصلية فى رفقة الكتاب .. إن كماليات كالتدخين يجب ألا يصرف لها أكثر مما يصرف للكتب ، التى هى وسيلتنا للتعليم المستمر ..

الطفل والمنافسة

١

من مدة سمعت إحدى الزميلات المذيعات تسأل الأطفال مجموعة أسئلة من بينها السؤال التالى : «كنت تلعب بالبِلْى مع صديق لك . وكان معك ساعة بدء اللعب عدد كذا بلية ، وفى نهاية اللعب أصبح معك كذا بلية .. أى أكثر من صديقك باثنين» هذا السؤال فى حد ذاته لايهمنا إنما يهمنا موضوع السؤال ، لأنه يطرح قضية لعب البلى ، بالكسب والخسارة ، وفى هذا لفت نظر الأطفال لشىء لا نود أن ننبههم إليه وهو : القمار .. والحقيقة أنه لابد من لفت الأنظار لأمور أخرى كالمنافسة : مجلة رسمت قطا يجرى خلف فأر وثلاثة أولاد كل واحد منهم يركب عجلته ويجرى بها ، واثنين خلف كرة ، وكلب منطلق خلف شخص يحاول تسلق سور .. وسألت المجلة : مَنْ مِن هؤلاء يتسابق ؟ .. ومن يطارد ؟! .. والمنافسة فى السباق مقبولة ، أما القمار فرفوض ومعروف لماذا هو مرفوض ..

والحياة فيها نصر وهزيمة .. وفيها مكسب وخسارة .. ولكن ليس بالقمار ، ومجرد الحظ .. وسؤال الطفل : ما الفرق بين جرى القط خلف الفأر وبين تسابقك وزميلك على الكرة ؟ .. سؤال يكشف الفرق بين المطاردة والمنافسة والأسئلة لابد أن تكون موجهة .. بمعنى أن تسأل الطفل : هل تعيش الوردة

أكثر إذا ما تركت على عودها ، أو إذا ما قطفناها ؟! هذا السؤال ليست الإجابة عنه مطلوبة لمجرد المعرفة والإدراك بأن الوردة تعيش أكثر على عودها .. إنما تستهدف إجابته أن يترك الطفل الوردة ولا يقطفها .. وهذا أروع بكثير .. أن يستنتج الأفضل بنفسه ، ويعمله بدلا من الأوامر والنواهى والمحظورات التى نلقيها عليه . وربما لايكون هناك شعب فى العالم يستخدم كلمة ممنوع مثلنا .. ممنوع قطف الزهور .. ممنوع السير على الحشائش .. ممنوع الدخول .. ممنوع كذا .. إلخ ، وقائمة الممنوعات طويلة ، ونستمتع بمخالفتها . لأن كل ممنوع مرغوب كما يقال ..

وليس المطلوب منا أن ننشئ أطفالنا دائرة معارف تسير على قدمين . ولا المطلوب أن نحشو رءوسهم بالمعلومات .. نعلمهم : نعم .. نربيهم : نعم أيضا .. مطلوب أن ندلهم على مصادر المعرفة أكثر مما نقدم لهم المعرفة ذاتها .. ومصادر المعرفة الممارسة .. الرؤية .. الاستماع .. القراءة .. والمدرسة .. المدرسة تأتى فى النهاية . من أجل هذا كان من المستحسن أن نسألهم أسئلة توجيه لا أسئلة معلومات .. وسأقدم لكم مجموعة نماذج من هذه الأسئلة .

– قل لى مَنْ مِنْ هؤلاء حقيقى ومن خيالى : الذئب ، الشبح ، عروس البحر ، العفريت ، مصباح علاء الدين ؟ .. هذا سؤال لطرد الخوف من الأشباح والعفاريت .

– قل لى كم مرة تنهاك والدتك عن عمل شىء وتمتنع عن عمله ؟ هذا سؤال عن الاستجابة لأوامر الأم .. أيستجيب من أول مرة ، أم أن الأمر يحتاج إلى تكرار ؟

– قل لى أيهما أسهل : أن تؤدى الواجب المدرسى أم تجلس لمشاهدة

التليفزيون .. هذا السؤال يلفت النظر إلى أن السؤالين ممتعان وسهلان .

- شخص لديه ببغاء إذا أراد شيئا صرخ وخبط .. ولديه عصفور إذا أراد شيئًا غنَّى برقة .. هل تحب أن تقلد العصفور أو الببغاء . حينما تريد شيئًا ؟! واضح أن هذا السؤال يستهدف اتباع الطفل أسلوب الرقة فى طلب الأشياء بدلا من أسلوب العنف .

- أيهما تفضل عصير البرتقال أم اللبن ؟ .. كيف تعرف أن الطفل أنانى ؟ .. هل تحب الطفلة التى تميل للاستعراض وتتباهى بنفسها ؟! .. هل إذا وجدت طفلا يضرب طفلة وتبكى ، تنهاها عن البكاء ؟!

- وأنا أدرك تمامًا أن هذه الأسئلة ليست سهلة لكنها تحتاج إلى بذل الجهد لكى نبتكرها .. لأنها تخلق عند الطفل القدرة على التفكير وابتكار الحلول ، وتوجهه توجيها أخلاقيًا طريفا وغير مباشر .. وكم يكون ممتعا للطفل والأسرة لو أن لدينا ألف سؤال وسؤال من هذا النوع ، ندرب أولادنا على التفكير ، حتى لا يكونوا مثل نكتة الشيخ البشرى ، ونكتة صامويل بيكيت فى روايته فى انتظار جودو .. فتقول نكته الشيخ البشرى إن الشخص يستطيع القراءة والكتابة إذا لبس العمامة .. ونكتة بيكيت تقول إن البطل يستطيع التفكير إذا لبس القبعة .. وإذا خلعها كف عن التفكير .. وكم أشعر بالخوف لأن أغلبنا الآن لايلبس شيئًا فوق رأسه .

٢

من المهم جدًّا أن نعلم أولادنا أن يلعبوا من أجل الكسب ، وأن يذاكروا من أجل النجاح ، وأن يناضلوا من أجل الفوز ، وأهم من هذا أن نعلمهم أن

يلعبوا ، ليس فقط من أجل الكسب وأن يذكروا ليس فقط من أجل النجاح ، وأن يناضلوا ليس فقط من أجل الفوز .. فالكسب ، والنجاح ، والفوز ، ليست كل شيء فى الحياة .. لأن فيها الخسارة ، والفشل ، والهزيمة ، وفيها أيضا التعادل ، ونحن نحفز أبناءنا باستمرار وندفعهم دفعًا لتطلعات كبيرة ، وقليل منا ، قليل جدًّا الذى ينتبه للجانب الآخر من الحياة ، وينتبه له .

إننى أجد أكثر من صديق يركز كل همه وكل جهده وكل وقته من أجل أن يضغط على أبنائه ، حتى يكون ترتيبهم الأوائل .. وإذا جاء ترتيب أحدهم الثانى نجد أنه أسِفَ أسفًا شديدًا ، كأن الابن قد رسب رسوبًا فاحشًا ، كأنه لم يعد هناك أمل .. مثل هؤلاء الآباء فى الواقع ينسون أمرًا فى منتهى الأهمية .. ينسون أنه ليس هناك أول واحد .. وإنما هناك أوائل كثيرون والقمة ليست مريبة ولا تتسع إلا لواحد .. أبدًا .. إن هناك قممًا كثيرة ، كثيرة جدًّا ، وقممًا عريضة ، عريضة جدًّا .. هناك قمم فى الرياضة ، وقمم فى السياسة ، والفن ، والأدب .. فالقمم كثيرة جدًّا كما قلت ، ثم إن القمم تحمل الكثيرين ، وتتسع لعدد كبير .. ففى الأدب عشرات القمم وكذا الشعر والمسرح و ... الخ وفى القصة عشرات القمم .. وكل قمة لها لونها ، وطعمها ، وجمالها ..

لكن هناك من ينسى أن هناك سفحًا أيضًا .. وفيه أودية وسهول .. وفيه آبار .. آبار عميقة .. بمعنى أن هناك من يموت حسرة لأنه لم يصل للقمة .. وأحيانا ننسى الارتفاع المطلوب منا أن نصل إليه .. أو مطلوب من أولادنا أن يصلوا إليه .. لنفرض أن جهدنا وجهدهم لا يوصلنا إلا إلى نقطة معينة .. إلى درجة محدودة .. هل نضغط ؟ هل نتحايل ؟ هل نغش من أجل أن نصل إلى القمة بأى ثمن .. هنا المأساة : ربما لا نصل وقد نصل ونسقط من على القمة ..

لأن ليس لدينا الصفات الحقيقية لها .. المؤهلات .. الإمكانيات .. ثم هؤلاء .. الأوائل الذين كانوا معنا فى الدراسة هل أصبحوا جميعًا من القمم ؟ .. لا أظن . فنسبة كبيرة منهم وفّقت فى الحياة ولكنْ ليس جميعهم .. فمن وفقوا ونجحوا كانت عندهم الرغبة والإمكانيات والجهد والعطاء .. أما الباقية فلا .. من أجل هذا قلت إنه كما يعرف أبناؤنا أن هناك مكسبًا ونجاحًا وفوزًا .. لابد أن يعرفوا أن هناك أيضا خسارة وفشلا وهزيمة .. وأهم من الاثنين أن يلعبوا جيدًا .. ويناضلوا جيدًا ، هذا فى ذاته مكسب ، حتى ولو لم يكسبوا ذكروا دائما عبارة هيلين كيلر السيدة الكفيفة الصماء البكماء ، مؤلفة الـ١٨ كتابًا تقول : كل نضال فى ذاته انتصار .. وهناك حكمة عربية جيدة تقول : (على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح) . والذى ينجح له ثوابان : ثواب المحاولة ، وثواب النجاح .. والذى لا ينجح له ثواب وشرف المحاولة .. ثم أننا تعلمنا من الحياة أن الفشل طريق النجاح .. فمن يسقط عليه أن ينهض وينفض عنه الغبار ويواصل السير .

ويجب ألا يهزنا النجاح ، وألا يغرينا النصر ، وألاّ يدير رأسنا الفوز .. كما علينا ألاّ تقعدنا الخسارة على أن نجرب من جديد ، ولايصيبنا الفشل واليأس ، وألاّ تفقدنا الهزيمة الأمل فى النصر .. وألاّ ننسى أن صلاح الدين الأيوبى انتصر فى حطين بعد هزيمته فى ٢٥ معركة على مدى تسع سنوات ، وكنا دائمًا نقفز عبرها .. وننساها ونقف عند حطين وكفى .. وحطين لم تكن ضربة قط .. إنما كانت مسيرة طويلة فيها عرق ودم ونضال وقتال .. فيها المكسب والنجاح .. والفوز والنصر .. كل هذه لا تأتى بسهولة ولكن بالمعاناة والصبر .

الطفل والعمل اليدوى

١

أحيانًا أنظر إلى يدى بأسف ، وأقلبها فى حزن ، لأنها من الأيدى غير المدربة .. لا أستطيع أن أخرج منها شيئًا فنيًا ، أمسك بهما الأشياء ، آكل بهما أكتب بهما .. فقط .. وأرى أيدى مهرة أيدى مدربة على التركيب والتصليح ، ببراعة شديدة ، أيدى تشكل فنونًا جمالية رائعة ، وترسم ، وتبدع ، أعرفتم لماذا آسف على يدى .. لأنها عاجزة عن أشياء كثيرة .. والسبب تعرفونه .. فحينما كنا صغارًا ، كان يُقال لنا دائمًا : لا تمسك القدوم .. ابتعد عن المقص .. احذر المفك .. لا داعى للموسى . فإذا ما عمدت أيدينا الصغيرة لأى نوع من الأدوات بدأت التحذيرات .. وإذا توصلنا لأية أداة ، أصبنا باللوم الشديد .. هكذا جرحت نفسك .. جرحت أصبعك .. وبذلك تحجرت أيدينا .

ومما لا شك فيه أن أيدى الإنسان فى العصر الحجرى كانت أمهر بكثير من أيدينا .. ونتيجة لهذا ، فقد نشأ جيل كامل لا يعرف طرق المسمار فى الجدار .. أو تثبيت الأزرار .. أو إصلاح صبور .. كل هذا بسبب كلمة عيب .. والمشكلة الحقيقية ليست فى أننا لا نستطيع عمل هذه الأشياء ، وإنما المأساة أن هذا لم يجعلنا نحترم العمل اليدوى الاحترام الكافى .. الاحترام الواجب .. الاحترام اللائق .. مع أن العمل اليدوى له أيد كبيرة على الإنسانية ، ولايقل

دوره مطلقًا عن العمل العقلى ، والعمل الفكرى ، لأنه من الممكن بالعقل والفكر أن تخطط ، وتبدع ، لكن يبقى دائمًا التنفيذ .. والمعول فيه على الأيدى ، والذى يفكر منا فى اليد الإنسانية يشعر أنها وراء آلاف .. بل ملايين الأشياء .. من صناعة آلة الصيد والدفاع عن النفس ، إلى صناعة الصاروخ الذى يصل بنا إلى القمر .. اليد الإنسانية خطيرة .. تمتع حياتنا فى أثناء ركوب السيارة ، أو الأتوبيس .. تقدم أروع إنتاج فى الزراعة .. وفى الصناعة ، وربما لا نحس جميعًا بأيدينا وما تصنع إلا إذا وضعت فى ضمادة لمدة يوم أو اثنين .. ولو أحصينا ما تؤديه فى اليوم الواحد لوجدنا أنها تتجاوز الألوف .. حتى وهى غير مدربة ، فما بالكم لو كانت مدربة ؟!

وقد خسرنا تربويًّا الكثير من عدم الاستفادة من أيدينا ، لابد من تغيير نظرتنا جميعا للعمل اليدوى .. تغييرا جذريا ، لابد من أن ندوب أصابعنا رجالا ونساء على أعمال الحياكة .. والميكانيكا .. والنجارة .. والطبخ .. حتى تستحق أيدينا أن تكون مفكرة ، وحتى نوجه أبناءنا التوجيه السليم بالنسبة للتعليم الفنى .. وكفى ما أهملته أجيال كثيرة .. نحن الآن مهتمون به ومحتاجون إليه .. غير أن نظرتنا له ليست بالتقدير الكافى .. ولا الاحترام العميق .. ومازالت بنا عقدة الياقات البيضاء التى رسبها الاستعمار فى نفوسنا .. متى نعرف أن الأيدى المعروقة ، والأصابع الدقيقة المغلفة بالشحم والزيت تستحق التقبيل ؟ لأنها أيد منتجة .. لقد أصبحت لعب الأطفال الآن عدد ميكانيكا ، الميكانو .. وأصبحت عدد نجارة .. وحدادة .. وكهرباء .. وأصبحت عدد فك وتركيب حتى تمرن عقولهم وأيديهم ، وتمتعهم بأن تكشف لهم إلى أى مدى تعتبر الأيدى الإنسانية مرنة ، وإلى أى حد تستطيع فعل السحر ، لقد بنينا بأيدينا البسيطة

الهرم .. وصنعنا الغواصة .. والطيارة .. بأيدينا البسيطة ، خلقنا حضارة الإنسان فى الحياة .. وإذا كانت يداى هما ورثة كل هذه الأيدى فمن حقى أن أنظر لها نظرة أحسن ، وأحبها أكثر ..

٢

أيدينا لابد أن ندربها ، ونمرنها ونعمل بها كل شىء ، نفك ونركب ونصلح .. ونكف عن تحذير أولادنا .. احذر .. لا داعى للقدوم .. وقال لى الذين قابلونى لقد أعطيت للأيدى أكثر مما تستحق ، لقد جعلتها وراء كل شىء .. لماذا نظلم الفكر .. العقل .. والواقع أنى لم أظلم العقل ولا الفكر .. لأن الأيدى منفذه .. منفذة لخطط وأفكار هى ثمرة للعقل .. وتضيف له الكثير وهى تعمل .. وتضيف له وهى تقلب صفحات الكتاب .. وتضيف له وهى تمارس .. لقد كنت ذات يوم مع صديق لى فى سيارة .. توقفت بنا قريبا من محطة بنزين .. وجاء أحد العاملين بالمحطة ومعه مفك .. واستمر حوالى نصف ساعة يحاول أن يصلح السيارة ، لكنه لم يستطع وفى أثناء عمله مر ميكانيكى خبير ، نظر إليه وقال له : اربط المسمار الذى هناك .. وما إن ربط المسمار بالمفك حتى دارت السيارة .. وتساءل صديقى : كم نعطى له وكم للآخر ؟ .. وهذا بالطبع ينبه لقضية فى منتهى الأهمية .. وهى علاقة الفكر بالتنفيذ .. علاقة النظرية بالتطبيق .. قد يكون بالبعض شوق لمعرفة كيف تم حل هذا الموضوع ؟ .. إن صاحب الفكرة هنا مهم جدًّا .. وبعدها أصبح التنفيذ سهلا ..

وهذا بالتأكيد يذكركم بالنزاع الذى دار بين القبائل العربية حين كانت تعيد بناء الكعبة واختلفت حول حمل الحجر الأسود ، وكادت تقوم الحرب بينها لولا أن تدخل سيدنا محمد ﷺ .. يومها خلع ثوبه ، ووضع فوقه الحجر ، وحمل كل منها من طرف . أيضًا بيضة كولمبس .. من يستطع أن يوقف البيضة على طرفها ؟ .. لم يستطع أحد إلا كولمبس ، كسرها فأصبحت لها قاعدة .. والسؤال : كيف يستطيع الإنسان التقاط هذه الأفكار أو كيف يبتكرها ؟! هناك ألوف مثل نيوتن سقطت عليهم تفاحة من فوق الشجرة ، بعضهم أكلها ، والبعض أهملها ، إلا نيوتن فهو الوحيد الذى فكر لماذا سقطت ؟ واكتشف جاذبية الأرض .. لأنه فكر .. والسؤال الذى يطرح نفسه .. كيف نتعلم التفكير ؟ كيف نخلق الأفكار ؟ كيف نبتكر ؟ هل هناك عقول مبتكرة .. مكتشفة .. مخترعة ؟ .. أم من الممكن خلق هذه العقول الخلاقة ؟ .. العقول المبتكرة ؟ .. المكتشفة ؟ .. المخترعة ؟ لابد أن ندرب أبناءنا منذ الطفولة على التفكير .. لا أن نقدم لهم كل شيء جاهزًا .. لابد من بذل مجهود للوصول إلى بعض النتائج .. والمعاناة هنا مطلوبة للصغار .. ومن الممكن أن نجنب أبناءنا الكثير مما عانيناه .. فمثلا لم تكن هناك فرصة للكثيرين منا لامتلاك لعبة فى طفولتهم .. ومن الممكن أن نقدم لهم هذا .. ولكن الشيء الذى لا نستطيع أن نقدمه لهم ، هو الراحة من المعاناة والتفكير .. لابد لهم من معاناته ، وإلا فإن إنجاحهم سيصبح صفحة بيضاء .. لابد من أن يمعنوا التفكير فى قضاياه وإذا لم يفكروا فيها بأنفسهم فعلينا أن نثيرها أمامهم .

هناك مدرسة تقول : لماذا لانتركهم يعيشون طفولة سعيدة بلا مشاكل ، حتى إذا ما كبروا تذكروا طفولتهم السعيدة وأيامهم الحلوة ، إذ سيواجهون

بالمشاكل حينما يكبرون ويكفيهم هذا ، ولا داعى لأن نضع على أكتافهم الأعباء منذ صغرهم .. ومدرسة ثانية تقول : احذروا .. لاتصوروا لهم العالم بصورة وردية جميلة ، حتى لا يفاجئون حين يكبرون بأننا كنا نكذب عليهم ونخدعهم ـ ولايستطيعون وقتها مواجهة مشاكلهم لأنهم شبوا دون سلاح يواجهون به الحياة ، لابد من تدريبهم وفتح عيونهم على الرؤى والطيب ، والشيء الحسن .. ولابد أن يصلوا لكثير من النتائج بأنفسهم ، بفكرهم ، بمجهودهم ولاداعى لأن نخلف الأمور ، ومن الجميل أن يسرحوا مع علاء الدين والمصباح العجيب ، لكن لابد لهم أن يسمعوا ما تعرض له أوليفرتويست من مآسى .. والقدرة على التفكير تربى شيئا فشيئًا .. وإلا سنجد أنفسنا أمام إنسان غبى مثل ذلك الذى قال لى ذات يوم .. هل تعلم ماذا أريد أن أكون ؟ ! .. وكان عمره قد تجاوز الثلاثين .. سألته خيرًا ماذا تريد أن تكون ؟ قال : مفكرًا مثل برتراندرسل !

٣

يقول لى صديق إن لديه عقدة اسمها العمل اليدوى لأنه لا يستطيع أن يعمل شيئًا بيديه .. إن يديه فاقدتا المرونة والقدرة على الفك ، والتركيب ، والتصليح .. وبوده ألا تتكرر مثل هذه الأيدى فى بلدنا .. وفى أجيالنا .. إذ نجد فى أوروبا .. الولد الصغير يستطيع استعمال كل الأدوات .. الفتاحة ، والمفك ، والأزمير .. إلخ .. ونحن لانعرف هذه الأدوات .. نعقد مؤتمرًا لفتح علبة مأكولات محفوظة ، ويفسد الصنبور ويستمر تساقط الماء منه أسبوعا إلى أن

يحضر السباك .. وينقطع التيار الكهربائى فنعيش فى الظلام إلى يصل الكهربائى .. تتوقف السيارة أو تحدث تهوية فى إطارها فنظل عاجزين بجانبها إلى أن يحضرُ المنقذ .. ومع ذلك إذا طرحنا على مجموعة طالبات سؤال كهذا :

— من منكن توافق على أن تتزوج من ميكانيكى ؟!

نجد أن الكثيرات يفضلن موظفًا صغيرًا ذا دخل محدود ، على ميكانيكى ماهر ، قد يتجاوز دخله ثلاثة أو أربعة أمثال دخل هذا الموظف .. لأنى كما سبق أن قلت : مازالت عقدة الياقات البيضاء ، التى خلقها فينا دنلوب قائمة ، وستظل قائمة بطول نظرتنا للتعليم الفنى ، والعمل الحرفى ، نظرة فيها قلة تقدير .. ونظرة واحدة لما حولنا تكشف لنا كيف ننظر إلى بعض الأعمال .. كم لدينا من حمالين .. ومن ماسحى الأحذية .. هناك الكثير من الأعمال موجودة لأننا لا نعمل ما نحتاج إليه بأيدينا ونعتمد فيه على الآخرين .. لماذا لا يحمل كل منّا حقيبته ؟.. لماذا لا يمسح كل منا حذاءه ؟.. لكن بقايا العقلية القديمة مازالت متوارثة ، فالبعض يجد أنه لايليق به أن يخرج من المحطة حاملا حقيبته ، ثم يمسح حذاءه بنفسه إلى هذا الحد ؟! .. ما من شك أن هذا يعود على بلادنا بخسارة جمة .. الصنابير التى ينساب منها الماء .. آلاف الأشياء البسيطة التى تدمر اقتصادنا .. ثم إن الناس الذين يقومون بهذه الأعمال البسيطة نخسرهم .. لأنه ليس لديهم أى كفاءة أو قدرة . ولأنهم .. يكتسبون مهارة عقلية أو يدوية .

من مدة أجرت الأمم المتحدة بحثين مهمين : أحدهما فى سويسرا ، والآخر فى البرازيل .. سويسرا ليس بها ثروات طبيعية ، والبرازيل مليئة بها .. ومعتمدة عليها .. لكن أهل سويسرا حيث لا يوجد حديد ، القطعة بعمليات تتحول فى

أيديهم إلى ساعات تباع بجنيهات .. وأصبح مستوى المعيشة فى سويسرا أعلى منه فى البرازيل نتيجة لكفاءة الأيدى ، وبراعتها فى الصناعات الدقيقة الغالية التى دربت عليها عبر عشرات السنين ونجحت فيها .. والسؤال : كيف نكون مثل سويسرا وليس مثل البرازيل ؟ .. يوم أن نؤمن بالعمل اليدوى .. وقد حدث فى أثناء زيارتى لإحدى بلدان الكتلة الشرقية أن تطرقنا لهذا الموضوع ، وقال أحد المفكرين منهم : هل تعلم من هو أكثر شخص ركز على العمل اليدوى ؟! قلت له : أعتقد أن هناك كثيرين أكدوا هذه المسألة بإصرار .. محمد .. صلى الله عليه وسلم .. وسكت محدثى لحظة ليضيف .. قرأت من كلماته وأحاديثه .. عشرات يحض فيها عليه .. ولم تغب هذه الحقيقة عنى لكنها بهرتنى ؟! .. ما أكل ابن آدم طعامًا خيرًا مما تصنعه يده ، شىء بهذا المعنى .. وما كان الرسول يأنف من أن يعمل أى شىء بيديه .. وقد قالها سيدنا عمر : أرى الرجل فيعجبنى ، وأسأل ما عمله ، فإذا لم أجد له عملا أسقطته من نظرى .. وعمر ابن عبد العزيز حيث قال : قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر .. قالها حين انطفأ المصباح وقام بنفسه ليشعله ..

لكننا نحن وجدنا الألقاب ، وظل الكثير منا - وحتى الفقراء - بكوات وبشوات ، وإلا ، كم منا عنده عدة نجارة .. عدة عمل فى البيت ؟ .. وإذا كانت عنده فكم منا يستخدمها ؟ .. وبالنسبة للأولاد .. المشكلة أطرف .. سمعت طفلة تقول للخادمة .. سأنام وأد أنت الواجب المدرسى لى !! حتى واجب المدرسة تحيله على غيرها ، وبالتالى فإن نظرة واحدة لمستقبل مثل هذه الطفلة تكشف لنا أنها لن تشب معتمدة على نفسها وعلى أيديها مستقبلا .. ولن يضايقنى أن يقال عنى إنى مصاب بعقدة العمل اليدوى ، لأنى دائمًا أتذكر مع

كلمة (اليدوى) شخصية عظيمة .. هيلين كيلر الكفيفة الصماء البكماء .. التى كانت يدها كل صلتها بالحياة .. بيدها رأت .. بيدها سمعت .. وبيدها عاشت وأضاءت للإنسانية ١٨ شمعة فى صورة ١٨ كتابًا .. واليد ليست خاسة خامسة ، إنما مجموعة حواس وأداة إنتاج .. وحينما تتوفر فى اليد الصفات التى طالب بها سيدنا محمد ، تستحق اليد المصافحة وتستحق أن يربّت عليها فى حب ..

٤

هناك سؤال يطرح .. هل يقف الآباء فى المطبخ ليغسلوا الأطباق ، ويشاركوا فى أعماله وأعمال البيت .. وهل هؤلاء الآباء يشوشون أفكار الأطفال بالنسبة لدور الرجل فى البيت وفى الأسرة ؟! .. منذ وقت قريب سألنى ابنى الصغير ، وعمره ٧ سنوات قال لى وأنا فى المطبخ .. لماذا أنت هنا ؟ .. لماذا تعمل أعمالا ليست لك ؟ .. فدهشت وسألته : من قال لك إن الرجل لا يعمل فى المطبخ قال لى : المربية .. أدركت حين سألتها أنها أرادت ذات يوم أن تخرجه من المطبخ فقالت له هذه العبارة ، والواقع أن الآباء الذين يتصورون أن عمل الوالد فى المطبخ يشوش الأولاد ، الأفضل لهم أن يبحثوا عن عذر آخر يبررون به ابتعادهم عن عمل البيت .. عذر أفضل .. لأن هذا العذر لا يتفق مع منطق العصر .. والزمن .. إن عمل الوالد فى المطبخ ليس له تأثير على الأطفال إلا إذا كان الأب خجلان من هذا العمل .. يعمله وهو يشعر أنه تافه وسخيف ، والواقع أن التشويش الذى يمكن أن يحدث للأطفال متوقف على الطريقة التى

يؤدى بها الأب الأعمال ، وليس على الأعمال نفسها .. على الأسلوب .. على المشاعر . والأحاسيس التى تنكشف خلال العمل ذاته .. والآباء الذين يخجلون من هذه الأعمال يورثون خجلهم لأولادهم .. أما الآباء الذين يشاركون فى عمل البيت بحب ونشاط وتعاون ، ويقدمون خدماتهم ، وبالذات ما يحتاج منها لفترة معينة أو خبرة بالذات ، فهؤلاء يجعلون أبناءهم يحترمون هذا العمل ، ويورثونهم الفخر بأنهم رجال ، لا يستنكفون أى عمل من أى لون لأن البيت بحاجة إليه ، والأسرة أيضًا ..

والواقع أننا لابد أن نخفف فى بلادنا من التأثير السيئ لفهمنا .. جيلا بعد جيل لموضوع الرجولة ومكانتها فى البيت والأسرة .. لابد من أن نميز بين أننا نمثل دور الرجل وبين أن نبقى رجالا حقيقية .. ولابد أن تتغير نظرتنا وأولادنا من أنه لا حيلة للرجال (بأعمال البيت) إلى نظرة جيدة « إن الرجل لابد أن يكون مستعدًا لتقديم خدمته باستمرار ، وبسرور ، وباستمتاع وإذا كان عرش الأب بدأ فى الاهتزاز فى البيت ، فليس هذا راجع إلى أن الأم تناضل لتأخذ حقوقها ، لكنه راجع إلى تخلى الأب عن مسئولياته .. وأعبائه .. وأعماله .. وإذا كان يريد العودة بشكل ديمقراطى إلى مكانته ونفوذه ، فعليه أن يراجع نفسه بالنسبة لموضوع العمل فى البيت ، لأن هذا هو الطريق الوحيد الذى يعيده للعرش الذى اهتز من تحته .. وهناك مواقف لانود أن تحدث ولكنها تحدث ، نتيجة أن الأم تتحمل كل المسئوليات ، فتأتى لحظات تطالب فيها بكل الحقوق ، وتتخذ قرارات ، وتدب خلافات .. وكان من الممكن تفادى ذلك كله من البداية ، والوضع المثالى للأب فى الأسرة أن يكون مثلا للقوة الجسمانية . وهذه ليست مرادفة للضرب والإهانة .. لأن القوة الجسمانية هى التى

تتحمل عبئًا لا تقوى عليه الأم ، كأن تفتح شيئًا يحتاج إلى قدرة وقوة معينة ..
وليست القوة للسيطرة للتمكنة الباطشة التى تفرض نفسها على كل شخص وكل شىء فى البيت ، بالعنف والقوة ، وهذا مهم جدًّا فى تنمية شخصية الطفل ، سواء كان بنتا أو ولدًا .. وقد أصبحت الحياة محتاجة منا جميعا أن نمد أيدينا إلى كل عمل .. وانتهى عصر ازدراء الأعمال اليدوية ، انتهى عصر استدعاء السباك والكهربائى والنجار وبقية الحرفيين لكى يطرقوا أبوابنا ليلا ونهارًا لأننا فى عصر الأب الفنى .. الذى يقوم فى البيت بدور السباك والكهربائى والنجار .. ولا بأس من أن يقوم بدور الطباخ ويأكل أبناءه طهيًا من صنع يديه .. فكم سيكون هذا الطبق لذيذًا .. ولو لم يكن جيد الطهى .. لأنه سيقدم مع الطعام حب وعمل الوالد ..

* * *

وهكذا صحبناكم وأكبادنا فى رحلة امتدت طويلا نرى خلالها أننا حاولنا أن نقدم دليل الآباء الأذكياء لبناء الأبناء ، نرجو أن يكون دليل خير لعملكم وحياتكم وتربيتكم لهذه الأجيال الجديدة ، التى نود لها حياة أجمل من حياتنا وأسعد !

فهرس

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٧٢٣٠
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 3779 - 5

١ / ٩٢ / ٩٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



أطفالنا [illegible] فلذات أكبادنا من أجلهم
نبذل الغالي والرخيص ونقدم لهم كل الحب
والرعاية
وهذا الكتاب يستهدف كل المهتمين
بالطفل أبا وأما ومعلما ومعلمة
مؤسسات وأفرادا حتى يقول الطفل يوما
ما أدبني أبي ومعلمي فأحسن تأديبي